رواية

سناء كامل شعلان

السقوط في الشمس

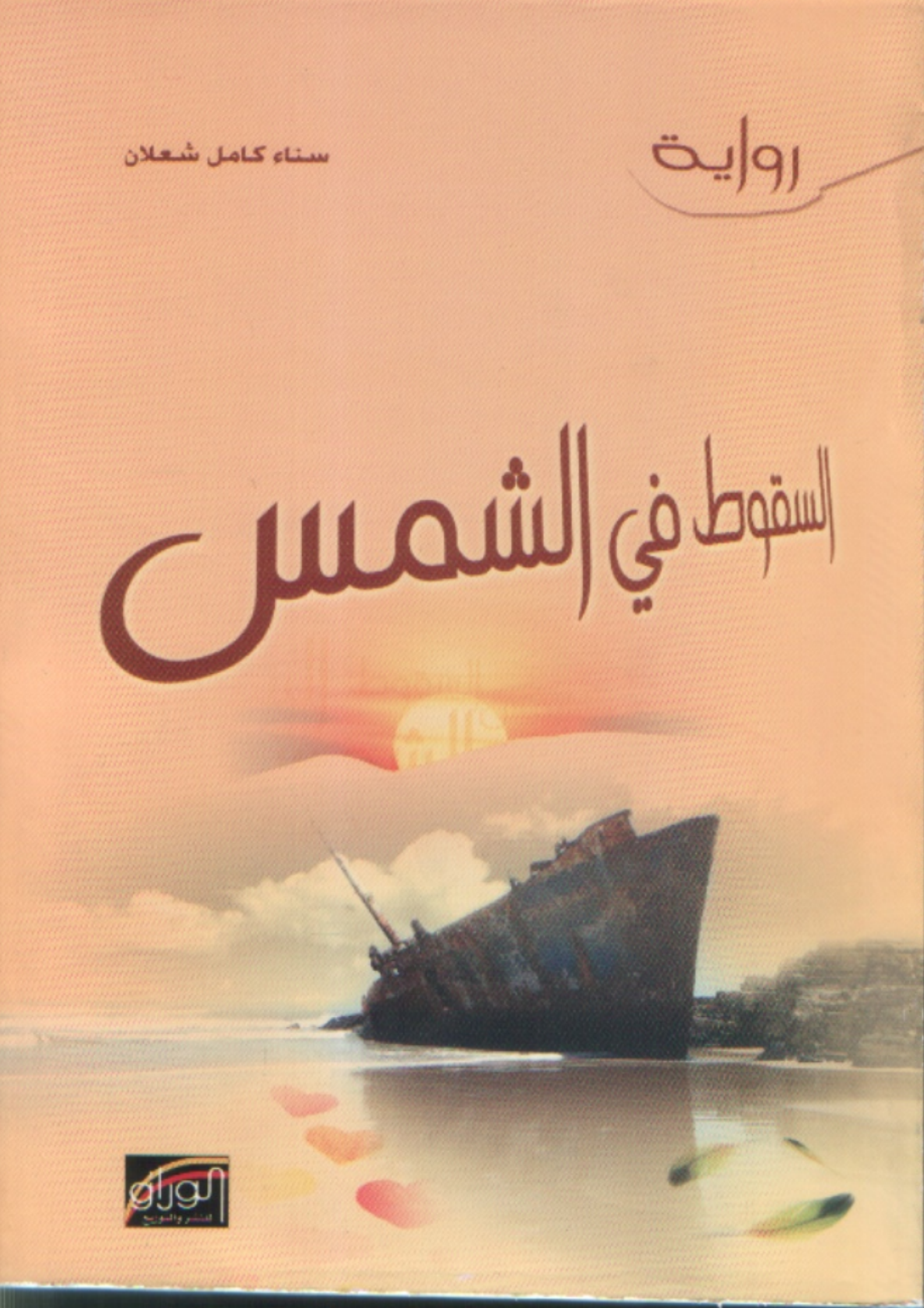

الوراق
للنشر والتوزيع

رواية

سناء كامل شعلان

السقوط في الشمس

الإهداء

لأنّ قلبي أهداني إليكَ، لأنّ روحكَ تسكن جسدي، لأنّ طيفكَ يلازمني أبداً، لأنّ كلّ ما صنعتْ يداي يحاكي رسم عينيكَ، أقول لكَ وأستثني كلّ البشر :

إليـــــــــــــــكَ

(١)

روحي ؟!

أنتَ روحي . . . ماذا تقول ؟!

مجنون ، أتُسرق الأرواح ؟! اتهمني كما تشاء ؟! ماذا ؟ ماذا تقول ؟!

من أين سرقت روحي ؟ لا أعرف ، أتعرف أنت ؟

لا بد إنَّك تعرف، أنفاسك تقول أنّك تعرف، جسمك مضطرب ويتفصَّد عرقاً، لماذا؟ تعال . . . اجلس إلى جانبي ، ودعني أتحسّس ذلك الضلع العجيب الذي خُلقتُ منه.

أنتَ من روح الخالق ، وأنا نسيبة جسدك وبعضٌ من وشـــائجه ، نعـــم . . ضمَّني ، تحسَّسني بعطف يشبه عطف الجسد على عضوه ، تحسَّسني بشوقٍ يـــشبه شوق المسافر المعنَّى للبيت القديم ، تحسَّسني بدهشة تشبه دهشتك عندما خُلقتَ مـــن ضلعك ، تحسَّسني بألفة تشبه ألفة روحي لروحك، روحي التي تلهث دائمـــاً وراء روحك العابثة.

لماذا تتحسَّسني بهذه الطريقة ؟ أنت تخيفني . . . أرجوك اتركني ، بل أرجـــوك لا تتركني . . . من أنا؟!!

سأعترف ، لن أصمت بعد الآن .

أنا عشق نساء الأرض كلّه ، أنا شوق نساء الأرض كلّه ، أنا رغبة نـــساء الأرض كلّها، تحاصر رجلاً واحداً . . نعم أنت .

أتعرف حوّاء ؟

سرقتْ روحها منكَ ، ولكنّك أحببتها أليس كذلك ؟ هي رفيقتكَ في الرّحيل الأكبر، أمضتْ أربعين عاماً تبحث عنك ليلاً ونهاراً ، تفضّ عذرية الغربة بحثاً عنكَ في المنفى الأرضي . . . حتى وجدتكَ .

روحي سكنتْ جسدها ، بل سكنتْ أجساد آلاف النّساء العاشقات ، سكنتْ جسد امرأة أفنت العمر في انتظار الزّوج الغائب ، سكنتْ جسد جارية فرعونية تستقبل الموت راضية إلى جانب سيّدها الحبيب الميت ، سكنتْ جسد أسيرة تعسة تقع في عشق آسرها ، سكنتْ جسد امرأة مصابة بالجذام تعشق طبيبها الجريء ، سكنتْ جسد امرأة عشقتْ صورة رجل لم تقابله ، سكنتْ جسد امرأة تموت مخذولة من حبيب خائن ، سكنتْ جسد عذراء انتظرت فتاها آلاف السنين ولكنه لم يأت ، سكنتْ جسد فتاة تودّع الحياة مختارة لتُزفّ إلى الموت الذي التهم من تحب ، سكنتْ جسد امرأة وفية لرماد في جرَّة كان في يومٍ عشقاً آدمياً يذيبها سعادة وشهوة ، سكنتْ جسد كاهنة أوغاريتية تعشق بجنون، وتزرع الدنيا ياسميناً يعشقه فتاها ، سكنتْ جسد فتاة صغيرة تعشق إله إغريقي يعشق عشقها له ، سكنتْ جسد بدوية تائهة عطشى ترسم وجهك سراباً في صحرائها الجافة ، سكنتْ جسد فلاّحة نذرت شبابها وقوداً في محرقة أعباء الحياة تتقاسمها مع شريك عمرها ومليك قلبها ، سكنتْ جسد وثنية عاشقة تقدِّم حياتها قرباناً لشفاء الحبيب ، سكنتْ جسد عاشقة مجهولة سرقت قبلة من خدِّ حبيبها النائم، وولَّتْ هاربةً بغنيمتها الثمينة ، سكنتْ جسد امرأة خضّبت يديها بالحناء انتظاراً للحبيب الذي عاد جثةً من المعركة . . .

روحي سكنتْ وسكنتْ ثم سكنتْ جسدي الذي عشقك أبداً ، بعدما أسكنته لآلاف السنين في جسد آلهة عذراء ، تطوف الدّنيا تزور السّماء ، تقبِّل النجوم، تخرج كلّ ليلة باحثةً عنك ، فتجدكَ ممتطياً عربتك الذهبية ، تحمل الشمس ، وتهدي

النّور للبشر ، وتنديهم من ينبوع رجولتك وبهاء طلّتك ، فتقبّلُك ، تهديك دفلى مشاعرها ، وتركض نحو البعيد . . . بانتظار ليل الغد .

روحي طافت السماء والأرض لتلقاك ، لتلتحم بكَ وتذوب فيكَ ، روحي تحلّق مسحورة حول مومياء مصرية ، محفور على نعشها بماء اللّعنة :

إنني أستنشق الهواء العذب الخارج من فمك
وأتأمّل كلّ يوم في جمالك
وأمنيتي هي أن أسمع صوتك الحبيب
الذي يشبه حفيف ريح الشمال
إنّ الحب سيعيد الشباب إلى أطرافي
أعطني يدكَ التي تمسك بروحي
وسوف أحتضنها وأعيش بها
نادني باسمي مرة أخرى وإلى الأبد
لن يصدر نداؤك أبداً بلا إجابة عنه

أما الليلة فروحي تعرج كسيرةً ، لتتّخذ جسدي المتهدّم العتيق موئلاً لها . الجو يغطُّ في آخر مداعبات الخريف ، السماء تتهيأ باستحياء لولادة شآبيبها المنتظرة ، هاهو القطار يتوقّف عن إصدار صفيره المحموم ، يتوقف في مكانه المرسوم له بالقضبان الحديدية . من الشبّاك الذي يجاور الشاب الحليق الذي يجلس إلى جانبي أتابع حركات الركاب المتجهين جميعاً نحو البوابات ، البعض يشقّ طريقه سريعاً بين الجموع ، البعض يتوقف ، يحرك رأسه يميناً وشمالاً بحثاً عن صديق أو قريب في انتظاره ، وآخرون يتجهون سريعاً نحو أقرب حافلة أو سيارة أجرة ، يستقلونها مبتعدين عن المكان .

أصبح القطار شبه فارغ، أسرع إلى التقـــاط حقيبتـــي النّـــسائية القديمـــة ، وارتداء معطفي الشتوي البنّي اللون ، ذلك اللقاء الحميم أوّل ما خطف نظراتي عند أوّل خطوة أخطوها خارج القطار، لقاء بين شاب أسمر وفتاة شابة فـــي المحطّـــة ، أتساءل بفضول من تراه يكون ؟! أتابع للحظاتٍ حركـــات أطرافهمـــا واضـــطراب ابتساماتهما وفرحة نظراتهما المسكونة بكلام ، أظنُّهما يستطيعان فكّ رموزه .

أصمتُ ، أخطو خطوة ثانية وسادسة وتاسعة ، أصبحت في ساحة المحطة، البوابات واحدة اثنتان ثلاث . . . سبع ، تماماً كما تركتها منذ ثمانية عشر عامـــاً ، أما الوجوه فلا أعرفها .

أشعر برغبة خفية تدعوني إلى تفقُّـــد محتويـــات المحطـــة : الأرضـــيات والمحلات والمقاعد والأشجار وعمال المحطـــة وســـيارات الأجـــرة والمـــسافرون والقادمون كلّهم غرباء، كلّهم يجهلونني ، وأجهلهم ، تستحضر ذاكرتي صوت العـــمّ أبي علي ، قاطع التّذاكر ، يدلّلني بصوته المعهود قائلاً بدفءٍ فطري ســـاذج : يـــا صلاة الزّين على الحلوين ، أين عيون الرّجال عنك ؟ ألم تتزوجي بعد ؟!! فأجيبـــه إجابتي التي كان يردّدها بعدي مقلداً صوتي بسخريةٍ : لا أفكر بالزواج أبداً.

أين هو العمّ أبو علي ؟ لعلّه رحل الآن إلى دنيا أخرى ، كان رجلاً مـــسناً عندما عرفته ، تميزه قامته القصيرة ، وبشرته التي تكاد تكون ســـوداء لكثـــرة مـــا لوّحتها الشمس، فلقمة العيش كثيراً ما تحرق وجوه أصحابها لا سيما إذا كانوا فقراء من أمثال أبي علي .

طيب هو، أهمل كلّ متع الدّنيا ، بل أهملته كلّ متع الدّنيا ، إلاّ متعة الحديث مع المسافرات ، والاقتراب منهن حدّ الالتصاق فـــي القطـــار ، وافتعـــال الحكايـــا

والقصص للتودّد لهنّ ، فهو مستعدّ دائماً ليهيء مكاناً جيداً لك في القطار لا سيما بالقرب من الشّباك في المقاعد الخلفية ، بل ومستعد لحمل حقائبك مقابل بعض الحديث المتقطِّع معك ، وهو يلتهم بنظراته المحمومة جسدكِ وابتساماتك ، بشرط أن تكون المسافرة صاحبة جسد ممشوق ، يضطرب بشباب تحت ملابس تصفه بجرأة بل ، ولا تمانع أحياناً من أن تبرزه ، وتكشف عن أديمه في بعض المواقع لا سيما الصدر والرقبة والأكتاف ، أما إذا كانت المسافرة كبيرة أو سمينة فلا نصيب لها عنده أبداً ، فسرعان ما يتجهّم، ويعطيها تذكرتها بخشونة وبحركة آلية بغيضة ، ويسارع ليرقب وجوه الحسان المبتسمة له أو منه ترقبه من نافذة القطار مبتعدة ، ويعود إلى مكتب المحطة لينتظر القطار القادم ، فحياته لم تكن سوى المحطة ونساء المحطة . بقيتْ المحطة ، وهاهي النساء تملؤها ، أمّا العمّ أبو علي فأظن أنه قد رحل .

تنبعث رائحة القهوة في المكان من إحدى المقاصف في المحطّة ، هذا المقصف لم يكن في الماضي ، بل كلّ المحلات هنا باتت مختلفة ، الواجهات ، التصاميم الألوان ، السلع ، الوجوه ، لا سيما الوجوه.
أما بائع الزهور فلا مكان له هنا ، أصبح محلّه يبيع المثلجات التي تبدو شهية ، ترى متى أُغلق محله ؟ لعل زهوره حزنت لفراقي ، فأنا كنت عاشقة لها ، محلَّه كان قبلتي الأولى عند وصولي إلى هذه المدينة، كنت أختار زهوري بنفسي ، بل وأنسقها بيدي وأدلف إلى المدينة وأنا أضمّ باقة حمراء إلى صدري ، دائماً حمراء ، هكذا هم العاشقون دائماً يحملون الورود لمن يحبون . أما الآن فلا محلّ للورود ، لا محل للأشواق ، أين ذهب العاشقون ؟ أنا كنتُ شعباً من العشاق ، هذا المحل يقتات من عشقي ، أطيل التحديق في واجهته الزجاجيّة ، يدعوني صاحبه للدخول ، لكنني أتجاهل دعوته، وأسير بتؤدة حطّمها الانتظار ، وأثقلتها السنون والذكريات .

أجلس في أحد المقاعد الخشبية ، تظلّلني السنديانة القديمة ، لقد أصبحت كبيرة وضخمة ، ولكنّها لا تزال شابة ، أشعر بأنّ غصونها الوارفة ترحِّب بي بشكل خاص، وتشفق على وحدتي ، لقد عرفتني في حين أنكرتني المحطة ، فالسّنديانة لا تنسى أبداً من يحفرون بدموعهم على جذعها .

الكلّ يسير مسرعاً ، ففي مثل هذا الصباح الباكر تستقبل المحطة الكثير من المسرعين وأصحاب الحاجات والوظائف والأعمال ، إلا أنا فأجلس بهدوء أرقب الوجوه ، أتحسسها بحنوّ غريب ، بحنوّ الأم التي تفتقد صغارها ، كما أفتقد أحلام بالذات دون إخوتها ، أفتقدها بقدر ما أخشى والدها ، لأول مرّة أخشاه ، لطالما سببت له الحزن، لقد أرادني حبيبة، فلم أعطه غير زوجة بليدة وحفنة من الأبناء، وحياة هادئة ورتيبة إلى درجة الغثيان ، أخشاه لأنني أهنته عندما حزمتُ حقائبي دونما أيّ سبب ، وتركتُ أبنائي بل تركتُ حبيبتي أحلام باكية وحيدة ، تحدِّق في وجه أبيها المخذول ، وامتطيت أشواقي وقطعت نصف الأرض لأعود إلى هنا ، لقد وصلتُ قبل ساعات قصيرة إلى البلد ، وهرعتُ كالمجنونة إلى القطار .

وها أنا ذا لا تفصلني عنك إلاّ دقائق قليلة . لن يسامحني ، أنا أعرف أنه لن يفعل ، له الحق ، لقد منعني من الحضور ، خيَّرني بين رؤيتك وبين أبنائي وعمري وسمعتي ، خمِّن من اخترت ؟ اخترت رؤيتك، لا شيء يمنعني عنكَ، القدر لا تصدِّق به، أنا أمقته ،حبُّك هو قدري .

دائماً أعلمتكَ إنني مستعدة لكي أحرق الدنيا بخوراً في معبدك ، كنت تضحك ولا تصدق ، هاأنا ذا أحرق دنياي تعويذة سحرية كي أراك .

ستوبخني على هذه الحرائق ، ستقف مقهوراً وأنت تنظر إلى دنيـاي وقـد احترقتْ ، ستقول لي بنبرتك الحالمة :- لِمَ فعلتِ هذا ؟لِمَ هدمتِ بيتـك ، وأضـعتِ أبناءك من أجل رؤيتي ؟ لقد خسرتِ زوجك للأبد ، ولأجل من ؟ لأجل رجـل لـم يستحقك أبداً ، اللّعنة لا تزالين مجنونة بشكل استثنائي .
عندها سأقول لك غير مبالية بالدنيا ونيرانها بل غير مبالية بدموع أحلام وانكسارات زوجي وهمسات الأقارب وسخرية المعارف : لقد عدتُ .

لطالما كنتَ فضولياً وقلقاً بشأن وحدتي ، فأرحتك وتزوجـت كـي تـشعر بالراحة ، ولا تتململ في فراشك قلقاً من وحدتي وغربتي في فراشي ، في البدايـة حدثتك في رسائلي طويلاً وطويلاً عن زوجي، ثم عن طفلتي الأولـى أحـلام ثـم انقطعتْ المكالمات ، يبدو أنّ شعورك بالذنب نحوي مجرد جرح ليس إلاّ، وقد بـرأ بزواجي من غيرك . لم تتصل بي لأخبرك أنّ أحلام قد كبرت، وقد أصبحت فتـاة جميلة ، حسناً فعلت بعدم اتصالك، فأنا لم أعد قادرة على زفٍّ أي أخبار لـك عـن أسرتي وزوجي وأطفالي .

أتململ في مقعدي الخشبي ، أتخيَّل عيون الـشَّباب والمتطفِّلـين تلتهمنـي، وأحاول أن أتهرب منها ، فلطالما طاردتني نظراتهم وتعليقاتهم في الماضي ، هكـذا تعوَّدت أن أجلس على هذا المقعد متحمِّلةً تعليقات المسافرين التي تغلـظ أحيانـاً ، وترقِّ أحياناً أخرى في انتظار القطار .

أجيل نظراتي سريعاً في المكان ، أجد الكثيـر مـن المـسافرين القـادمين والباعة ، لكن لا أجد أي نظرة إعجاب أو رغبة ، بل لا تغازلني أيّ كلمة شـابّة ، ابتسم ساخرةً من تخيُّلاتي ، فالمحطّة أثارتْ بي ذكريات الماضي ، وجعلتني أخـال نفسي المسافرة الشابة ذاتها التي كانت تجلس في هذا المكان منذ سـنوات طويلـة ،

فتنشر بشرتها الوردية وعيناها الصافيتان العطر والجراح في المكان كما كتبت لـــي في دفتر مذكراتي في يوم من الأيام .

لا زلتُ أحفظ كلماتكَ عن ظهر قلب كأنّكَ همستَ بها في أذني قبل دقائق ، لا زلتُ أحفظ رائحة جسدكَ المتعطش دائماً للمزيد كأنّي ما أزال في حضنكَ ، أمـــا طيفكَ فلا يغيب عني أبداً ، رافقني لسنوات طويلةٍ ، ثم أصبح طيفكَ هو ذلك الأثير الذي نحدّثه دائماً ، ونسرّ إليه بنجوانا ، ونسميه أنفسنا ، لقد كنتَ بعض نفسي ، بـــل كنتَ كلِّي .

قبلكَ لم أحدِّث نفسي أبداً ، بل لا أذكر ملامح ذاتي ، ولكن عنـــدما وقعـــت عيناي عليكَ ، بدأت أملك طيفاً ساحراً يرافقني أينما ذهبـــت ، أحدِّثـــه فيـــسمعني ، وأشتكي له فيواسيني ، أعاتبه فيقبل عتباي ، أحتاجه فيعينني ، وفي الليل يحـــدِّثني ، يرقد إلى جانبي ، تلفحني رائحته ، يهدهدني بقصصه حتَّى أنام .

حدَّثته طويلاً وطويلاً وطويلاً عن رحلتي المعنَّاة معك ،كل ليلة احتـــضنته بدموعي، وكفنته بآهاتي، وتركتُ أناملك تتغلغل بسحر في خصلات شعري .

أشعر بوحدة خرافية في هذا المكان ، أكاد أشعر بقدميّ تخوران فلا تكادان تعيناني على الوقوف، أمعائي تضطرب ، والقيء يكاد يصل الى أعلـــى بلعـــومي ، بعد كلّ هذه السنوات لازال جسدي يضطرب كلما اقترب موعد لقائـــك ، كـــم مـــن الدهور سأنتظر حتَّى يُقبل المساء وأراكَ ؟

طيفكَ يحاصرني ، ويجثو قريباً منِّي ، يستفزني بدعوى الذكرى ، ويدفعني نحو الماضي ،نحو الذِّكرى نحو جنَّة الهوى ، وبحركة طفوليَّة يدفعني إلـــى سِـــفْر الماضي لأقلِّب صفحاته منذ البداية ، حيث ألقاكَ ...

وفي أول صفحات السِفْر كُتب بماء الذكريات والألم ...

(٢)

ثلاثة طوابق من السلالم تهبطها حتى تصل إلى قاعة كبيرة ذات أبواب خشبية تتوسطها نوافذ زجاجية دائرية الشكل، تشعركَ بأنّك ستدخل غواصة محكمة الإغلاق أو غرفة للعمليات. عندما تتجاوز هذه الأبواب تجد نفسكَ في قاعة ضخمة، مقسّمة بشكل يثير الفضول ، في الجهة اليمنى باب ينفتح على مجموعة من المكاتب الإدارية ، ووسط القاعة بهو فسيح يزخر بآلات صنع الفخّار ومعدات الحفر وطاولات التنفيذ، إلى جانب السبّورة طاولة ومجموعة من المقاعد الفردية ، الجوانب تتشاطرها الخزائن و أحواض صنابير الماء ، أمّا في أقصى الشمال فيقع قسم الأفران الحرارية الذي ينفرج عن درجتين تدلفان مباشرة إلى مستودع و صالة للعرض مبرّدتان بشكل خاص.

هناك قابلتكَ لأوّل مرة ، كنتُ ألبس ثوباً أزرق ، أزرق كزرقة السماء ، اللون الذي أحببته دائماً وقلتَ : إنّه لون من المستحيل أُرسل إلى الأرض خصيصاً كي ألبسه ، قلتَ لي : إنّني في الأزرق أصبح أجمل وأكثر وداعة وأقل حركة ، تلك الحركة وذلك النشاط اللّذان كنتَ تعجب دائماً كيف أنّهما وهبا بكل هذا السخاء لامرأة واحدة في ثوب ازرق !

كنتُ ألبس الأزرق، وأغرقُ في مقعدي الخشبي في الصف الأخير من القاعة ، استعرض الوجوه الجديدة التي توالي الدخول إلى القاعة خارجة من سيل الوافدين الذي تعجّ به الردهات ، فتصنع هرجاً ومرجاً يتداخل مع رائحة أول

قطرات المطر تختلط بالتراب ، فيعبق المكان برائحة أمّنا الأرض تقبل بلــذّة علــى الشتاء .

تأخر قدومكَ بضع دقائق ، وكادت كلمات المجاملة التقليدية التــي أعرفهــا تنفد مني خلال حديثي مع فضيله التي كنت حديثة المعرفة بها ، فأنا لم أعرفهــا إلا منذ أيام قليلة ، عندما قابلتها صدفة في مكتب رئيس شعبة المنح الأكاديميّة.

أزعجني تأخركَ ؛ فأنا على موعد معــكَ منــذ آلاف الــسنين ، وهاأنــا ذا أنتظركَ هنا،متّشحةً باللون الأزرق الذي تحبُّه، دون أن أتأكّد إنْ كنتُ سأراكَ بعــد دقائق أم لا.

لقد شعرتُ بكَ تقترب ، أشعتكَ كانتْ تسبقكَ وتتسلل بسحر إلــى المكــان ، تردّد على مسمعي أسطورة أبيك (زيوس) العظيم ، كبير آلهة اليونان ، لقــد كــان متزوجاً من إلهة الزواج (هيرا) ، تلك الجميلة التي وهبت له كلّ حبّها بل وغيرتها. لقد كان قويّاً جبّاراً ، ولكنَّه ركع أمام الحب ، وهجر حب السماء ليعشق آدمية فانية تسمى (لاتونا)، وتزوجها، فوهبته أجمل توأمين : (هيليوس) إله الشمس والرّجولــة والأدب و (أرتيمس) آلهة القمر والصيد.

(هيليوس) ذلك الإله الشاب الجميل ذو العيون الزرقاء ، والــشعر الأشــقر المجعّد ، والجسد الرجولي الرائع الذي يمثّل نهراً خالداً للرّجولة ، يركــب عربتــه الشمسية ، ويندي العالم بنوره الخالد.

أنا لا أؤمن بالأساطير ، هكذا كنتُ أظن ، فقط أحبُّ قراءتها ،ولكن عنــدما دلفتَ إلى القاعة ، شعرت بأنّ الأساطير حقيقةٌ تتجسّد أمامي ، تندي القاعة بجسدك

الفضّي الذي يفيض رشاقة وجاذبية، أعضاؤك متناسقة بدقة غريبة ، لدرجة أنّها قد راودتني دائماً فكرة مفادها أنّ مقاييس أعضاء جسدكَ لو اختلفت بمقدار مليمترات لما عرف البشر معنى كلمة رجل يفيض جسده بالرجولة.

عيناكَ تكسوان وجهكَ بل ووجه الرائي لهما ببريقٍ عجيبٍ يُشعر من أمامكَ أنّه يعرفكَ من آلاف السنين ، بل وأنه قد عبدكَ حد الموت . أما شعركَ فخصلاته تسابق بعضها البعض لرسم لوحة عجيبة لقرص الشمس عند الغروب ، يمتد شعرك في كلّ الاتجاهات ليعانق بفوضوية رجولية تتوافق مع طبيعته المجعدة أطراف رقبتكَ وأذنيكَ ، ويشابه بلونه الفريد لون تلك الشعيرات التي تنبت بسحر في أديم صدركَ المكشوف مابين الزرّ الأول والثالث من قميصكَ السماويّ اللون ، لتظهر بروز عظام رقبتكَ وكتفكَ وصدركَ بشكل يحاكي تمثال إغريقيّ قديم .

قالت إحدى الطالبات بصوت خفيض ساخر تسرَّب إلى أذنيّ دونما قصد مني: شعره يشبه شعر أينشتاين . فاستثارت حنقي ، وشتمتها بنفسي قائلة : غبية !!

وسرعان ما أعلنتُ لنفسي أنّني أكرهك ، وسأكرهك إلى الأبد ! لماذا ؟ لا أعرف . فأنا دائماً ثائرة ، قليل ما أعرف سبب ثورتي ، أما معظم الأوقات فأنا ثائرة حدّ الموت، ولكن دون أن أعرف السبب ، هكذا أنا ولدت كي أكون ثائرة .

تجلس بثقة كما أعتاد (زيوس) العظيم أن يجلس على عرشه الذهبي المرصع بالماس والحجارة الكريمة ، يأمر وينهى فيُطاع .

كنتَ تتحدث ببطء عذب ، طبقة صوتكَ العميقة الدافئة تثير في أذن السامع لذة غريبة ، يحصل عليها عبر دفعات من الكلمات المنطوقة بتؤدة ودودة . عيناك لا تهبان نظراتهما الجميلة لوجه بذاته ، تحلِّقان في البعيد نحو بحيرة بنية في عميق

عينيكَ ، ولكنّهما تنديان الكلَّ بنظرات دافئة تحثّهم على السماع والانتباه ، أمَّا عندما يأتي دوري لأحصل على هذه الهبة السخيّة ، فأستقبلها بنشوة أجهل سببها.

كم أنهكتني عيناكَ ذاك اليوم، طاردتهما لآلاف السنوات ، والآن أطاردهما في القاعة، لدرجة بتُّ أظنّ أنّ كلّ من في القاعة يسمع صوت لهاث نظراتي ، التي تسرق آلاف الأمنيات والوعود من وجهكَ الطيب ، أمّا خاتمكَ الفضي ذو الحجر اللازوردي الساحر الذي يحاصر إصبعكَ ، ويشتمّ بثمالة أديم يدك السكري يؤكّد لي بحركته المتمايلة في إصبعكَ وعودكَ وأمنياتي .

جِلْستكَ وحديثكَ وخاتمكَ بقيتْ دائماً بالنسبة لي سحراً لا ينفكّ يفتنني في كلّ مرة . كم كرهتكَ في ذلك اليوم ؛ لأنّك حفظت اسم فضيله ولم تحفظ اسمي ، ولكنني قررت قتلك عندما قلت:– إنّني أشبه إحدى طالبات القسم ، كيف أشبهها ؟! أنا مختلفة عنها بالتأكيد ، مختلفة عنها بمهمتي ، فأنا بُعثت إلى الأرض في مهمة واحدة : أن أحبّك .

سرعان ما أنهيتَ حديثكَ ، وأسرعتَ بعيداً بعربتك الذهبية ، وغابت شمسكَ، ونزل المطر . . .

لن تصدقني لو قلت لك : إنّني في ذلك اليوم قررت ترك الأكاديمية ، ومنع نزول لعنتكَ عليَّ ، والعودة إلى بلدي ، ونسيان كلّ الدنيا لأنساكَ أنت بالذات ، بل تمّنيت من كلّ قلبي أن تحترق الدنيا والأسماء والأماكن والشخوص لتحترق أنتَ بالذات . . . أكرهكَ ، لماذا ؟ لا أعرف . وإذا ابتسمتَ لي أو كلمتني فسأقتلكَ . هذا ما قلته لجدتي عنك في أول مكالمة لي معها بعد مقابلتي الأولى لكَ، جدتي التي اغتنمت فرصة انزعاجي لتبكي بحرارة ، وتسبَّ والديَّ اللذين سمحا لي بالسفر

بعيداً ركضاً وراء منحة مجنونة و(تكسير صخور) كما كان يحلو لهـا أن تـسمي دراستي وفنّي . وأقفلتْ الهاتف بعد أن غابت في موجة من البكاء اعتـدتها فيهـا ، فهي من أكثر النساء عشقاً للبكاء ، هكذا هو طبعها .

أما الحال في بيت الضيافة فقد كان مختلفاً ، بالـذات للفتيـات المـستجدات أمثالي ، وأمثال نورما التي كانت تغرق المكان بضحكاتها اللعوب التي سرعان مـا تتعالى لأي همزٍ أو لمزٍ أو إشارةٍ مثيرة من نوع خاص اعتادتها في بيئتها المتحررة نوعاً ما .

لم يفارقني طيفكَ تلك الليلة ،لكن الأمر بدا لي غير مقلق ، فمن الطبيعي أن يراودني طيف شخص أكرهه ، ومضطرة في الوقت ذاته إلـى أن أتعامـل معـه، وأستفيد منه دون أن أثير ضغينته أو كرهه ، بسبب خصوصية دراستي التي تحتاج ذوق وقلب ومزاج المعلم قبل علمه ، هكذا هو النحت وصنع التماثيل ، تقـدّها مـن الصخر ، وتشكلها بالأزاميل ، لكن تبعث فيها الروح من شعلة قلبك ، وهـائم فنّـك وموهبتك ، جسد من صخر ، وقلب من دم وعشق ، الموت والحياة معاً ، هذه هي فلسفة الحياة (الشيء يحمل نقيضه) وفلسفتي الشخصية التي لطالما ردّدتها أمامـك . لكن عندما كنتَ ترددها أمامي، وتستشهد على صدقها بمواقف كثيرة من حياتـك ، ومن سلوكي المتطرف حسب رأيكَ ، وتعجب من أنّك لم تدرك هذه الثنائية العجيبة بين الشيء ونقيضه قبل أن ألفت انتباهكَ إليها، كنتُ أشعر بمعنىً آخر لهذه الفلسفة.

جميل أنّ دار الضيافة تحتوي علـى هـذا العـدد الكبيـر مـن المرايـا الطويلة،فلأول مرة أشعر بحاجتي أنا المرأة إلى مرآة ، أقفل الباب علـي وإياهـا ، أتعرّى أمامها ، أحدّق في كل جزء من جسدي ، أتأمّل لـون البـشرة ، أتحـسّس أديمها، أحدّق في عيني ، أتأمّل في لونهما ، أتساءل عن معنى البريق الذي يسكنهما

منذ أن رأيتك . أقترب من المرآة ، أبتعد عنها ، أتأمّل استدارة وجهي في المـــرآة ، أتأكّد من أبعاده، أحاول رؤيته من أكثر من زاوية ،أتلمّس أطراف شعري ، أداعبـــه بيدي ، وبحركة سريعة أسمح لبعض عقاربه أن تتدلّى علـــى جبهتـــي ، أشـــتمّه ، وأحفظ رائحته ، وأتساءل ترى ما هي رائحة شعرك؟ أظنّها رائحة النعناع البـــرّي التي تنقل رائحة الجبل.

أتأمل في وجه نورما وهي نائمة ، تبدو لطيفة وطيبة ، لكنني لن أســـامحها أبداً، كيف تجرؤ على أن تقول لي : إنّ وجهكَ مألوف بالنسبة لها ؟ فقد لمحتك أكثر من مرة في مرآب الأكاديمية . أرأتك قبلي ؟ أغمرتها أشعَّتك الذهبية قبلي ؟ كم من النساء نعمن بدفء أشعتك قبلي ؟ الويل لنساء الأرض من عشقي .

(٣)

لا أحبّ الكتابة بل لا أتقنها ، ولكن عندما أفكّر بكَ تجتاحني آلاف الكلمات، وأصبح بكلّ بساطة أعشق الكتابة ، أنتَ تحبُّ القراءة ، قراءة كلمات العشق ، وأنا أعشق أن تقرأ كلمات عشقي، أرسلتُ لك آلاف الكلمات على بطاقات تزينها الورود التي أعشقها ، فهل قرأتَ كل كلماتي ؟ كتبتُ لك في يوم :

أيُّ شيء كنت بالأمس وهل بالأمس كنت ؟
كنتُ بالأمس سـراباً ومع الأمس دفنتُ
كلّ يوم عشته قبلكَ ما كان حقيقة
أمس عمري عرف الدنيا
وأمس اختار للدنيا طريقة

لم يكن الأمس بدونكَ إلاّ مجرّد ذكرى ، تلحُّ النساء في دار الضيافة على سؤالي عنها ، فنساء الدار لا تختلف عن نساء الأرض ، أسئلة كثيرة ، ورغبة دائمة في معرفة المزيد والمزيد عن حياتك ، لا أعرف لماذا تجمدت ذكرياتي عن ماضيّ بعد لقياكَ، وأصبحتْ خيطاً بارداً من الذكريات تكللّه بعض الزهور .

حياتي بسيطة ، ولكن جميلة تتلخص في أسرة طيبة ، وأبوين متحابين بشعرٍ بدأ الشيب يغزوه ، قطعا جزءاً كبيراً من رحلة العمر سوياً في سبيل بناء أسرة متحابة ، تنبت أبناء طيبين وإيجابيين مثلهم تماماً ، لا أقول هذا عن والديّ لأنهما والداي ، ولكن من يعرفهما ، يعرف معنى كلمة طيبين، كيف لا يكون طيباً من يحب الحيوانات ويربيها ؟ كيف لا تكون طيبة من تعشق الورود، وتزرعها في حديقتها وعلى منزلها؟ ذلك أبي وتلك أمي .

أشعر أحياناً بأنّ حياتي قبلك لم تكن ، وكلّ ماضيَّ قبلك مجـرَّد ذكريـاتٍ أوحتها لي صورٌ لا تخصُّني ، تشبه تلك الصورة القديمة التـي لا أملـك غيرهـا لطفولتي ، صورة غريبة، فبينما الأطفال الذين معي يلهون ويعبثون بالماء ، أجمـع أنا الورود ، وأجعل منها طاقة قد أذبلتها الشمس وطول ضمِّي لها، وأنظـر نحـو البعيد ليس نحو الماء أو الأطفال كعادة الأطفال في مثل هـذه الـصورة الطفوليّـة العفويّة ، كأنّني وُلدتُ لكي أجمع الورد ، وأنتظركَ أنتَ بالذات .

لمدة أربعة أيام لم أركْ ، بل تجنبت أن أراكَ ، لم أذهب إلـى الأكاديميـة ، وكانت تلك المدة فرصة ذهبية لكي أتعرّف بشكل جيد على تلك المجموعة الطَّريفـة التي رتَّب لي القدر فرصة لقائها . ولكنني لم أرغب أبداً في إهـدار طـاقتي فـي الهروب منك ، فمنذ اللحظة الأولى عرفتُ أنَّك قدري .

في الطريق إلى المتحف تأمّلت أشجار السِّنديان ، جميلة هي لأنّها صـامدة وقديمة ، أتراكَ تحبها مثلي ؟ من المدهش أن أزور متحفاً عريقاً قرأت عنـه فـي دليل المدينة الذي وجدته مصادفة في مقطورتي في طريقي إلى هذه المدينة .

سأمضي هناك الكثير من الوقت ، بل سأزور كلَّ مرافقه ، هذا ما وعـدت نفسي به ، كنتَ في قاعة أعمال الطَّلبة ، المخصَّصة لتلك الأعمال التي يحاكي بهـا طلبة الأكاديمية بعض النماذج العالمية للتماثيل والمنحوتات واللوحات ، أتأمّل ذلـك المثال البديع الذي يمثِّل امرأة حسناء بعيون ساحرة وقـدٍّ غـضّ ، ورداءٍ يونـانيٍّ فاخر، عندما سمعت صوتكَ يقول : تشبهكِ أليس كذلك ؟ لم أفاجأ لسماع صـوتكَ ؛ فأنا كنت بانتظارك ، فأنت قدري ، لكنني ارتبكت عنـدما اسـتدرت لأجـد قـدَّك الممشوق أمامي ، قدري يغرق في اللَّون الكحلي الذي ترتديه ليشيع في عينيكَ بريقاً

غريباً ، شعرت بأنَّني أمام تمثال لإله إغريقي قد بعثت فيه الحياة ، كي يسحرني ، قد تكون الآلهات خرافة ،ولكنّني أؤمن بالخرافات إذا تعلَّقت بوجودك .

أجبتك باضطراب : التمثال جميل !

قلتَ لي بثقة : اسمها جالاتيا .

كررت كلامك : آه . . جالاتيا !

قلتَ لي : جالاتيا اسم تمثال أسطوري ، ورد ذكره في أسطورة فنان قبرصي اسمه (بجماليون) صنع تمثالاً معجزة لامرأة يحاكي بها المرأة المثال ، ثم عشق هذا المثال ، فرجا آلهة الجمال أن تبعث به الحياة، ففعلت ، ولكنّه لم يطق أن يرى فنَّه الخالد يصبح بشراً فانياً يهرم ويموت ، فطلب من آلهة الجمال أن تعيد (جالاتيا) إلى حالها الأول ، وبعدما استجابت الإلهة له ، هوى على تمثال (جالاتيا) بالمكنسة التي كانت تكنس البيت بها ، وحطَّم تمثاله البديع خوفاً من أن يصبح جسداً فانياً .

كنت أحفظ هذه الأسطورة عن ظهر قلب ، ولكنَّني وجدت لها وقعاً خاصَّاً وأنت تسردها عليّ، كلماتك تتهادى بدفء وأنت تلفظها بصوتك العميق، وكأنّه يتسرّب من جدار الزَّمن ، أمَّا عيناك فترى فيهما القصص تتراقص وتتجسَّد وتسلِّمك نفسها .

قلتَ لي وأنت ترقب أثر كلماتك في نفسي : لقد رأيتكَ من قبل في الأكاديمية ، ما اسمك ؟ تأمَّلت عينيك ، لأول مرة في حياتي أتأمَّل عيني رجلٍ وأنا أبحث فيهما عن نفسي. قلتَ في نفسي: بل رأيتني قبل ألف سنة وأحببتك: اسمي .....

قلتَ بنبرة ساحرة : اسم جميل .

أجبتكَ بسرعة وكأنّني قد هيّأتُ هذا الرَّد من ألف سنة : أسماؤنا أسخف مـــا نحمل ، أسماؤنا ليست لنا، بل هي ملك للقدر . أجبتني بابتسامة جذَّابة : أنا أعـــشق النساء الذكيات . قلت لك بجرأة لم أعهد مثلها في نفسي ،بل كنت اســـميها أحيانـــاً وقاحة : وهنَّ يعشقنك ، أنا واثقة من ذلك !

بدا عليكَ أنَّك ألفت مثل هذه الكلمات من النِّساء ، قلت لي بهدوئك الـــدَّافئ: أشعر بأنَّني أعرفكِ، هل قابلتكِ في مكان ما قبل لقائنا في الأكاديمية ؟

– لا ، فأنا لست من المدينة ، بل أنا جديدة العهد بها . تفرَّست في وجهـــي كأنَّـــك تتلمَّسه ،وقلت : من أي مدينة أنتِ ؟

أجبتك : مِن . . . . . .

قلت لي بعفويَّة من تذكَّر اسم شخص كان قد غاب عن ذهنـــه : آه مـــن . . . . . ، لقد عملتُ فيها منذ سنوات طويلة .

– حقاً ! متى ؟!

عدتَ لابتسامتك الجذَّابة وقلت لي : منذ سنوات طويلة ، أظنُّك لم تكوني قد وُلـــدتِ عندها بعد .

– في أي عام كنت تعمل هناك ؟!

– في العام . . . . .

– رائع ، لقد كان عمري عندها عام واحد فقط .

شعرت بأنّ جسدكَ قد أصبح أقرب من جسدي ، في تلك اللَّحظـــة شـــممت رائحة جسدكَ تحمله النسمات لي عندما قلت : تذكرت أين رأيتك ، لا بـــدَّ أنّ أمَّـــك كانت تتنـــزَّه بك ، عندما قطعتْ الشَّارع من أمام ســـيَّارتي ، فخـــاطرتُ بـــالتَّوقف بشكل مفاجئ لأسمح لها بقطع الشَّارع ، لأنّها تحمل أجمل طفلة رأيتها في حياتي ،

وفي تلك اللَّحظة بالذَّات التقت عيناي بعينيك اللتين شكرتاني بصمت وتعهدتا لي بلقاء ، وأظنُّ أنّ هذا هو اللِّقاء .

مددتَ يدك لتصافحني ، كأنَّ اللقاء المنتظر قد تمَّ ،وأنت ترحِّب به ، تأمَّلتُ يدكَ التي امتدت كمارد نحو يدي ، شعرت بأنفاسي تضطرب ، ويداي ترتجفان لأول مرة في حياتي ، أردت أن أضمّكَ ، ولكنني اكتفيت بذوبان كفِّي في يدك ، لم أسمع كلماتك التي قلتها بعد ذلك ، فقد كان قرع قلبي أشدُّ من أن أسمع معه أي صوت ، لم أسمع إلا ذاتي تقول لي بفزع :نعم ، هو . . .
كأنَّ قصتك تلك كانت تعويذة قلبي ، لقد تلوتها دون أن تدري وقع كلماتها السِّحريَّة عليّ ، فقد فُتح لكَ قلبي من دون كلِّ البشر ؛ لأنَّك تحفظ ترنيمته السِّحريَّة .

ابتسمتَ لي بنزق هو من طبعك ، شعرت بأنفاسك تلفحني ، وداهمتني بسؤالك : أتحبين الأساطير ؟! أجبتك بصعوبة : أنا ؟! آه بالتَّأكيد أحبّها . أنا أحبّ الأساطير ؛ لأنها تنبَّأت دائماً بولادتكَ ، وآمنت بوجودكَ ، لا وجود لرجلٍ مثلك في الحقائق ، أنت هارب من أسطورة ، وأنا وُلدت لكي أحبَّك ، بل أرسلتني آلهة اليونان لكي ألعنكَ بحبي ، طريقتكَ غريبة تتوافق مع رجلٍ كتبتُ له : " **إن كانت ولادتك أسطورة، ولقاؤك خرافة، ودخولي إلى معبدك ارتداد ، فلتشهد الدنيا أنَّني مرتدَّة آثمة** " .

آه ما أجمل أن أنسج الأحلام المستحيل والممكن ! لأنسجكَ أنتَ بالذَّات ، مستحيل يتحقَّق وسعادة انتظرتها منذ آلاف السنين حيث قابلتك لأول مرة في حياتي. يقولون إنّ القدر هو من ينسج أحلامنا ويرسم خطانا ، ولكن ألا يمكن أن نشاركه في نسيجه الذي كثيراً ما يكون باهتاً مقيتاً ، فننسج بأحلامنا طاقات من الزَّهر والغار تحوك بشراً لقياهم يسعدنا ، بشراً بقسماتٍ خرافيّة تشبه ملامح

تطاردنا في نومنا ، وفي الصَّباح نطاردها ، ونبحث عنها ، ونتمنَّى لقياها ، بـــشراً أجسادهم بقدر أحلامنا ، كلماتهم همساتهم تفكُّ أسرار صمتنا ، وتـــدعونا للـــرَّقص معها بين الشُّموس ، فالأرض مساحة قليلة ، بل سعادة قليلـــة مـــع رجـــلٍ تنـــسجه أحلامي .

هل حيَّيتني وأنتَ تبتعد ؟ لا أذكر ، ولكنَّني أذكر تماماً أنّ عينيك قالتا لـــي شيئاً قبل أن تذهبا ، وترسلُ عيناي خلفك آلاف الزَّهرات .

(٤)

فنجانكِ لا يقرأ . . . غامضة أنتِ حتى على المجهول . هكذا كان يقول لي الضّابط سعادة عندما يقرأ فنجان قهوتي ثم يغرق في ابتسامته الحنونة التي تخفي غضباً وعزماً كسره الزمن والكرسيّ المتحرك الذي يسجنه منذ سنوات في سجن يصفه بأنّه عفن . وتتعالى ضحكاته وأنا أحاول خطف الفنجان من يده ، والّتحديق بعجبٍ في تلك الخطوط الفوضويّة داخل الفنجان ، عجباً أيّ سحرٍ في هذه الخطوط يمدّ الضّابط سعادة بكلماته ؟ أم أنّ كلماته هي التي تمدّ الخطوط بسحرها ؟

ثمّ يعاود الكرة قائلاً : بصدق ما هو برجك ؟

- برجي هو برج . . . . . .
- برج النِّساء المأفونات ؟
- أنا لا أؤمن بالأبراج ، ولا في ما تقوله .
- أبناء برجكِ لا يؤمنون أصلاً بالأبراج .

إذن فأبناء برجي لا يؤمنون أصلاً بكلام وتنبّؤات الأبراج ، تماماً كما لا أستطيع أن أؤمن بصدق تنبؤات الضّابط سعادة ؛ فوجهه الأسمر السَّمح ، وقسماته العجوزة الطَّيبة البعيدة عن صرامة المشعوذين وغموض المنجمين ، تشعرك بأنّك أمام كلمات مجرِّب ، وليس أمام تنبُّؤات منجمٍ ، ولكنَّه يصرّ على أنّه عالم في قراءة النُّجوم والطَّالع ، وقادر على قراءة القدر من خلال نظرة واحدة في فنجان من أمامه،وأنا أتظاهر بأنّني أؤمن بقدراته العجيبة في قراءة المستقبل كي لا أستفزّه ؛ فمن يريد المحافظة على صداقته عليه أن يصدِّق بقدراته الاستشرافيَّة المزعومة في قراءة المستقبل .

أنا أؤمن بالمعجزات والأساطير والحواس فوق الخامسة، ولكنّني لا أؤمن بالتّنبؤات، فكيف لي أن أقبل بمستقبل ترسمه كلمات آدمي ! ليتني كنتُ أؤمن بصدق قدراتكَ يا سعادة لكنتُ سألتكَ بل رجوتكَ أن تقرأ لي طالعي ، لكنتُ عرفتُ منك كلّ جزء من حياة حبيبي ، لكنت حلّقتُ بكلامك في سماء أحلامه ، وقرأتُ كلّ سِفْر ماضيه ، وسطور أسراره ، ليتني يا سعادة أصدِّق كلماتكَ التي تخشى صمتي وتكتّمي وسريَّة مشاعري ، وترى مستقبلي مجرّد غموض لا تستطيع تفسيره .

أحمد اللّه بسرِّي لأنّك لا تستطيع قراءة أفكاري وتلمُّس مشاعري ، فعشقي هو سرِّي الأعظم الذي أتلذّذ بحفظه . أنا امرأة ليست بالجبانة ، لكنّ عشقي يربك شجاعتي ويوتِّر صراحتي المجنونة .

أتأمَّل بفضول وجه أُنس الوردي اللّون وهي تلحّ على سعادة في التَّحديق أكثر في فنجانها ، لعلَّه يجد لها المزيد من الأخبار التي تتحرّق شوقاً لمعرفتها، أتابع باهتمام قسماتها الغارقة بالأسئلة ،وعينيها العسليتين الرَّاكضتين أبداً وراء المجهول ، لا شكّ أن كثرة زيارتها للمنجِّمين والدَّجالين سوف تصيبها بلوثة عقليّة . مسكينة أُنس ، الانتظار الطَّويل أضناها وأتعبها ، ولكنَه لم يستطع أن يقتل ابتسامتها الهادئة ،ولا أن يعكِّر روحها الصَّافية ، عرفتها منذ شهرين ، ومن أول نصف ساعة قضيتها معها عرفت أنَّها تنتظر عودة خطيبها أو من تعدّه خطيبها من السّفر، ذلك الذي سافر منذ أشهر طويلة، ولم يبعث لها ولو بقصاصة من الورق يخبرها فيها بأنّه بخير بعد أن استدان منها مبلغاً كبيراً من النّقود على أمل أن يكمل دراسته العليا ويعود إليها ، ومنذ ذلك الوقت لم تنفك تطارده في عيون السَّحرة والمشعوذين، وتبحث عنه في متاهات فناجين القهوة وتتساءل : أما زال يحبني ؟ هل خدعني ؟ هل سيعود ؟ والمشعوذون أبداً يخدرون أحزانها بوعودهم وتوقعاتهم المزعومة .

يقول سعادة بصوت يحاول أن يصطنع الجديّة فيه : هو عائـــد لـــكِ يحمـــل هديّـــة بيضاء.

تنفرج أسارير أُنس وتقول :متى ؟

يردّ عليها سعادة بصوت بارد يرسم الثِّقة به : قريباً .

يبادرني سعادة بنظرة منه ، ثمّ يعاود تأمُّله في فنجـــان صـــديقتي المولَّعـــة بسماع كلماته . أتأمّل في وجه سعادة المسكون بالبحث عن الكلمـــات والتوقعـــات ، أحاول أن أتخيّله بلباسه العسكري ، ولكنّني أفشل ، لا أستطيع أن أتخيّله إلا رجـــلاً مقعداً ، لقد عرفته عن طريق أنس التي قابلته بالصُّدفة لأول مرّة في هذا المقهـــى ، وصادف طبعه هواها ، فأصبحا صديقين ، وتوثَّقت صداقتهما عندما بدأ في قـــراءة فناجين قهوتها ،بل وقراءة فناجين قهوة صديقاتها اللّواتي سرعان ما ألفـــن قـــضاء ساعة من النّهار كلّ يوم معه في هذا الرُّكن من المقهى .

لقد أمضى سعادة معظم أيّام شبابه إن لم يكـــن كلّهـــا فـــي مجـــال العمـــل العسكري الذي ورث العمل فيه عن أبيه وعمه بل وجده ، وبقي وفيّاً لقضيَّة أمتـــه ، ولم يخذلها أبداً لا في ساحة المعركة ولا في المعتقل أمام تعـــذيب العـــدو ، ولكـــنَّ الحسرة قهرته عندما اجتاح العدو الصُّهيوني كثيراً من الأراضي العربيّة في عـــام ١٩٦٧ ، فأصيب بالشَّلل بعد ساعات قليلة من هذا الاجتياح ، فللأجساد أيضاً لغـــة خاصَّة للتعبير عن الغضب والرفض والحزن.

أبداً لم أسمع سعادة يشكو من عجزه ،ولكنَّه دائماً كان يشكو ممـــن يـــشلُّون إرادة الشَّعب ، ويلجِّمون غضبه ، ويضربونه بسياط من نار ، هو لا يكره كرســـيّه المتحرِّك ، فهو دائماً يذكِّره بغضبه ورفضه ، ويصوِّر له العـــدوّ يقتـــرب والأمّـــة مشلولة والظّلام حالك ، لكنّه يبشِّر بانبلاج الفجر ، بل ويقرنه دائماً بقدرته العجيبـــة

على قراءة الطَّالع ، فمنذ أن شُلّ وهو يتمتَّع بحواس إضافيَّة تشابه تلك الحواس التي كانت تمتلكها أمَّه ،التي كانتْ كما يزعم امرأة صالحة (مَعطيَّة) ، أي أعطاها اللَّـــه مقدرة قراءة سطور الغيب ، بل كثيراً ما كان يحلو له أن يذكر بسخرية قاتلة قــصَّة صديقه الذي مات إثر ذبحة قلبية حادّة ألمّت به ؛ لأنّ فريقه الكروي المفضَّل خــسر في إحدى مبارياته ، بينما القلوب العربيّة سليمة معافاة والجسد العربي قــد خــسر أجزاءً من جسده ، بل وسيستمر في الخسارة إن بقي الجسد العربي يملك مثل هــذه القلوب المعافاة .

أردِّد في نفسي ما أجمل رائحة البرتقال ! يضع النَّادل كوب العصير أمامي ويذهب، أحرِّك الكوب من مكانه أجعله أقرب ، يتناول سعادة فنجان قهــوة فــضيله المقلوب أمامها ، ويغرق فيه ، أمَّا أنا فأغرق في رائحة البرتقال ، كم أحــبّ هــذه الرَّائحة التي تذكِّرني برائحة جسد أمِّي ، ما أجمــل الأمومــة تــضمّخها رائحــة البرتقال، هكذا حفظت رائحتكِ يا أمِّي .الحنان ورائحة البرتقال ويــداك الطَّاهرتــان تمسحان دموعي ، كنت يومها في الصَّف الثاني ، عندما طردتنــي المعلِّمــة مــن الصَّفّ وطلبتْ إدارة المدرسة مقابلتكِ ، بسبب غرابة سلوكي ، قــالوا لــكِ إنَّنــي أستهين بالمعلِّمة وبحصَّتها ، وأضع حذائي على مقعدي ، أمَّا أنا فقلتُ لكِ باكيــة : لقد أحزنني أبناء صديق بابا الذين زرناهم البارحة،إنَّهم فقراء ، وليس لديهم قطــار أو سيَّارات يلعبون بها كالَّتي عندي بل يتخيَّلون أحذيتهم سيَّارات ويلهون بها ، أنــا أكره قطاري وسيَّارتي ؛ لأنَّه ليس عندهم مثلهــا ، لقــد أردت أن أجــرِّب اللَّهــو بالأحذية وتخيُّلها سيَّارات ،ونسيت أنَّني في الصَّفّ ، فغضبت المعلِّمة مني عنــدما رأتني أضع حذائي على المقعد وألهو به وقالت لي : غادري الصَّفّ يا معتوهة !!

- ماذا تعني كلمة معتوهة يا ماما ؟

اقتربت أمِّي منِّي ، وضمَّتني نحو جسدها الغارق برائحة البرتقال وقالت لي : يعني فتاة طيِّبة يا حبيبتي ، قلبها يعرف معنى الحبّ ومعنى الحزن .

أنتَ لم تسألني الكثير عن حياتي ! ليتك كنتَ تفعل ياحبيبي ، لأخبرتك عـــن هذه الحادثة بالذَّات، لازلت أذكرها ، وكأنها حدثت البارحة ، بل كأنَّها حفرت فـــي جدار ذاكرتي ، أنت رجل لا تسأل ، وأنا امرأة لا تعطي معلومـــات مجَّانيَّـــة دون عناء السُّؤال عنها ، هكذا أنا وهكذا أنتَ .

يحدِّق سعادة في وجه فضيله ثمَّ يقول بصوت شبه خفيض ، وبتـــوتُّر مـــن وجد كنـــزاً : آه يا طفلتي ،سيحبُّك رجلُ حدَّ الموت ، بل سيكون حبَّكُ هو المـــوت له . تهرب عينا فضيله بسرعة لتلتقيا بعينيّ اللَّتين تتذكَّرهما تقولان لي قبل ساعات بفرحة طفوليّة : قال لي إنّه يحبُّني ، تصوَّري أحبَّني مع أنّه لـــم يعرفنـــي إلاّ منـــذ يومين !

(٥)

متى يكون المساء فألقاك ؟ الزمن منذ أن عرفتكَ عدوٌّ لئيم معي ، يفصلني عنكَ بجبروته العظيم ، وسلطته الأسطوريَّة ، بل والمكان بات يتآمر عليَّ معه ، كلّ ذلك كي يطول عذابي وتزيد أشواقي ، ساعات طويلة ستمضي قبل أن يحين زمن لقياكَ، ثمّ يحين لقياك ، أسير بسرعة نحوكَ ، تضطرب أحشائي ، جفاف يلفح حلقي ، صوت وجيب قلبي يصمّ أذنيّ، خطواتي تتسع حتّى تصبح هرولةً ثمّ جرياً مجنوناً نحوك كما تعوَّدت في الماضي أن ألقاكَ ، أقبِّلك ، فتضمَّني أنا وزهوري التي أحملها لكْ .

هل ستلقاني بجسمكَ الممتدّ وشوقكَ المستحيل كما اعتدتُ ؟هل سيحتمل جسدي الذَّابل وطأة الانتظار ومشقَّة أمتار تفصلني عنكَ ؟

اجبني ، اسمعني كلماتكَ التي تتدفَّق بعمق من أعماق ذاتك ، طوال سنوات سكنني طيفكْ ، حدَّثتكَ دائماً وسمعتني ، حتّى أنني أصبحت قليلة الكلام منذ أن أحببتك ؛ لأنَّني مسكونة دائماً بالحديث معك ، وسماع عذب كلامك . اعتدت على أن أحدِّثك ، حتَّى أصبحت لا تفارقني أبداً ،عندما أخبرتك عن ذلك ضحكت وداعبت بيديك بعضاً من خصال شعري ، وقلت : إذن فقد أصبحتُ قرينك الجنِّي الذي تسكن لعنته جسدكَ . فيما بعد ظننتُ أنَّي مريضة أو مبتلاة بعقلي ، بل وفكّرتُ بأن أعرض نفسي على طبيب نفسي ليخلِّصني من هذا الطَّيف الغريب اللَّذيذ، الآن أحمد اللَّه على أنَّني لم أفعل ، فطيفك أخلص لي أبداً ، ولم يفارقني ، لم يجرحني ،حتَّى وأنا هنا وحيدة أحترق بوهج سنين ضوئية فصلتني عنكَ ومازالت تفصلني ، يحادثني ، يواسيني ، ويستذكر معي ذلك الحلم الذي كنَّاه ، بل هو كان

إيَّانا، ينسجنا بجبروته ، فننسجه بأمنياتنا ،تماماً كما كنتَ أنتَ من رحـــم أحلامـــي ، وقلَّما هنَّ النساء اللَّواتي قابلن أحلامهنَّ حيَّة تسير على الأرض في شكل حبيب .

متعة الحياة الحديث معكَ ، أحادثك مرَّة تلو الأخرى دون ملل ، كأنَّ قصَّتنا قدرٌ ينتهي ليبدأ من جديد ، تسمعني باهتمام المندهش الذي يسمع قصَّتي لأول مرّة ، ولكنَّك ألفت سماع هذه القصَّة ، بل وعرفت مفرداتها ، إلاّ مفردةً واحدةً لم أذكرهـــا لك ، ولكنَّني أتذكَّرها الآن ، أتذكَّرها تماماً ، أتذكَّر ذلك القريب الوسيم الذي كـــدتُ أتزوَّجه قبل لقائي بك بأشهرٍ قليلة ،كنتُ سعيدة به ، ولكنَّني فجأة ودون سبب أقدِّمـــه لغيري أو حتَّى لنفسي ، تراجعتُ عن فكرة الزَّواج ، بل رفضتها ، فأنا كنت علـــى موعدٍ معك ، لم أعرف أنّ القدر قد حضَّر لي هذا اللِّقاء ، ورفـــضتُه ، وســـافرت بعيداً لألقاكَ ، شيءُ في داخلي كان ينتظرك ،بل ويتهيَّأ منذ أن ولدت للقائك ، فتـــرة صباي الأولى تشهد على قولي ، لم أكن مثل أترابي من الفتيات ، لم أبتسم لصبيّ، لم أواعد أي شاب ، لم يزرني طيف رجل لا في نومي ولا فـــي يقظتـــي ، جئتـــكَ صافية تماماً كما ماء بحيرة جبليَّة ، لا قصص ولا أسرار وراء الكواليس كما كنت تسمي العلاقات الصَّامتة أو غير المعلنة ، فقد كنت أنتظرك أنت بالذَّات لأؤمن بك ، طاهرة من دون أيِّ شرك ، بل خالصةً لك وحدك .

أوّل مرّة تسمع هذه القصَّة ، أليس كذلك ؟ لكنّك تدرك دائماً من دون شكّ بحدســـك الفطري الذي لا يمكن أن يخطئ أنَّك الفائز الأوَّل والوحيد بقلبي وذاتي .

" وحياة عينيك صدقة ، وحياة الغالي عندك صدقة " ، تقف قبالتي تمامـــاً ، تحدِّق بي ، تمدُّ يدها بإصرار ، وتنتظر أن أفتح حقيبتي ، وأعطيها صدقة تطلبهـــا بتكرار وإلحاح ، أتأمَّلُ جسدها الصَّغير ، وثوبها الوردي القديم ، ومنـــديلها الأزرق القذر ، الذي يخفي جزءاً من شعرها الذي تسكن الفوضى الجـــزء الظَّـــاهر منـــه ، وجهها داكن ، عيناها صامتتان باردتان ، وسيل المخاط المتدفِّق مـــن أنفهـــا يثيـــر تقزُّزي ، أهرب من وجهها ، تصطدم عيناي بقدميها العاريتين من دون خفّ ، يـــا

إلهي كيف تقوى على احتمال هذا البرد ؟ أسارع بدفع بعض القروش إلى كفٍّ يدها الصغيرة ، ترمقني ببرود ، وتردِّد على مسمعي دعواتها التي تحفظها بشكلٍ آليّ ، وتبتعد عني نحو مسافرٍ قادمٍ من بعيد ، وتكرِّر كلماتها السِّحريَّة " وحياة الغالي عندك صدقة " .

" وحياة الغالي عندك صدقة " جملة سمعتها كلّ يوم طوال سنوات طويلة ، كان وجهاً صغيراً كوجهها يطالعني بها كلَّ يوم ، بل ويطالعني أشباه هذه الوجه بها أكثر من مرَّة في اليوم ، فقد كانت تلك المتسوِّلة بالذَّات تنتمي إلى عائلة كاملة تعمل في التَّسوُّل ، وتحتكر شارع سكناي ، الذي تعرف كلَّ ساكنيه ، تستجديهم ذهاباً وعودة ، تمطرهم بدعواتها ، فينقِّطون بعض الصَّدقات في يدها .

كانت تلك المتسوِّلة بسن هذه المتسوِّلة التي أرقبها تبتعد عنِّي ، كنت أتجاهل دعواتها ، ولكنَّها تلحُّ عليَّ دون أن أهبها أيَّ شيء ، ولكن عندما كانت تقول : " وحياة الغالي عندك " كنت أضعف أمام ذكركَ ؛ بل أهبها بسخاء ، وابتسم لها مداعبة في كثير من الأوقات ، بل أزيد لها في هبتها إذا قالت : اللَّه يحفظه لكِ وأردِّد في قلبي : يا ربّ .

اعتدتُ على أن أراها ، كنت أبحث عنها بعينيّ عند أوّل خطوة خارج مسكني ، لكي اسمعها تكرِّر الدعاء بحفظك ، وأردِّد خلفها كالمصلِّي : آمين ، وهي تبتعد سعيدة بغنيمتها ترمقني بعينيها الطّفوليتين الماكرتين اللّتين عرفتا كلمة السِّرّ لفتح بوابة نقودي .

اللَّيلة الماضية كانت طويلة ، طويلة لأنَّني قضيتها أعاهد نفسي على عدم لقائك ، وحتّى لو كان لقاؤك قدري فيجب أن أتصدَّى له ، شيء داخلي يخيفني ،

يقرع طبول الخطر ، يقول لي بتوحُّش : اهربي بسرعة ، ولكن إلى أيــن ؟ ربمــا يجب أن أهرب منك إليك .

طوال اللَّيلة الماضية تسرّب إلى غرفتي صوت بكاء أُنس ، صوت خافــت ومتعب ، لكن سكون اللّيل يحمله إلى كلّ الحجرات ، فكَّرت كثيراً فــي أن أذهــب إليها ، وأحضنها ، لكنّ شجاعتي خانتني ، واكتفيت بسماع كلمات نورما تمطرهــا بشيءٍ من الرّاحة والسّكون ، وتؤمِّلها بأخبار تسرُّها عما قريب .

حاولت أن أنام ، لكن دون جدوى ، انقلبت يمنة وشمالاً ، لكن دون فائــدة ، حدَّقت في السَّقف ، لفتت نظري لأوّل مرَّة تلك الورقة البيضاء التي باتت تميل إلى الصّفرة لشدّة قدمها ، ملصقة قبالتي على السَّقف ، مكتوب عليها بخط أسود رديء:

حكاية حبّي معاك ما انســهاش
هيّ أيامي إلّي قلبي فيها عاش
فيها أحلام قلتها وحققتـــــــها
وفيها أحلام لسَّه أنا ما قلتهاش

تساءلت عن عذابات من كتبتها ،وعلّقتها قبلي في هذه الغرفة ، عقدتُ النّيــة علــى نزعها في الصّباح ، فقد أزعجتني وهي ملصقة قبــالتي كالقــدر ، وأخــذتُ أردّد كلماتها ، ثمّ أخذتُ أردّدها محاولة استرجاع لحنها الجميل ،واغمضتُ عينــيّ لعــل ألحاني تطغى على نحيب أُ نس .

عندما استيقظتُ طالعتني الورقة البيضاء بكلماتها الحزينة أخــذتُ أردّدهــا بلحن أتقنه بشكل أفضل من اللّيلة الماضية ، تهندمتُ وخرجــتُ مودّعــة الورقــة بعينيّ، لم أمزّقها ، بل لم أنزعها أصلاً ، بقيت في مكانها قبالتي لسنوات طويلــة ، عندما رحلتُ تركتها حيث هي ، كلماتٌ في جدار الزّمن .

رأيتك ذلك الصّباح في الرُّدهة المؤدية إلى الإدارة العامة للأكاديميـــة ، لـــم أقصدْ أن أراكَ ، بل هربتُ من أيّ مكان قد أراكَ به ، ولكنَّك قدرٌ على شكل رجـــل يلاحقني أبداً ، كنتُ أقف وظهري قبالة سلّم الرّدهة ، أحدِّث مجموعـــة مـــن روّاد الأكاديمية ،الحديث معهم كان ممتعاً ، معظمهم عفويّون وروح الدّعابـــة تـــسكنهم ، كنت أتابع حركاتهم وحديثهم باهتمام ، فجأة شعرتُ بدقَّات قلبي تتـــسارع، وطيفـــك يقترب ، عرفتُ أنَّك في الجوار ، منذ أيَّام أصبحتُ أملك حاسَّة سادسة ، وأصـــبحتُ قادرة على التّنبؤ بوجودك أو قدومك ، بمجرّد اقترابك من مكان وجودي ، شـــعرتُ بسعادة غامرة بسبب هذه الملكة الغريبة التي بتُّ أملكها ، لم أحدِّث أحداً عنها ، بـــل احتفظتُ لنفسي بمتعة تذوُّق وجودك والتَّنبؤ به .

أطلَّ وجهك الهادئ حيث بداية السُّلَّم ، أخذت تقترب بجسدك الممتد برشاقة، نهرٌ للرُّجولة يغرق باللَّون الأخضر الغامق الذي تلبسه ، صدرك كان يبدو منـــدفعاً إلى الأمام بشكلٍ محيِّر ، تسير بثقة تليق بهذا الجسد ، تنير المكان بنور غريب يشعُّ من عينيك ، أتساءل هل يرى من حولي ما أرى من نورك ؟ أحـــدِّق ســـريعاً فـــي وجوه من حولي ، أتمنى أن لا يكونوا ملاحظين لوجودكَ كي أغنم وحـــدي متعـــة متابعتك ، سرعان ما يخيب ظنِّي ، الكلّ يراقبك ، لكنّك لا تنظر إليّ بوجه خـــاص، بل تشرئبُّ دائماً إلى الأمام وكأنَّك تطارد طيفاً ، ومن وقتٍ لآخر تندي من حولـــك بنظرة هادئة مصحوبة بابتسامة دافئة متزنة ، وتكمل طريقك مسرعاً .

لم أظن أنَّك تلاحظني ، لذلكَ سمحتُ لنفـــسي بـــأن أحاصـــرك بنظراتـــي الفضوليَّة، ولكن عندما اقتربتَ منِّي شعرتُ بارتباك عظيم ، فعيناك ألقتـــا القـــبض على عينيّ ، قلتَ لي : مرحباً . وقبل أن أجيب كنتَ قد ابتعدتَ عنِّي .

(٧)

للاستيقاظ من النّوم طقوس ، هكذا تعلمتُ من مروة ، ومن يعيش مع فنَّانة موهوبة فلا بدَّ أن يتعلَّم الكثير مما يهذِّب الرُّوح ويسمو بها ، وأعظم طقوس الاستيقاظ والبعث بعد النَّوم هو إطراب الرُّوح والتَّحليق بها بعيداً مع صوت فيروز، الذي يُغرق المكان بأمنية دافئة تخاطب القلوب بصمت ، وتتعالى لتردِّدها مروة مع كلمات فيروز التي ألفتُ أن أسمعها منذ أن جعلتها مروة بداية الصَّباح لكل يوم ، بل وأسندتْ لنفسها مهمَّة اختيار أغنية الصَّباح التي تودِّعني بلحنها وأنا أغادر المكان ميمِّمة نحوكَ .

الطَّريق نحو الأكاديمية طويلة ، لكنَّني ألفتُ أن أقطعه مشياً على الأقدام إن كنتُ وحدي ، الطَّريق قديم مرصوف بشكل أليف ، شجر السِّنديان والسَّرو القديم ، ينحني نحو الطَّريق ، فيُكسب المكان هدوءاً غريباً ، لطالما شعرتُ بأنَّني أسير في شارع يشبه شارعاً في لوحة زيتية قديمة ، تمتلكها جدتي وتفخر بها ليس تقديراً لقيمتها الفنيَّة أو تعاطفاً مع ذلك السَّائر في الشَّارع المرسوم في اللَّوحة الذي لا يبرح مكانه أبداً ، بل تباهياً بالثَّمن الكبير الذي دفعته ثمناً لها ، فجدَّتي تفخر بإنفاق النُّقود كما تفخر بامتلاكها تماماً .

حدَّثتُ نفسي كم أنا محظوظة ؛ لأنَّني أقطع هذا الشَّارع الجميل كلّ يوم ، حفيف الأشجار المنحنية يسرق الكثير من الأمطار التي ينجو بعضها من أغصان الأشجار المتداخلة ليغمر المكان برذاذه العذب ، هذا الطَّريق كُوِّن بهذا الشّكل ليزفّ العاشقين لأحبَّائهم .

أتساءل أين يقع بيتكَ ؟ لا بدّ أنه قريب من هذا المكان ، حدسي يقول لـــي : إنَّك قريبٌ منِّي . وحدسي لا يُخطئ .

أشعر بهمٍّ شقي يسقط على قلبي وأنا أتذكَّركَ ، ما هو مبـــرِّر اليـــوم حتّـــى أكلِّمك ؟ كلُّ يوم أجد مبرِّراً جديداً لكي ألقاك وأكلِّمك ، يكون أحياناً مقنعاً ، وأكثـــر الأوقات يكون مثيراً للشكّ ، يجب أن أتربع على كنـــز من المبرِّرات والحجج كـــي أستمر في رؤيتك كلّ يوم ، تذكَّرتُ بيتاً مـــن الـــشِّعر ، يقـــول صـــاحبه بـــسذاجة العاشقين:

وكنت إذا ما جئتُ، جئتُ لعلّةٍ فأفنيتُ علاّتي، فكيف أقول؟

أفضل مبرِّر عثرتُ عليه لأكون في أقرب نقطة منك هو أن أتابع أعمالـــكَ الفنيَّة ، وندواتكَ الثَّقافيَّة ، ومحاضراتكَ العلميَّة والفنيّة في الأكاديمية ، في البدايـــة رافقتني نورما في كثير من هذه المحاضرات والنَّدوات ، ولكنَّها سرعان ما اختفـــت من هذه اللِّقاءات بسبب طبيعتها الملولة التي فطرتْ عليها ، وطبيعة ميولها الفكريّـــة البعيدة كلَّ البعد عن الفن ، وبقيتُ أنا وحيدة ، ولكن راضية بنعمة القرب منك .

كانت ابتسامتك تحدِّثني عن قرب خاص تشعر به نحوي ، في كثيـــر مـــن الأحيان كنت توجِّه حديثكَ لي من دون الآخرين ، حتَّى تغرق كلماتكَ في عينـــيّ ، كلمات صامتة لا آلفُ منها إلاّ نبرة صوتكَ . في النِّصف الثَّاني من اللِّقاء كان الكلّ مشغولٌ برسم بعض النَّماذج للتَّماثيل التي ينوون نحتها ، الكلّ منهمكٌ في عملـــه ، وأنا مثقلةٌ بخوف من خطواتك التي تقترب منِّي ، أكاد لا أتمالـــك نفـــسي ، يـــداي ترتجفان ، وعرقٌ باردٌ يتخلَّل أصابع يديَّ ، قلم الفحم في يدي يتخبَّط فـــي بعـــض خطوطه، قلتَ لي : جالاتيا ترسم ، مثير .
نظرتُ في بحر عينيك بجرأة غريبة ، وقلتُ لك : جميلة هذه الأسطورة .

قلتَ لي : ما الجميل فيها ؟
نظرتُ في عينيكَ وكدتُ أقول لك : أجمل ما فيها أنَّك من سردها علي . لكنَّني أجبتُ بتوتُّرٍ واضح : الأحزان تجِد دائماً من يتعاطف معها .
قلتَ بفضول واضح وكأنَّك تقرأني : اسمعيني شيئاً من هذه الأحزان .

نظرتُ في عينيك كأنَّني أبحث فيهما عن حزن يشابه أحزاني ، وقلت :كتب (أوسكار وايلد) قصيدة حزينة عن بلبلٍ محبّ ، أحبَّ مالكه الفتى الشَّاب حباً قوياً؛لأنَّه كان طيَّب القلب عذب الرُّوح ، يتألَّم بشدة من أقل الأمور ، ولكنّ ألمه كان شديداً عندما كان الأمر يتعلَّق بالفتاة التي يحبُّها قلبه . اقترب عيد ميلادها ، فطلبت منه هديّة متواضعة ، طلبت منه وردة حمراء ، فرح لأنَّه يستطيع أن يهديها هذه الهديّة البسيطة ، فهو فقير لا يملك إلاّ القليل ، لكنَّ حزناً عظيماً وُلد في داخله عندما نظر حوله ، وتذكّر أنّ الفصل شتاء ، وأنّ الورود نادرة ، عاد إلى كوخه البسيط مغتماً، وأخبر صديقه البلبل بسبب حزنه ، اغتمَّ البلبل بسبب حزن صديقه ، ووقفت عيناه على تلك الوردة البيضاء ذات الأشواك الحادَّة التي تظهر من خلال زجاج الغرفة ، وقال له بفرح كسير : غداً ستجد وردة حمراء أمام ذلك الشُّبَّاك ، عدني بأن تأخذها إلى فتاتك ، وقل لها إنَّها وردة ثمينة جداً ، استغرب الشَّاب العاشق من كلام البلبل ، ولكنَّه انتظر الصَّباح بفارغ الصَّبر كي يركض ، ويجد وردته الموعودة،وفعلاً وجد الوردة الحمراء،ووجد على الأرض بالقرب منها بلبله ميتاً، وقد استقبل بصدره أشواك الوردة، وخضّبها بدمه لكي يعطيها اللَّون الأحمر .

حزن الفتى العاشق على استشهاد بلبله ، ولكنَّه حمل الوردة ، وذهب بها إلى فتاته التي كانت تراقص فتىً غنياً ، ورفضتْ أن تراقصه ، حتَّى وردته الفريدة نظرتْ إليها بتقزّز ، وسرعان ما رآها الفتى تحت الأقدام تُداس ، ويُداس معها قلبه

وقلب بلبله الشَّهيد . نظرتَ في عينيَّ ، وقلتَ بمسحةٍ غريبةٍ من الحزن قلَّما يستطيع المرء أن يجدها في عينيّ رجل : حرامات ، حرامات .

نفس الطَّريق المرصوف سلكتُ في طريق العودة ، تنازعتني أفكارٌ عديدة أقواها تلك النَّظرة في عينيك ، ما أجملهما من عينين ! وما أجمل الورود الحمراء ! لم ألاحظ وجود متجر الزُّهور هذا من قبل، واجهته الزجاجية تشفُّ عن ورودٍ من كلِّ الألوان والأنواع ، ولكن الورد الأحمر له معنىً آخر، فلونه يُهب فقط بالموت، وأنا مستعدَّة للموت من أجلك .

أمَّا في اللَّيل فلذلك الشَّارع ظلالٌ حزينةٌ ، تتحرَّك بانكسار واستسلام عاجز أمام الرياح الخريفية المجنونة ، نور القمر يتخلَّل بعض الأغصان ويسقط على الأرض ، فيتلألأ بوهج خافت تعكسه مياه الأمطار التي تسير بهوادة نحو البالوعة القديمة في منتصف الشَّارع . هناك شابٌّ يركض في الشَّارع يحتمي بسترته من مياه المطر ، أشعر بالأسف نحوه ؛ لأنَّه بركضه هذا ، يضيِّع على نفسه فرصة التَّأمُّل في جمال هذا الشَّارع.

افتحُ زجاج الشُّبَّاك ، يتلقَّى فمي بعض قطرات الماء المتطايرة نحو الدَّاخل تحملها الرِّياح سريعاً هنا وهناك ، أغمض عينيَّ ، لأسمع كلمات المطر تقرع ألحانها على رصيف الشَّارع ، المطر في الخارج ، وصوت صلاة نورما في الدَّاخل ، صلاتان ولكن بلغاتٍ مختلفة .

تتلو نورما صلاتها بهدوء غريب ، يختلف عن طبيعتها المشاغبة ، لكن يتوافق مع روحها الطَّيِّبة ، لكنَّ أشدّ ما يثير فضولي ، تلك الأدعية التي تقولها

بلغتها الأرمنيَّة القديمة ، تقولها برطنةٍ مثيرة ، ثمَّ تختتم صلاتها بإيماءة رسم الصَّليب في الهواء ، ثمَّ تشعل شمعة أسوة بكل ليلة تقدِّمها قرباناً لله .

أسألها بفضول عن دعائها باللُّغة الأرمنيَّة ، ماذا تعني ؟
فترطن بلهجتها الأرمنية بعض الكلمات .
أسألها ما معنى ما قلتِ ؟
فتنظرُ لي وتقول وهي تدثِّر نفسها استعداداً لبرد اللَّيل : تعني باختصار : حبّ . حبّ .
أردِّد الكلمات بعدها ذاتها ، وكأنَّني تلميذ يتعلَّم في مدرسة الرّب .

(٨)

الشمس دافئةٌ بعض الشيء هذا الصَّباح ، أشعَّتها الذهبيّة تُلامس بشوق واجهة المتجر الزُّجاجيّة التي أقف أمامها ، تلاحقُ قطرات النَّدى ، تتابعُ جريانها نحو أسفل الزُّجاج ، ثمّ تبخُّرها بهدوء ، مسكينة قطرات النّدى ، عمرها قصير جداً، تقول الأسطورة اليونانيَّة القديمة ، إنَّ إله الشَّمس (هيليوس) أُسر بجمال النَّدى ، واشتاق إلى أن ينظر إليه من قريب ، ولكنَّ النَّدى خشي دائماً حبيبه المغرم (إله الشَّمس) فكان يهرب منه دائماً ، وعندما يمسّ النَّدى أنفاس الحبيب النَّاريَّة ، فإنَّه يزول دون أيّ أثر وكأنَّه لم يكن .

تتبخَّر قطرات من النَّدى أمامي ، أفكِّر في أن أنقذ بعضها من قدرها المحرق ، أقترب من إحداها قبل أن تبدأ رحلة تبخُّرها ، أشتهي أن أعرف طعمها ، أتأمَّلها، تمتصُّها شفتاي وكأنَّني أُقبِّلها، باردة هي بعض الشَّيء .

خلف الزُّجاج تلمح عيناي بائع الزُّهور مشغولاً بزهوره الجميلة ، أَتذكَّرك ، أخطو خطوتين لأدلف إلى محلِّ الزهور ، رائحة النَّبات الأخضر تطغى على المكان ، الزُّهور نضرة ، لا بدَّ أنَّها عرضتْ للبيع هذا اليوم ، أتأمَّل أنواع الورد يتآزر كلّ نوع منها مع فصيلته ولونه في إناء بلاستيكي يغمر الماء معظمه ، أتحسَّس بعضها بتؤدة ، ثمَّ أقف قُبالة إناء الورود الجوريَّة الحمراء ، أخشى أن ألمسها ، أشواكها البارزة تذكِّرني بدماء البلبل المسكين .

بإيماءة مني يقترب بائع الزُّهور ، ويلتقط بعضاً منها من الإناء ، استعداداً لتنسيقها ، يمدِّدها على الطَّاولة مثقلة بأشواكها وأوراقها ، يتناول مقصَّه لكي يهذِّب

أطوالها وسيقانها ، أطلب منه أن لا يفعل ، عندما يسألُني عن المناسبة التي ستُرسل الزُّهور بسببها ، أتلعثم وأنا أتذكَّرك ، أصمتْ ولا أجيب ، أفلا تكفي فرحـــة لقائـــك مناسبة رائعة لأرسل الورد فيها ؟!

أتأمَّل يدي بائع الزهر ، صغيرتان كما لا يليق برجل ، ولكنَّهمـــا تبـــدوان خشنتين ، أطلب منه أن أُنسِّق باقتي بيديّ ، يستغرب من هذا الطَّلب ،الـــذي يبـــدو غير مألوف بالنسبة له ، ويسارعني بالسُّؤال: أتجيدين تنسيق الزُّهور ؟ سنين تمـــرُّ في مخيلتي، لم أشتر يوماً وردة ، أحببتها دائماً ، لكنَّني لم أُهد أيَّاً منها لأحد طـــوال عمري ، أدهشني هذا الخبر ، الذي زفَّته ذاكرتي إليّ ، وكأنَّني أدركه الآن فقـــط ، لم أُهد أحداً وردة ؛ لأنَّك لم تكن موجوداً بعد لأُهديكَ ورودي وأشواقي ، أمَّـــا الآن فأنت موجود ، وهاهي ورودي قادمة تزفُّ إليكَ عشقي الأبدي .
أتأمَّل قسمات بائع الزُّهور وهو ينتظر إجابتي ، أقول له بارتباك : أيحتاج التَّنـــسيق أكثر من إحساس عميق بالألوان والأشكال ؟
يصمت بائع الزُّهور ممتعضاً من كلامي ، أراهن على أنَّه يظنُّني متحذلقة مدَّعية .

الطَّريق حتَّى المتحف كان بعيداً بالنِّسبة لي ، لا سيما الأمتار الأخيرة قبـــل مرسمك ، شعرتُ بأنّ حركتي باتتْ مشلولة ، توجَّهتْ كلّ حواسي نحوكْ ، أذنـــاي تبحثان عن صوتكَ الآتي من الدَّاخل، ولكنَّ صوتاً آخر كان يطغى على صـــوتك ، أنفي لا يشتمُّك ، لماذا ؟ عيناي تسرعان وتسبقان الخطوة الأخيرة لقـــدمي قبـــل أن أدلف إلى مرسمك ، عيناكَ أوّل ما طالعني ، ثمَّ وجه تلك الـــسَّمراء التـــي كانـــتْ تحدِّثكَ بانسجام ، أربككَ حضوري على الرُّغم من أنَّك من طلب حضوري ، وحدَّد لي الموعد ، تأمَّلتُ وجه السَّمراء ، ارتحتُ عندما تفرَّست في قسماته ؛ ليس بالوجه الجميل ،لا يمكن أن تكون عاشقاً لامرأة غير جميلـــة ، ولكـــنَّ ابتـــسامتها فاتنـــة ، وصوتها عذب .

سرعان ما عرَّفتني عليها ،كأنَّك كنتَ تخشى صمتي وتفسيراتي المجنونة ، إذن فهي مراسلةٌ لمجلَّة فنيَّة متخصِّصة ، قدمتْ لإجراء مقابلة معكْ . أخذتُ أراقبُكَ وأنت تتكلَّم ، طريقتُكَ في الكلام غريبة ، لم أقابل من قبل رجلاً له مثل طريقتك في الكلام : لا تفارق عيناك وجه من تحدِّثه ، كأنَّك تبحث في قسماته عن مفاتيح شخصيَّته وأسرار ذاته ، صوتُكَ يتراوح بين خفيض ومرتفع ومنفعل وهادئ حسب الجملة التي تُرتِّب نصَّها في ذهنك ، كثيراً ما تترُك فراغات زمنيَّة بين بعض جملك، والعجيب أنَّ من يحادثُكَ لا يملك إلاَّ أن ينتظر باهتمام انتهاء فراغكَ ، وعودة دفق كلماتكَ الجريئة أحياناً، والغامضة في أحيانٍ أخرى .السَّمراء التي تُحدِّثكَ الحمرة تعلو وجهها ، لا أستغرب ذلك ، فأنت تملك قدرة فطريَّة غريبة تجعل أيَّ امرأة تشعر بأنّها عارية تماماً أمام نظرات عينيك العميقتين .

تساءلتُ في نفسي عن سبب دعوتكَ لي في هذا الوقت ؟ أليس هذا الوقت محدَّد لإجراء هذه المقابلة ؟ أم تراك أردتَ أن أحضر هذا اللِّقاء ؟

أصبحتْ إجابتُك مقتضبة ، سرعان ما تُودِّعكَ السَّمراء شاكرةً لكَ حسن استقبالك ، أتأمَّل طاقة الورد الحمراء التي وضعتُها بالقرب مني ، ورودٌ حمراء ووردةٌ بيضاء واحدة ؛ نعم هكذا تُنسَّق ورودي ، الكثير من الحبّ يتخلَّله الصَّفاء ، أراجع على عجلٍ تلك الكلمات التي كتبتها على بطاقةٍ تتوسَّط الطاقة ، أشعر للحظاتٍ بأسى بسبب مصير هذه الزُّهور ، فجمالها قادها إلى الموت ، أتذكَّر صديقاً اسمه سمعان كان مرهفاً بشكل غريب ، أشدّ ما كان يكره أن تُهدى له الورود التي يرى قطفها جريمة نكراء ، ويستشهد دائماً على ذلك بأبيات من الشِّعر قالها المرحوم أمل دنقل في مرضه الأخير ، فقد كان من أشدِّ المعجبين به ، وبالذَّات بقصيدته الحزينة التي يصف فيها باقة وردٍ أُهديتْ له :

تتحدّثْ لي
كيف جاءتْ إليّ
(وأحزانها الملكيَّة ترفع أعناقها الخُضر)
كيف تتمنَّى لي العُمْر !
وهي تجود بأنفاسها الآخرة !!
كلُّ باقة . .
بين إغماءة وإفاقة
تتنفَّس مثلي – بالكاد – ثانية . . ثانية
وعلى صدرها حملتْ راضية . .
اسم قاتلها في بطاقة !

عندما تقترب من مقعدي ، أشعر بارتباك كبير ، أُقدِّم لكَ الطَّاقة بابتسامةٍ مترددّة ، وأقول لك : هذه الورود الحمراء اعتذاراً عن القصَّة الحزينة التي قصصتُها عليك البارحة .

توزِّعُ نظراتكَ بيني وبين الورود ، تعلوكَ دهشة سعيدة ، أهذه أوَّل مرَّة تهديك امرأة ورودها ؟

تقول لي : جميلٌ أنَّك أهديتني ورداً ، ولكن ألا ينقُصها بلبل ، لأتأكَّد من أنَّ هذه الورود الجميلة لم يخضِّبها دمّ بلبل مسكين .

تتناول البطاقة الصَّغيرة بأطراف أناملك ، تقرأ بصوت مرتفع كأنَّك تريد أن تحاصرني ولكن بكلماتي:

لو أنّ ما أتمنَّى ... يكون منَّا بطاقة
أهديتُ جنَّة ورد ... وما رضيتُ بطاقة
لكنَّني من دمائي ... نظمتُ هذه البطاقة

صمتَّ للحظة كأنَّك تنتشل فكرةً من بئر ، ثمَّ نظرتَ إليّ وسارعتني بالقول : قولي لي أتؤمنين بالعشق ؟

أربكني هذا السُّؤال المفاجئ ، وقلت لك بنبرة بلهاء : لا أعرف . . . أتؤمن أنتْ ؟
تنهَّدتَ ، وقلتَ لي بخبرة المجرِّب : أنا أؤمن بأنّ العشق يبدأ بومضة ، وينتهي بومضة.
ردَّدتُ في داخلي : بومضة . . . بومضة . هذا كلُّ ما يحتاجه العشق . . ومضة .

أخذتَ تحرّر الورود من غلافها البلاستيكي الشَّفاف ، وتنسِّقها باهتمام في الزُّهريَّة القديمة على أحد الرُّفوف القريبة من مكان جلوسنا ، عجباً ما هذه النَّظرة التي تعلو وجهك وأنت تُنسِّق الورود بدقَّة وذوق ! تساءلتُ في نفسي : كم من الرِّجال يتقن فهم لغة الورود مثلك ؟!!
داعبتَ بيديك كلّ وردة ، طالتْ مداعبتُكَ وردة ذبلتْ من طول حصار الغلاف البلاستيكي لها ، غمستَ أطراف أنامل يدكَ اليمنى في ماء الزُّهريَّة ، وحاولتَ أن تنعش الوردة بتمرير أناملكَ المبتلَّة على أسطح بتلاتها الذَّابلة ، ولكن بدا لا فائدة من ذلك ، قلتَ بتأثُّرٍ ونبرةٍ غنائيَّة : حراماتْ . ونظرتَ إليّ .

سارعتك بالقول : حرامات . . . ماذا تعني ؟
قلتَ لي كمن يتذكَّر قصَّة سمعها قبل ألف عام : هي أغنية قديمة ، يغنِّيها مطربٌ عراقيٌّ غير مشهور ، لم أعد أذكر اسمه ، حتَّى أنَّني لا أذكر باقي كلمات الأغنية ، ولكنَّها أغنية حزينة ، يشكو المطرب فيها من فراق الحبيبة ، مطلع الأغنية يبدأ بكلمة حرامات ، والمقصود بها (حرام عليك) ، ولكنَّها قيلتْ بهذه الطَّريقة لأنَّ الأغنية مكتوبة بلهجة الأتراك المستعربة عندما يجمعون بعض الكلمات جمعاً مؤنَّثاً دون سببٍ محدَّد لذلك فيقولون : حرامات بدل حرام . . . وهكذا .

تنهي تنسيق الورد في الزُّهريَّة ، إيماءاتُكَ تدلُّ على أنَّك راضياً عمّا فعلتْ، تقتربُ منِّي ، وهج جسدك يلفحني ، تقول لي بنبرةٍ حالمة ولكن مخيفة : من أنت ؟! قلبي يُحدثُّني بالكثير عنك !

تخيفني كلماتك ، أسارع بالنُّهوض ، أحمل حقيبتي الصَّغيرة ، وأحييكَ سريعاً ، أستدير لأيمِّم نحو الباب ،تنقضُّ يدك على ذراعي الأيمن ، قويَّة يدكَ لدرجة أنَّها تزرعني في مكاني دون حراك ، أُعجب كيف تملك يداً تداعب الزُّهور بكل عطف مثل هذه القوة، تتفرَّسُني ، تخاطبُ عينيّ ، تقول بلهجة عرَّافٍ يقرأ طالعي : عيناكِ فيها سفر ، إلى أين ؟

أجيبكَ بتلعثم : إلى البعيد . . .

تُطلق يدكَ سراح جسدي الممنوع من الحركة ، فأهرب سعيدة نحو البعيد .

لا أستطيع أن أتذكَّر كيف مضتْ ساعاتُ ذلك اليوم ، فقد كانت ساعات تنبض بسعادة قلبي ؛ وساعات السَّعادة لا تُحصى ، إنَّما الشَّقاء هو من يُرسم بحروف أبديَّة على جدران الذَّاكرة وعلى وشائج القلب . كلُّ ما أذكره عن ذلك اليوم هو وجه فضيله الطُّفولي ، وهي تُحدِّثني بنشوة السَّعادة عن كاظم ، ذلك الشَّاب العراقي الأسمر ، الذي تعرَّفت عليه في حفلٍ خيري ، كان وقتها يتسكَّع مع أصدقاء له ، كعادة كثير من الشَّباب الذين يبحثون في مثل هذه الأوساط عن فتيات مرفَّهات ، وعندهنَّ الكثير من الفراغ ، حتَّى وقعتْ عيناه على فضيله ذلك الخليط العجيب من الطُّفولة الشَّقيَّة والأنوثة الشَّقراء الدَّافئة ، لابدَّ أنّ قسماتها الهادئة ، وكلامها العذب أوَّل ما جذبه ، ولا عجب في ذلك ، فهذا النَّوع من النِّساء هو الصِّنف المفضَّل عند أمثال كاظم الذين لم يعرفوا من الحياة إلاّ الحرب تلو الأخرى، والاضطراب تلو الآخر ، ويبحثون عن امرأة يستطيعون أن يلمسوا في كفَّيها لين العيش، وفي قسماتها أثر الرَّفاهية لتمسح عن ذاكرتهم بعض ذكريات القسوة والحرمان .

في ذلك الحفل رأيتُهُ يحدِّثُها باهتمام ، ويحاول أن يحتكر الحديث معها إلى أطول مدَّة ، في حينها لم أُعره من الاهتمام أكثر من تحيَّة سريعة ، بل لم أُعر أحداً من أصدقائه أيَّ اهتمام ، لا سيما أنَّهم شهدوا الحفل الخيري سيَّاحاً ، لا متبرِّعين، فهم لم يفكِّروا أبداً بالتَّبرُّع ولو بقرشٍ واحد لصالح هذا الحفل الخيري .

في نهاية الحفل تخلَّف كاظم عن رفقة أصدقائه ، وبقي يحدِّث فضيله حتَّى استأذنته بالانصراف ؛ فقد تأخَّرتْ عن موعد عودتها إلى بيتها ، وعمَّتُها تقلق بشدَّة إذا تأخَّرتْ عن موعد عودتها .

في اليوم التَّالي توقَّعتُ أن تخبرني فضيله بأيَّ معلومة عنه مثل دراسته للصَّيدلة في هذه المدينة ، أو مثل أنّ أباه عسكريّ كبير في المخابرات العراقيَّة ، أمَّا أن تخبرني أنَّه قال لها : إنَّه يحبُّها ، فهذا ما أثار دهشتي ، وجعلني أقول لها بتوجُّس : لا تصدِّقيه .

أمَّا عندما أخبرتني فضيله على استحياء أنَّها تشعر بحبٍّ نحوه ، فقد صمتُّ احتراماً لمشاعرها .

تحدَّثتْ عنه فضيله طويلاً ، حتَّى باتتْ تكرِّر كلامها، ولكن بجملٍ مختلفة، ولكنَّني كنتُ سعيدة بكلامها المتدفِّق من القلب ، وهي توظِّف شعرها الأشقر الطَّويل في وصف رقَّته معها ، بل كانت تستثيرها الكلمات أحياناً ، فتقفز عن مقعدها في المكتبة، وهي تعبِّر عن سعادتها بهذا الرَّجل الأسمر ذي العيون السَّوداء الحادَّة كما الصَّقر، الذي جاءها من المجهول ليعطيها حبَّه ، لم يقطع سيل كلامها إلاّ اقتراب موعد رؤيتها لكاظم ، قبَّلتني بصدقٍ غريب ، وقالت لي : أحبُّه ، وأحبُّك أيضاً.

سارتْ بطفوليَّة عذبة نحو باب المكتبة ، كنتُ أشيِّعُها بعينيّ ، عندها رأيتُــكَ تدلف إلى داخل المكتبة ، الله كم المجهول رائع عندما يرفق بقلوبنا ، ويهبها أُمنيتها الصَّغيرة ! لطالما أتيتُ إلى هذه المكتبة ، ولكن لم أتصوَّر أن أجــدكَ أمــامي هنــا بالذَّات هذا اليوم .

كنتَ بنفس هيئتكَ الصَّباحيَّة ، ولكنَّ الهواء سمح لنفسه بــأن يلهــو قلــيلاً بخصلات شعرك ، فيدفع بعضها هنا وهناك . سرعان ما طالعتُكَ صــفحة وجهــي المبتسمة لكَ بشكل خاص ، اقتربتَ من مكان جلوسي ، جلستَ إلى نفــس الطَّاولــة قُبالتي ، سعدتُ بحضورك ، لكنَّي شعرتُ بدم عروقي يتجمَّد عندما تــذكَّرتُ تلــك المجلَّة الدَّوريَّة التي يُصدرها المركز الثَّقافيّ التَّابع للمتحف ، التي كنتُ أقلِّبها قبــل دقائق بحثاً عن مقالٍ لكَ ، لم أجده ، ولكنَّني وجدتُ لك صورةً تذكاريَّــةً مــع وفــدٍ أجنبيّ كان قد زار المتحف قبل عدَّة أشهر .

أيَّ الأفكار ستغزو ذهنك إن رأيتني أُحدِّق في مجلَّــة تحمــل صــورتكَ ، أنقذتني بتوجُّهك نحو أحد الرُّفوف ، انشغلتَ لدقائق في تصفح أحد الكتب ، أمَّا أنــا فسارعتُ إلى شقِّ صورتك من المجلَّة ، داعبتها بعصبيَّة ثمَّ دسستها بــسرعة فــي محفظتي ، عندما عدتَ تحمل كتاباً ابتسمتُ لكَ سعيدة بغنيمتي الثَّمينة ، فــصورتكَ في محفظتي . أتصدِّق! أنا أحمل لكَ صورة ، ما أسعده مــن يــوم ! ومــا أســعد المحفظة بما تحمل !

ساعتان أمضيتهما أحفظ حركاتكْ ، طريقة طيّكَ للصَّفحات ، طريقة أخــذكَ للملاحظات ، طريقة قراءتكَ ، طريقة متابعتكَ للموجودين ، طريقة ردّك لتحيَّة من يعرفونك ، طريقة إمساكك للقلم ، طريقة مطالعتكَ للفهارس ، طريقة تسلُّل نظراتكَ إلي . متعة العين متابعتُكَ ، ولكنَّ ذلك الشَّاب الذي يجلس إلى الطَّاولة التي تليــكَ ،

يحاصر متعتي ، يحدِّق بي كثيراً ، يحاول لفت نظري بحركاته وإيماءاته ، ويبتسم بخبثٍ يشي أنَّه قد كشف سرَّ متعتي .

أقتربُ منكَ وأنت تعبث بكتابٍ قديم ، يدهشني عنوانه ، ابتسم لكْ، وأقول:
لم أعرف أنَّك مهتم بالنَّحو !
تبتسم لي وتقول : كنتُ أحبُّه وأنا صغير .
أداعبكَ وأقول بفضول : أثبتْ لي .
تختطُّ بضع كلمات على ورقة وتقول لي : أتعرفين ما إعراب هذه الجملة ؟
أحدِّق بها وأكتب بيدٍ مرتجفة من شدَّة الانفعال :
إنَّني : حرف توكيدٍ للحبّ
الباء : اسم إنَّ منصوب على الجنون
أُحبُّك بولعٍ وجنون : اكمل أنت .
تبتسم لي بقهقهة خفيفة ، ترقِّص القلم ، تنظر لي وتقول : سأكمل ولكن ليس الآن .
أشعر بقشعريرة تغزو جسدي ، ألتقط الورقة من بين يديك ، أرجو لكَ ليلة سعيدة ، وأتَّجه إلى بوَّابة الخروج .

لم أعرف قبل هذه اللّيلة أنّ البشر يمكن أن يحلِّقوا في السَّماء على صهوة السَّعادة ، سعيدة أنا بمقدار طيشي وجنوني ، سعيدة بمقدار سحركْ . أحدِّق في المارَّة ، أصنِّف الوجوه ، بعضها سعيدة، وأخرى متجهِّمة ، كيف يمكن أن تتجهَّم وجوه في هذه اللَّيلة السَّعيدة ؟! أرفع عينيّ إلى السَّماء ، أتفقَّد نجومها ، الحمد لله كلُّها سعيدة .

(٩)

الآن . . . المحطَّة أشدُّ ازدحاماً ، المسافرون لا ينفكُّون يمرُّون من أمـــامي ذهاباً وإياباً ، حركتهم تُربك حديثي مع طيفك ، وروائح السَّجائر تطغى على رائحة أنفاسكَ التي أحفظها من دون كلِّ الرَّوائح ، أتمنَّى عزلـــةً خاصَّـــة معـــك . أوراق السِّنديان تهتزُّ برفق لرياح الصَّباح ، تداعب شعري المسدل على كتفـــيَّ ، طيفـــكَ يحدِّق في وجهي بألفة لذيذة ، أشعر بملل ، أعرض على طيفك قليلاً من متعة السَّير معاً ، توافق برغبة ،فطيفكَ لم يرفض لي طلباً أبداً ، أصلح من هنـــدامي ، ألـــبس القبَّعة ، وأسير أنا وإيَّاك فقط . . .

أيَّ الطُّرق سنختار للسَّير ؟ يسألني طيفك . طريق السِّنديان ، أجيب .
نصف ساعة من السَّير ، نصل ذلك الطَّريق الواصل ما بين بيتي القديم وبين ذلـــك المـــتـــنـــزّه الذي اعتدنا على السَّير فيه سويّاً . أشجار السِّنديان أصـــبحت أكبـــر وأكثر غصوناً ، الطَّريق بات قديماً كأنَّه بقايا مدينة أثريَّة ، بوَّابـــات المـــتـــنـــــزّه القديمة لا وجود لها ، بات في مكانها بوَّابات زرقاء كبيرة ، ولكنَّهـــا صـــدئة فـــي بعض النَّواحي، لا وجود كالعادة للوحة تحمل اسم المـــتـــنـــــزّه ، هـــذه الأعمـــدة الكهربائيَّة جديدة ، لم تكن في الماضي ، جيِّدٌ وضعها هنا ، فهـــي تعطـــي للمكـــان ظلالاً جميلة ، وتبدِّد من وحشته .

أدلف إلى المنتزه ، آه . . لقد أصبح شجر السِّنديان والسَّرو طويلاً إلى حـــدٍّ متعب ، أشعر بتعب سنين يسكن قدميَّ فجأة ، أجلس على أوَّل مقعد أمرُّ به ، خشبه منخور قريبٌ مما جلستْ ، أخيراً وجدتُ من يتذكَّرني غير تلك السِّنديانات الطَّيِّبة ، لا بدَّ أنَّكَ تذكرني أيُّها المقعد العتيق ، لطالما جلستُ عليكَ أنتظره . . نعم أنتظركَ.

وكنتَ تأتي ، كلَّ ليلة أتيت إلى هذا المنتزه ، تدلف مـــن البـــاب بقامتـــك الممتـــدَّة وملابسكَ الرِّياضيَّة الدَّاكنة ، وقبَّعتك الرِّياضيَّة الصَّفراء ، تقترب منِّـــي بابتـــسامتكَ المعهودة ، وتقول هل تأخَّرتُ ؟ فأجيبكَ الإجابة نفسها ألف عام انتظرتـــك ، تبتـــسم لي ، تقترب منِّي ، فأطوِّق ذراعك بذراعي ، ونبدأ المسير ، مثـــل عجـــوزين ألفـــا السَّير معاً منذ دهر ، نتحدَّث طويلاً وطويلاً .

يتقارب جسدانا عندما تمطر ، أفهم الآن سبب شعوري الدَّائم بالوحدة عنـــد سقوط المطر ؛ لأنَّني عندما يسقط المطر أشعر كم أنا في حاجة إلى يديكَ لتضمَّاني نحو صدرك وتحميني من وحدة المطر ، ترعبني فكرة تصوُّر نفسي مع المطر من دونك ، لا بدَّ أنَّه سيستغلُّ فرصة غيابكَ ، ويسبِّب لي الحزن العميق ، لا تدعه يفعل ذلك بي .

أحدِّثُكَ بقصص خرافيَّة مستحيلة تشبه وجودي معك ، وتحـــدِّثني بقـــصص أشدَّ غرابة تؤكِّد وجودي معك ، تضحكُ كثيراً من كلماتي ، وأحـــزن كثيـــراً مـــن كلماتك .

في أوَّل لقاء تحت المطر ، أخبرتني بأنَّك كنتَ تخشى أن لا آتـــي بـــسبب المطر الشَّديد . أجبتك : أنا لا أخشى المطر وأنتَ معي .
ابتسمتَ وقلتَ لي : أمَّا أنا فأخشاك تحت المطر ، مددتَ يدكَ نحو شعري ، خاتمك الفضيّ آخر ما ودَّعتْ عيناي منها ، وهي تندسُّ بين خصلاته ، كنـــتّ تتحسَّـــسه وهو مبلَّل ، ولكنَّك توقَّفتَ طويلاً خلف أذني اليمنى ، نظرتُ إلى عينيكَ ، أزحـــتُ بيدي جزءاً من شعري ، انكشف أعلى رقبتـــي وأذنـــي ، وانكـــشفت تلـــك النُّدبـــة الواضحة ما بين الأذن وأعلى الرَّقبة بانحناءة نحو الظَّهر ، تأمَّلتَهـــا لثـــوان، قلـــتَ

بدفء كأنَّك لم تلحظ تلك النُّدبة البشعة اجعلي شعرك خلف أذنكِ دائماً ، شعرك هكذا أجمل ، أنا أحبُّه هكذا ، لا تحاولي إخفاء هذه النُّدبة بعد الآن .

قلت لك : هي من سقطة قديمة . . . و
قاطعتني قائلاً : تعجبني ، لا تخفيها . واقتربْتَ مني وطبعتَ على ندبتي قبلتكَ الأولى ، قبلةٌ عليلة تشبه تلك القبلة التي نهديها لجرح طفل نقنعه بها أنَّها تخفَّف من الألم .

كلَّ ليلة اعتدنا على أكل المثلَّجات ، فالمثلَّجات في الشِّتاء ألذَ ، تستطيع أن تتذوَّق طعمها جيِّداً دون أن تسارعك بالذَّوبان ، تأكلُ المثلَّجاتِ بطعم الحليب ، وآكل المثلَّجات بطعم الشُّكولاته ، تسخر من نكهة مثلَّجاتي وتقول : نكهة الأطفال ، فأسخر من نكهة مثلَّجاتك وأقول : نكهة الرُّضَّع .
كلَّ ليلة نفتتحها بأكل المثلَّجات وأنت تضحك مردِّداً عبارتي " الشيء يحمل نقيضه" وتقول : ها أنا أطبِّق فلسفتك الصَّغيرة ، فأؤمن بأنّ هذا البرد يحمل الدِّفء ، وآكل لذلك المثلَّجات الباردة .
عندما تصمت أعرف أنَّك ستغنِّي ، ثمَّ تنفرج أساريركَ مع أوَّل كلماتكَ ، جميلٌ هو صوتكَ ، وعندما تغنِّي أشعر بزهوٍ غريب ، حزنٌ أبديّ في صوتك ، على الرغم من تلك الابتسامة ، كثيراً ما كنت أمازحك قائلة : مَنْ عذَّبك ؟
تنظر إليَّ وتقول : أنتِ ستفعلين .

يعود صوتك ليبعث الدِّفء ، والأمن في جنباتي، يردِّد المكان صدى صوتكَ، يطرب السِّنديان لصوتك ، تقاوم الرِّيح ، فتصمت عروقها عن التَّمايل والحفيف لكي تسمعك،وعندما تنصتُ لغنائك ابتسمُ لك ، وأقول:(فيليمون) و(برسيس) يسمعانك...

تقترب منِّي وتقول بنبرة مستغربة : من هما (فيليمون) و(برسيس) يا صغيرتي الحالمة ؟

تقول الأسطورة الإغريقيَّة إنَّ (فيليمون) هو رجل عجوز قضى حياته مع زوجته المحبَّة (برسيس) . أحبَّت الآلهة طيبة نفسيهما وكرمهما ، فطلبتْ منهما أن يتمنيا عليها ، فطلبا أن يعيشا سويَّة وأن يموتا سويَّة ، وأن يجتمعا سويَّاً بعد الموت، فحوَّلتهما إلى شجرتي سنديان متقاربتان متحابَّتان إلى الأبد .

حدَّقتَ بي ثمَّ قلتَ لي : يا سنديانتي الحبيبة ، أنتِ امرأة استثنائيَّة في كلِّ شيء، لا تُقابل كلَّ يوم، تُقابل فقط مرَّة في الحياة ، هل وجودنا معاً لقاء أبدي أم مجرَّد مقابلة ؟ ها . . ؟ قولي لي . . أنا في انتظارك منذ قرون .

هذه فرصتي لأسألك : لماذا لم تتزوَّج إلى الآن ؟

أجبتني بتلقائيَّة : لقد تزوَّجتُ في الماضي .

أثارتْ كلماتكَ غير المتوقَّعة ضيقاً في ذاتي ، سألتُك بامتعاض : أين هي ؟

أجبتْ : تزوَّجتها عندما كنتُ أدرس الفنَّ في إيطاليا ، وسرعان ما طلَّقتها . . .

سألتُكَ بفضول : ألم تُحبَّها ؟!

أجبتني بنبرةٍ بدت صادقة : أبداً . . .

- لماذا ؟

قلتَ ببرود وابتسامة تحمل آلاف المعاني : لأنَّها لم تحبَّ قطَّتي . . .

أصابتني كلماتُكَ بالدَّهشة ، ولكنَّ كلماتك تعبِّر عن الكثير من المعاني والمرامي ، سألتُكَ : وأين هي قطَّتُك ؟

قلتَ بأسىً :ماتتْ . . .

- لماذا ؟

- لأنَّ زوجتي لم تُحبَّها . . .

(١٠)

الشَّمس ستغرب بعد قليل ، أشعَّتُكَ الذَّهبيَّة ستودِّع الأرض بعيداً مع مركبتكَ الذهبيَّة ، حان موعد لقائك ، ولُدتُ أنا كي ألقاك ،أدنو للمرَّة الألف من باقة الورد التي أرسلتها إليَّ في الصَّباح، أداعبها برفقٍ وتقدير كأنَّها سقطتْ من السَّماء ، أتخيَّلكَ تدلُف إلى متجر الزُّهور ، وتنتقي وروده من أجلي ، وترسلها إليَّ محمَّلة بأشواقكَ وحبِّك لأشعر بالزَّهو ، تتملَّكني رغبة حالمة لفتح نافذة الغرفة ، وحمل باقة الزُّهور ، والصُّراخ بأعلى صوتي : هذه الورود لي ، أرسلها حبيبي من أجلي، هو في انتظاري ، هذه الـــــورود لي ، وقد كتبتَ لي : إلى إلهتي السَّـــاحرة ، إلى (أرتميس) حتَّى ألقاكِ . . .

لكن ما جدوى الصُّراخ من النَّافذة ؟! البشر لن يعرفوا ما حدثَ هذا الصَّباح؟ حسنٌ إنَّهم لن يعرفوا ، دعني أحتكر لنفسي متعة ذكرياتي معك .
آه . . .كم أُحبُّك يا مروة !! ألست من طلب منِّي تلك المعلومات عن الأساطير القديمة، طلبتها منِّي ؛ لأنَّك تعرفين شدَّة اهتمامي بها ، وحفظي للكثير منها . لكنَّني نسيتُ بعضاً منها ، أحبُّ فعلاً أن أساعدكِ في جمع هذه المعلومات من أجل إعداد مسرحيَّتك ، أين سأجد الآن كتاباً عن الأساطير ؟ وجهكَ يا حبيبي أوَّل من اجتاح ذاكرتي ، لا بدَّ أنَّك تملك مثل هذا الكتاب ؛ رجلٌ أسطورة ، ولا يملك كتاباً عن الأساطير ، صورة غير مكتملة !

وجدتُه عندكَ ، مجلَّدٌ أزرق ضخم ، صفحاتُه النَّظيفة ورسوماته الواضحة تدلُّ على أنَّ أحداً لم يلمسه إلاّ أنتَ ، متى اشتريته ؟ أظنُّ منذ مدَّة طويلة ، تاريخ طباعته القديم يدلُّ على ذلك ، تلمَّستُ باهتمام إطاره الذَّهبي المحفور بإتقان ليشكِّل

عنوانه (أساطير اليونان والرُّومان) ، أعجبني بشدَّة فقلتَ لي : هو لكِ ، هديَّة لـــكِ منِّي .

أمضيتُ عدَّة ليالٍ في قراءته ، أمَّا مروة فقد أمضتْ أسابيعاً بعد ذلـــك فـــي قراءته . كانتْ تطلب مساعدتي في كثير من الأساطير التي يستعصي عليها فهمهـــا وكأنَّني ربَّة الأساطير ، فأفسِّرها لها ، لأنَّني ربَّة الأساطير حسب ظنِّها .

في كلِّ أسطورة ألمحكَ ، أفكِّر في أن أهديك شـــيئاً خاصَّـــاً لا تجـــده فـــي الأسواق ، ولا يهديكَ مثله أحدٌ غيري ، أُمضي ليالٍ طويلة في إنجـــازه ،وعنـــدما أُنهيه أسارع إلى دفعه إلى صانع الأطر الخشبيَّة ، ليصنع له إطاراً خشبيَّاً ، ولوحـــاً من الزُّجاج يحميه من التَّلف .
تسألني وأنتَ تتحسَّسُه : ما يكون ؟ فأجبيك : الآن تراه .
تدهشكَ اللَّوحة التي تراها أمامكَ ، لوحة كبيرة رُسم فيها شجرة عظيمـــة الفـــروع تمثِّل النَّسب الميثولوجي لآلهة الإغريق ، تتوسَّط اللَّوحة حوريَّة ذهبيَّـــة ، ويغـــرق شعرها معظم جسدها وقد خيطت بالحرير ، أنا من خاطها .

تُحدِّق طويلاً في تلك اللَّوحة ، تتتبَّع جهراً أنساب كثير من الآلهة ، يدهشكَ ذلك النَّسب الشَّاذ، الذي يتسمّح مع علاقات الأخوان بالأخوات ، والأمهات بالأبناء، بل ومع علاقات الآباء بالبنات .
لكلّ ظاهرة من ظواهر الطَّبيعة آلهة ، ولكلّ آلهة أسطورة أحفظها أنا بشكل خاص، تغرقني بضحكاتكَ وأنت تسمع رواياتي لبعض تلك الأساطير ، تُعلِّق اللَّوحة باهتمام قريباً من مكتبكَ في المرسم ، تعاود تتبُّع ذلك النَّسب الميثولوجي ، تـــداعب أنفي بحركة طفوليَّة وتقول لي : أيُّ تلك الآلهات أنتِ ؟!

تركض عيناك في قسمات وجهي ، وتقول : عيناكِ السَّاحرتان ، شـــعرُكِ الهـــائج ، بشرتُكِ الورديَّة ، أنفكِ . . . فمكِ تشبهين (إفروديتا) هذا الجمـــال يحـــاكي آلهـــة للجمال ، أمَّا أنا فسأكون (إيزيس) إله الحرب ، كي أقاتل مـــن يجـــرؤ علـــى أن يتمنَّاكِ.

تدهشني كلماتُك ، وأقول لك باعتراضٍ ودود : لا لن أكون (إفروديتـــا) ؛ فهي امرأة لعوب تعرف آلاف الرِّجال ، وتعشق كلَّ ليلة رجلاً جديداً ، أمَّا أنا فلـــم ولن أعرف من رجال الأرض سواك . وأنتَ لن تكون موجـــوداً لتحـــارب ، بـــل ستكون موجوداً لتنير بشمسك دنياي ، وتحرقني بقدسيَّة وهجك ، ستكون (هيليوس) إله الشَّمس والرُّجولة والفنون ، كلَّ ليلة ستقود مركبتك الشَّمسيَّة ، وتنـــدي وجهـــي بنورك َ ، أمَّا أنا فسأكون عذراء عاشقة لكَ حدَّ الموت .

تعلو وجهكَ ابتسامة ساحرة ، تقبِّل يديَّ ، تضمُّني نحو صدرك ، أشعر بأنَّ نبرة صوتكَ قد تغيَّرت ، وأنَّ دموعاً ما قد خضَّبته ، فأنتَ أرقُّ من أن تكون رجلاً عاديّاً ، أظنُّكَ تنظر إلى تلك اللَّوحة بينما رأسي غارقٌ في دفء صدرك ، تقول لي بامتنانٍ غريب : بل ستكونين إلهة القمر (أرتميس) ، فالنَّار المحرقة ستحتاج دائماً إلى نورٍ سماويٍّ طاهر مثل نور وجهك الثَّائر أبداً ليـــزرع فـــي نفـــسها الرِّضـــى والسَّلام.

إذن فقد سمَّيتني (أرتيمس) ، أنت من يجب أن يختار لي اسمي ، ولـــيس أحداً غيركَ من البشر ، أيٌّ من البشر لم يعرفني لأكثر من سنين تساوي عدد سنين عمري ، أمَّا أنت فتعرفني منذ الخليقة . تعرف أنَّني بقيتُ وحيدة انتظرك . ضـــمَّني بقوَّة لكي أتأكَّد من أنَّكَ تعرف أنَّ (أرتيمس) بقيتْ دون حبيب أو زوج أو علاقات على غير شاكلة من حولها من الآلهات ، وأنَّها عاشتْ حياتها وحيـــدة هائمـــة فـــي الغابات ، هكذا رسمتها الأساطير لنا .

سألقاكَ بعد قليل ، أتأمَّل وجهي في المرآة ، أضمُّكَ بشدَّة إلى ذلك اللِّبـــاس المدرسيِّ الذي ألبسه ، ملامحي أكبر منه قليلاً ، لكنَّه يناسبني ، لا بدَّ أنَّه سيعجبك ، لقد طلبت منِّي أن آتيكَ مختلفةً هذه اللَّيلة ، لذا سآتيكَ بلباس فتاة مدرســيَّة بــضفائر صغيرة ، وعينين مرتبكتين تخشيان العيون ، لا زالت تلك الفتاة المدرسيَّة المراهقة تسكن في داخلي ، وتنتظر أن تُجنَّ معك .

إلهتي الجميلة ستذهب إلى المدرسة . . .

كلمات تقولها وتنفجر بالضَّحك ، تضمُّني ، وتغرقني بضحكاتك ، لقد طلبــتَ منِّــي بعض أوراق الزَّيتون ، تزرعها في شعركَ على عجل ، وتقول لــي : (هيليــوس) يتوِّج رأسه بأوراق الزيتون، أليس كذلك ؟

تتعالى ضحكاتي وأقول لك : بل بأوراق الغار .

لأنَّك تغنِّي لي باستمرار ، ولأنَّ اللَّيلة مختلفة تصمِّم على أن أغنِّــي لــك ، تلك البحَّة في صوتي تعيق كلماتي ، لكنَّك تحــبُّ الــصوتَ النِّــسائيَّ المبحــوح ، فالرِّجال يحبُّون مثل هذه البحَّة ، هذا ما قلته لي .

على استحياءٍ تنساب كلمات فيروز من فمي ، أغنِّي لك (يا عاقد الحاجبين) ، يعلو صوتي بشكلٍ خاص عند كلمات (إن كنت تقصد قتلي ، قتلتني مرَّتين) .

بعد انتصاف اللَّيل تصمِّم على أن نتناول العشاء في أحد المطاعم الــصَّغيرة على قارعة الشَّارع خلف المــتــنــزّه ، لم يكن هناك أحدٌ سوى صاحب المطعم ، الذي كان يبدو متعباً ، وينتظر بأدبٍ أن ننهي عشاءنا كي يعود إلى بيته . مــا ألــذَّ الطَّعام بصحبتك !

لم أعد أستسيغ الطَّعام إلا معك ، تحدَّثنا طــويلاً عــن أُنــس التــي باتــتْ سلوكيَّاتها غريبة منذ أن تأكَّدت من خديعتها ، ومن زواج حبيبها المزعوم ، مسكينة

هي المرأة المطعونة في حبهّا ، تفاجئني بكلماتك المتصيِّدة ، وأنتَ تقول : وأنتِ كم عددهم الرِّجال الذين أحبُّوك ؟!
أتوقَّف عن مضغ لقمتي ، أطالعكَ بنظراتي ، أجيبك بثقة من حضَّر الإجابة منذ زمن : أنا لم أحبّ أحداً غيرك .

في الطَّريق إلى البيت ، تسألني عن عدد أخوتي ، قليلاً ما تسأل عن حياتي الشخصية ، ولطالما كنت كذلك ، لعلَّ كلّ ما يهمُّك من حياتي أن تعرف أنَّني أحبُّك. عندما أخبرتُك أنَّني وحيدةُ أبويّ، لم تعجبْ ، بل قلت لي بفرح من وجد كنزاً في مكان راهن عليه : يكفيهما عبء إنجاب امرأة مثلك ، امرأة استثنائيَّة . كلماتُكَ أصابت عروقي بقشعريرة غريبة ، طلبتُ أن نسرع في العودة إلى البيت؛ لأنَّني أكاد أتجمَّد من شدَّة البرد ، قلتَ لي بإغراء تعرف تماماً وقعه علي : ألا تكفيك شمسي حتَّى تشعري بالدِّفء ؟!

(١١)

أنتَ لا تحبُّ الفوضى والأصوات والزُّحام هكذا تصنِّف المهرجانات ، أمَّا أنا فأعشق الفوضى والألوان والوجوه ، أنا امرأة احتفالية بطبعها ، ألا ترى أنَّ كثيراً من عشقي يصلك عن طريق هذه الطُّقوس الاحتفالية التي أعيشها وإيَّاك . الحياة مهرجان كبير ، الكلُّ مدعوٌّ له ، كلٌّ يحضره ، ولكن بطريقته الخاصَّة ، البعض يكتفي بالتَّحديق مسحوراً من بعيد بألوانه ومباهجه ، البعض ينام في ركنٍ هادئ منه ، وينسى أنَّه في مهرجان ، البعض يجهد كي يستمتع في هذا المهرجان، ولكنَّه لا يحصل إلاّ على التَّعب وحفنة من الذِّكريات المؤلمة ، أمّا البعض الاخر فالمتعة قدرهم أو يكونوا هم قدر المتعة والرَّقص على منصَّة المهرجان حيث المتعة والسَّعادة والنُّور والوجوه الجميلة الباسمة .

لم تحضر أيَّ مهرجان في حياتكَ ، لا بأس ، ما حاجتكَ إلى حضور مهرجان قبل أن تُقابلني ؟ فما قيمة أن تحضره وكفُّكَ لا ينعم بدفء كفٍّ عاشقٍ لك، ينقل لكفِّكَ كلَّ لحظة إثارة يشعر بها في هذا التَّجمُّع ، فينقل كفُّك له بهجتكَ وانعتاق روحكَ من أسر الأحزان والانتظار .

في هذا العام سأحضر الاحتفال معك ، متأبِّطةً ذراعكَ كما الطِّفلة ، وسنحرق آلاف الدَّقائق مع بعضنا البعض ،. المهرجان غداً ، سأنتظركَ لا تتأخَّر ، سأنتظركَ لنحضر سويّاً (مهرجان الحصاد) الذي تقيمه هذه المدينة منذ سنوات ، تحت زخَّات المطر تحتفل المدينة بخصوبة الأرض .

بعض القدامى اعتقدوا أنَّ الخصوبة رجل ، بعضهم الآخر أعتقد أنَّ الخصوبة امرأة ، أمَّا أنا فأرى الخصوبة رجلاً وامرأةً متحابين ، خصوبة الأرض ثمرةٌ لعشقهما . بهذا الإحساس سأحضر هذا المهرجان ، لن أراه احتفالاً بإنتاج زراعيٍّ كبير وأرضٍ خصبة وموسم أمطار جيِّد ، بل سأنظر إليه كاحتفال بثمرة حبّ ، أياً كان نوع هذا الحبّ ، وأيّاً كانت الثمرة ، فالحبّ روح من الله تسكن موجودات الأرض ، وتدفعها إلى الحياة ، والحبّ فرحة تستحقُّ الاحتفال بها ؛ لذا سأنتظر حضورك . .

ماذا يرتدي النَّاس في احتفالٍ بروح الحبّ ؟ أنتَ لا تعرف ، أنا أيضاً لا أعرف ، ليتني كنتُ طيفاً لا يدركه إلاّ إيَّاك ، كما أنتَ طيفٌ لا يدركه أحدٌ غيري ، لكنتُ قابلتُكَ بلباس يحاكي لباس الأرض بخضرتها وبزهورها بل وبأشواكها .
لكن لأنَّنا ما نزال نعيش في كوكب الأرض ، فسوف ألقاكَ في رداءٍ كالذي اقترحه عليَّ الضَّابط سعادة ؛ فلطالما شهد هذا الاحتفال في الماضي ، وشاهد ما يرتديه النَّاس لا سيما في هذا الاحتفال، قال لي إنَّه يستطيع أن يعيرني ثوباً تقليديّاً من أثواب زوجته ، فهي تحتفظ بواحدٍ منها ، وهيَ لن تمانع أبداً في ذلك .

أعلمني أنَّ بيته في قلب المدينة ، لكنَّه كان في أقصى الجزء القديم منها ، طوال الطَّريق حدَّثني عن عائلته وأولاده الذين يفخر بنجاح بعضهم ، ويشفق على إحباطات البعض الآخر منهم ، أمَّا زوجته فهي كنزه في هذه الحياة . لأوَّل مرَّة يحدِّثني عن شيءٍ بعيد عن السِّحر والمستقبل والنُّبوءات ، لعلّ عائلته هي الحاضر السَّعيد والوحيد الذي يسكنه حياته ، ويسرُّه الحديث عنه ، وبخلاف ذلك فهو يرنو دائماً إلى مستقبل مختلف وجديد .

لسببٍ ما شعرتُ عند دخول بيته بأنَّني في بيتي ، تلك الحديقة الفسيحة المرصوف بالحجارة القديمة، والمزروعة بنظام واهتمام ذكَّرتني بحديقة جدَّتي ، قليلة هي زهور هذه الحديقة ، أمَّا الخضراوات والفواكه فتمتدُّ بخضرتها من مدخل الحديقة حتَّى المنزل ، أشدّ ما أدهشني تلك الخضرة الجميلة التي يرسمها نبات السَّبانخ عبر طول المدخل ، سلَّم البيت غير مرصوف ، يدلف مباشرة إلى غرفة الضُّيوف ، غرفةٌ صغيرة ، أثاثها بسيط ، ويغلب عليه الذَّوق الشعبي ، ولكنَّها غرفة نظيفة تفوح منها رائحة شجرة (الكولونيا) الممتدَّة أغصانها على سياج النَّافذة الغربيَّة ، صور الأبناء والأحفاد تعجُّ بها المنضدة الجانبيَّة ، أمَّا تلك الطَّاولة الزُّجاجيَّة التي تتوسَّط المكان ، فلا تحمل إلاّ تمثالاً واحداً سيِّء الصُّنع ، لعلَّه تمثالٌ يجسِّد فيلاً قد بتر ذنبه وخرطومه ، فأصبح كجمل بآذانٍ طويلة . الحائط يعجُّ بصورٍ لأبطالٍ وقادةٍ وطنيِّين وثوَّار ، أعرف اسم بعضهم ، اقرأ الفاتحة لروح جمال عبد النَّاصر ، أحببتُه بسبب حبِّ والدي الشَّديد له ، كنتُ أظنُّ في صغري أنَّه من أقرباء والدي أو من أصدقائه المقرَّبين ، وإلاّ لمَ يتحَّرق احتراماً وحبّاً كلَّما تكلَّم عنه ، ويقول بعصبيَّته المخلصة : " خذلوه ولاد الحرام " . من خذله لا أعلم! لكنّ أبي بقي محبّاً له ، وبقي يسبُّ أولاد الحرام الذين خذلوه .

بعض الصُّور أجهل أصحابها ، أقدِّر أنَّهم ثوَّار أو قادة وطنيِّون ، ليس لأنَّ صورهم تصطفُّ بوقارٍ إلى جانب مجموعة كبيرة من صور أبطال الضَّابط سعادة، ولكن بسبب تلك النَّظرة الحادَّة المرتسمة بقوَّة في عيونهم ، بقوَّةٍ تتحدَّى البطش والظُّلم ، تقزِّمه ، وتسخر من ضعفه .

أتذكَّر عيني أبي، له ذات النَّظرات الحادَّة والمشيئة الصَّلبة ، تتراءى صورته بين الصُّور ، أتمنى أن أقبِّل صورته ، التي تختفي سريعاً ، أتذكَّر هويَّته العسكريَّة التي تحمل صورة قديمة له ، ورقمه في جيش الاحتياط ، هو يحتفظ

باهتمام بهذه الهويَّة ، ويحفظ رقمه في الاحتياط عن ظهر قلب ، كثيراً ما يــردِّده ، كيف يمكن أن ينساه ؟! منذ ربع قرن ينتظر اللَّحظة الموعودة حيث يندلع غــضب الأمَّة ، ويحمل سلاحه ، وينطلق نحو الأرض المقدَّسة للتَّحرير، هذا هو قدر هــذه الأمَّة ، وهذا هو قدره الذي ينتظره بلهفة .

صورة (جيفارا) باهتة بشكلٍ خــاص ، فملامحــه الــصَّامتة ، وعينــاه الغاضبتان تخيفاني ، قسمات وجهه تتحرَّك ، يكاد يقول شيئاً ، شعيرات لحيته تهتــزّ ، أتخيَّله سينطق بصوت يشبه صوت عيسى ذلك الشَّاب الثَّائر أبــداً ، كــم أخــشاه وأخشى نظراته . مرَّةً صادفتُه بعد الغروب في شارع المستشفى القديم ، كان يحمل كيس خضارٍ صغير ، وبضعة كتبٍ صغيرة ، ويتدثَّر (بكوفيَّة) فلسطينيَّة ، حــدَّق بي كأنَّه لم يعرفني ، وابتسم ، أقسم لكَ يا حبيبي على أنَّه ابتسم لي ابتسامة طفوليَّــة بريئة أضاءت قسمات وجهه ، وتخلَّل نورها لحيته الكثيفة ، شعرتُ بأنَّه سيحدِّثني ، لكنَّه لم يفعل ، بل مضى! في اليوم التَّالي كنتُ أتلهَّف للقائه في المرسم بــل للقــاء ابتسامته الملائكيَّة وقسماته المطمئنَّة ، لكنَّه لم يأتِ ، لأيَّامٍ لم يأتِ . لم أعنِّ نفــسي بالبحث عن نور وجهه ، أمَّا اسمه عندما كان يُذكر كان يثير بعض الهمــسات فــي صفوف الموجودين ، همساتٍ لم أستطع أن أُخمِّن ما تقول .

– تُعجبكِ الصُّورة ؟!

يداهمُني صوت سعادة يدلف إلى الغرفة ، تدفع زوجته كرسيَّه المتحــرِّك ، أقــول برعشةٍ أحدثها صوته المفاجئ : نعم . . لا أعرف .

يطالعني وجه زوجته ، يالله كم هي طويلة القامة ! أراهن على أنَّها أطــول بعــشر سنتيمترات على الأقلّ من الضَّابط سعادة ، جسدها متماســك علــى الــرغم مــن ضخامته بشكل لافت للنَّظر ، أمَّا قسماتها ، فسمراء جميلة .

أتساءل كيف سأبدو وأنا أرتدي ثوبها ؟ أتخيَّل أطرافه الدُّنيا تلامس الأرض ، وأكمامه تتجاوز كفيَّ بل وتغطيهما ، وصدره ينزلق إلى أوَّل معدتي . أمَّا أن يكون بهذا الجمال فهذا مالم أتوقَّعه ! جديدٌ هو كأنَّه خيط في البارحة ، وليس قبل ثلاثين عاماً .تأثَّرتُ جداً بكرم زوجة سعادة ، عندما أخبرتني وهي تعدِّل من وضع الثَّوب علي ، وأنا أقيسه في غرفتها أنَّه ثوب زفافها ، أتكون بهذا الكرم ، وتسمح لي بأن أرتدي ثوباً يحمل أجمل ذكريات عمرها ؟ !

أصرَّتْ على أن ألبسه ، وقالتْ بنبرة حنون : عندما تزوجتُ كانت النِّساء تلبس مثل هذا الثَّوب ، أمَّا الآن فالعرائس يلبسن أثواب الزِّفاف البيضاء ، والله أشعر بأنَّ ابنتي تلبسه ، جميلٌ أنَّه يناسبكِ ، طويلٌ قليلاً ، ولكن لا بأس المهمُّ أنَّ خصره يناسب خصرك ، آه ذكّرتني بأيَّام شبابي . وروح الغالي ارتديه يا ابنتي ، ولا تشعري بأيِّ حرج ، والله ستبدين كالقمر وأنتِ ترتدينه .

وروح الغالي سأرتديه ، ياالله ما أجمل روحكِ ! لكرمكِ معنىً خاص ، لطالما تأثَّرتُ به ممزوجاً بكرم سعادة الذي أكرمني دائماً كلَّما زرتُ بيته ، وأقسم عليَّ أن أتناول الطَّعام معه ومع زوجته ، طعامٌ بسيط يقدِّمه بفرحةٍ خاصَّة لا يعرفها إلاّ البسطاء والفقراء الذين يقدِّمون كلّ ما عندهم بفرحة العطاء ، وسعادة البذل ، فرحة وسعادة ممزوجتان بصوت سعادة الذي يملأ أركان البيت طالباً الشَّاي بالنِّعناع ، يتعمَّد أن يلقي طلباته بنبرة آمرة ليثبتَ رجولته في ذاك البيت ، فتُأكِّدها زوجتُه بابتسامتها الرَّاضية وهي تطلُّ من المطبخ تحمل إبريق الشَّاي .

أزرق . . لون الثَّوب أزرق . . كما لون السَّماء ، أزرق كما تُحبُّه أنتَ يا حبيبي ، قماشه من الحرير السَّميك ، وخيوطه الحريرية الحمراء القانية ترسم زهوراً وطيوراً صغيرة بشكل طوليٍّ ومتوازٍ يمتدُّ من أسفل الصَّدر حتَّى أدنى الثَّوب ، أمّا صدر الثَّوب فيعجُّ بزركشة حمراء قانية اللَّون ، تحاكي تلك الزَّركشة

التي تُوشِّي أسفل الثَّوب من ظهره ، و يطوِّق الحرير المنسوج بإتقانٍ فتحة الصَّدر، والإطار السُّفلي للثَّوب .

أعرف أنَّكَ تُحبُّ الشَّعر المسدل على الكتفين ، سامحني هذا اليوم لن تـــراه مسدلاً بل مجموعاً إلى أعلى رأسي ، كي أستطيع أن أزرع بـــين خـــصلاته هـــذه القمحات الصَّغيرة . ثوبٌ أزرق وشعر داكن تغزوه حبيبات القمح ، تماماً مثل إلهـــة الخصب في لوحة رسمها الفنَّان الفلسطيني عبد الرَّحمن المـــزيّن ، لوحـــةٌ رائعـــة يصوِّر فيها إلهة الخصب عند الكنعانيِّين القدامى في فلسطين ، إلهة الخصب امـــرأة شابَّة بجسدٍ ممشوق ، شعرها الأسود يصل إلى أخمص قدميها العـــاريتين ، ثوبهـــا الأزرق بخطوطه الحمراء يكسو جسدها ، تمسكُ بيدها منجلاً ذهبيّاً رمـــزاً لعمـــل الفلاَّحين ، يطوِّق رأسها إكليل من سنابل القمح الصَّفراء النَّاضجة تحدِّق في البعيد ، كأنَّها تأمل في شيء يهبها إيَّاه المجهول.

أمَّا أنا فأُحدِّق في باب ساحة الاحتفالات ، انتظر بـــاحتراق شـــعوبٍ مـــن العشَّاق حضورك ، نبض أولئك العشَّاق يهزُّ دمي ، الذي يتمنَّاك بشوقِ الياســـمين ، والياسمين وحده يعرف معنى الأشواق . صوت خرير الماء يغرق المكان ، الوجوه حولي جميعها تتلقَّى رذاذ الماء الذي تنشره نافورات كبيرة ، تدفع الماء بشدَّة إلـــى أكثر من عشرة أمتار ، كثير من الوجوه التي اعتدت على رؤيتها في هذه المدينـــة تطالعني في هذا المكان، معظم المحتفلين يرتدون ملابـــس تقليديَّـــة ، الكثيـــر مـــن الملابس الجميلة ، ولكنَّ تلك النَّظرات التي تحاصرني تنقل لي كلمات إعجاب بنكهة خاصَّة ، يشعرني هذا الثَّوب بفرحة الفلاّحة ، وفرحـــة الفلاّحـــة فرحـــةٌ معطـــاءة وصادقة تماماً مثل فرحة الأرض.

شعر نورما الدَّاكن يتراقص تحت رذاذ الماء ، تُحدِّثني عن (اختمـــارت) تلك الأرمنيَّة العاشقة التي تبيتُ حزينة في حكايا العواجيز الأمنيَّات ، تنتظر حبيبـــاً هجرها ومزَّق قلبها . ليتكِ يا نورما لم تُحدِّثيني عن هذه العاشقة ، أخشى أن ألقاكَ يا حبيبي بأحزان (اختمارت) . عيناي هما السَّبب ، هذا ما تقوله نورما، فنظـــرات عيني ذكَّرتاها لسببٍ ما بهذه القصَّة الشَّعبيَّة .

- هل هو حقاً يحبُّها ؟

هل هو حقاً يحبُّها ؟ لماذا لا تجيبين ؟

- يقول إنّه يحبُّها ؟

- وماذا تقولين أنتِ ؟

- أقول إنَّه يحبُّها يا . . . . .

أحدِّق بكاظم وهو يحادث فضيله ، لا أسمع كلماته ، يجلس وإيَّاهـــا بعيـــداً ، لكـــنَّ نظراته وسعادتها تحملان لي كلمات عاشقة ، يداعب شعرها من حين إلـــى آخـــر ، تبعد يده بخجل عن شعرها ، حركاتها الطفوليَّة تنعش ضحكاته . قال لـــي عنـــدما رآني : تبدين كالعروس .

عندما نظرتُ في عينيه رأيتُ فضيله تسكنهما برداءٍ أبيض .

تأخَّرتَ يا حبيبي دقائق عن موعدنا ، ولكنَّها دقائق ضوئيَّة بالنِّسبة لـــي . آه لو تكف مروة عن سخريتها ، تقف بجسدها النَّحيل ، وشعرها المـــسرَّح بعفويَّـــة ، تطالع كلّ ما حولها ، تمثِّل للحظات كلام وحركات أُناس تعـــرفهم ، تلـــتقط بحـــسٍ غريب المواقف من حولها ، تصفها بكلمات دقيقة ، تحلِّل مواقف من حولها ،تبتـــسم وتهدِّد قائلة : كلُّكم سأصوِّركم في مسرحيَّتي ، وسأفضح جنونكم .

تراقبُ كاظم و فضيله للحظات ، تدنو منِّي ، تنتصب واقفةً أمامي ، تهمـــس لـــي بنبرة تمثيليَّة : " الحياة مسرح كبير " .

الحياة مسرح كبير ، لكنَّها ضيِّقة ومعتمة من دونكَ ، الآن تـصبح أرحـب عندما تطلُّ شمسكَ وتنيرها ، ما أسعد الفلاّحين ، لأنَّكَ ترتدي زيّاً هو زيُّهم ، تلـك (الكوفيَّة) تبرز نظرات الفلاّح في عينيك ، من أين لك بهذا الزِّي ؟ أيُّ الهـواجس سكنتكَ وأنتَ تلبسه ؟ مجنونٌ أنتَ ، عذبٌ أنتَ ، نعم هذا هو الرَّجل الذي أعـشقه ، كيف يمكن أن لا أعشق جنونك ؟ بل وأعشق ذلك الزِّي الذي ترتديه ؟

تقترب منِّي بخطوات فلاَّحٍ اعتادتْ الأرض على أن تداعب طهر قدميـه ، تنظر في عينيّ ، تمدُّ يديكَ نحو شعري ، أذوب من لمـستهما ، بحركـة صـغيرة تحرِّر شعري من قيده ، وتجعله يركض سريعاً نحو كتفـيّ ، تداعبـه وتقـول : لا تجمعيه مرَّةً أخرى ، أنا أحبُّه هكذا ، يا قمري .
ابتسم لك ، روحي تتساقط سعادة في بحيرة عينيكَ ، ارسمني كما تشاء ، فأنـا لـم أُولد إلاّ لكي أحبَّك.

الشَّمس إلى جانبي ، فلا عجب أن أحترق . كيف مضى ذلك المهرجـان ؟ لا أدري كيف مضى؟ لأوَّل مرَّةٍ لا أحضر مهرجاناً على الرغم من أنَّني موجـودة في أرضه ، لم أسمع أيَّ كلمة ، لم أر ألواناً ، لم يشمَّ أنفي أيَّ رائحة ، المهرجـان الوحيد الذي كُنته هو فرحة الجلوس معكَ ، ومتابعة عينيك ترقبان بعظمة ما يجري حولهما ، وتداعباني بنظراتهما من وقت لآخر .
لمَ تصافح النِّساء بهذه الحميميَّة ؟!
لمَ تصافح منظِّمة المهرجان بهذه الحميميَّة ؟

شعرها الأشقر وعيناها الزَّرقاوان تحدِّثان عن جمال ما زال يناضل الكِبَـر الذي بدأ يغزو وجهها ، ولكنَّه لم يغزو رشاقتها وجسدها الذي تحاصره برداءٍ أحمر ضيِّق ، يبرز بشكلٍ فاضح صدرها الكبير . كدتُ أحبّ نزقها ، وإحساسها الخـاصّ بأنوثتها المتهالكة ، لكنَّ مطالبتها الودودة بزيارة منك ولقاء ما ، جعلتني أكرههـا ،

وأطالع بحقدٍ كفَّيها اللَّتين نعمتا بلمس كفَّيكَ قبل دقائق ، كيف يمكن أن أُعاقبها على غنيمتها الآثمة ؟

قد أستطيع أن أسامحها ، أمَّا تلك المرأة التي قدَّمتها لكَ على أنَّها شقيقة صديقتها ، فلن أسامحها أبداً . . . لن أسامح نظراتها الوقحة تتابعكَ ، تتمنَّاكَ ، تعدكَ بهباتٍ تتقن الوعد بها ، لا بدَّ أنَّها تكبرني ببضع سنوات ، تكلِّمكَ بثقة وتجربة تجعلني أشعر أنَّني غِرَّة لا تجربة لها ، تُحدِّثكَ بحميميَّة كأنها تعرفك منذ سنوات ، أمَّا أنت فتبتسم لها أكثر مما يجب ، أكثر مما أتحمَّل أن يحدث ، أغفر لكَ أن تعاشر كلَّ نساء الدُّنيا ، أمَّا هذه فلا أغفر لكَ مجرَّد الحديث معها ، قلبي يخشاها ، يضطرب لكلامها ، يبحث عن ملجأ له بين ضلوعي يحميه من سحقٍ يلوح بين يديها .

كيف تستطيع عيناها الصَّغيرتان إلى حدٍّ عجيب أن تمتلكا كلَّ هذه الفوضى، تتملَّكني رغبة تدعوني إلى تحسُّس وجهها لأتأكَّد من أن تلك البقع البنيَّة التي تغزوه بقوَّة هي مجرَّد نمش وليس مجرَّد نقاط مرسومة بسخاء وعدم ذوق على أديم بشرتها الدَّاكنة ، بخلاف شعرها البنِّي اللامع . انظر بفضول إلى صدرها المكشوف، ما زال سيل النُّقاط البنيَّة يتابع جريانه في جميع أجزاء جسدها ، أتساءل كيف يبدو ثدياها بهذا الأديم المنقَّط ! أيمكن أن تُجسَّ هذه النِّقاط أم أنَّها تسمح للجلد أن يحافظ على ملمسه الطَّبيعي ؟ أتذكَّر تلك الحشرة البنيَّة الملساء التي كانت تغزو أرضيَّة حديقة جدَّتي ، حكيمة هي جدَّتي عندما كانت تسارع إلى الملح تصبُّه على جسدها اللَّزج ، فيذوب تحت وطأة إحراق الملح له .

شعرها جميل ، أتابعه بفضول ، وهي تبتعد أتمنَّى لو أنَّه كان أطول ليخفي تلكَ الأرداف الثَّقيلة ، وكأنها تمتدّ حتَّى الرُّكب ، كيف لجسدها النَّحيل أن يملك مثل هذه الأرداف ؟ أجزم بأنّ الله خلقها أردافاً ثمّ أنبت لهذه الأرداف امرأة .

اسمها شرف ، جسدها جميل ، أليس كذلك ؟ قلتَ لي .
حدَّقتُ بكَ بسخط ، صمتٌ ، عندما أخذتَ تمارس مُتعتك في مداعبة طفولة فضيله، قال لي كاظم بكلمات خاطفة ، وهو يتابع بعينيه خطوات شرف : ردفاها رائعان، لم أرَ من قبل أردافاً بهذا البروز والامتلاء والكبر .
شعرتُ بتقزُّز من كلماته ، لم أعتد منه مثل هذه الكلمات الجريئة ، عيناه كانتا تتابعان سيرها بفضول من يتابع جسداً عارٍ ، قلتُ له بفضول مفضوح : أتعرفها ؟
ابتسم ، وقال لي بنظرة خليعة ، تناسب اتِّساع عينيه وبروز محجريهما : لم أقابلها من قبل ، ولكن من لا يعرف هذا النَّوع من النِّساء ؟
نظر إليَّ وقال بنبرة أخافتني : ابتعدي عنها .
نظرتُ إليكَ يا حبيبي ، راقبتُ ابتسامتكَ العذبة سألتُكَ وإن لم تسمع نجواي لنفسي : هل ستبتعد هي عنك ؟!

أشعر بقشعريرة تجتاح جسدي ، شمسك فاترةٌ بعض الشَّيء ، أكاد أسمع من حولي ، أراقب رقصةً شعبيَّةً يؤدِّيها مجموعة من الشَّباب ، أتابع الوجوه هنا وهناك ، سماع بعض المجاملات اللَّطيفة لا يضرُّ ، حتَّى كلمات الإعجاب المبالغ بها التي يسارعني بها أحد أصدقائكَ تبدو مقبولة كي تخفِّف من اضطرابي .

أحتاجكَ الآن ، أتلهَّف على انتهاء هذه الرَّقصة ، كي أسلِّم نفسي إلى صدركَ ، الرَّقصة أطول مما آمل . عينا عيسى هما آخر ما آمل أن أرى ، منذ

زمن لم أقابله، وجوده في المهرجان متوقَّع ، لكنَّ شيئاً ما يثيـر دهـشتي ، لعلَّهـا نظراته السَّابرة التي تقبض عليَّ متلبِّسةً بعشقي ، على الرغم من الإضاءة الخافتـة داخل قاعة الاحتفالات .

أخشى نظراته ، تحدِّثني بأمور لا أفهمها ، أتُصدِّق يا حبيبي أنَّنـي أخـشى نظراته حتَّى وأنا معك ، نظراته تصبُّ لعناتها عليَّ ، وأشدُّ ما يخيفني أن تـصيبني لعناته التي أجهل سببها . أُحاول أن أتجاهل نظراته ، أمَّا هو فلا يجد حرجـاً مـن الجري وراء عينيَّ الهاربتين منه ، يحدِّق بي بنظرات تشبه تلـك النَّظـرات التـي طالعتني في صورة (جيفارا) في بيت سعادة ، هل تعرف (جيفارا) ؟ نظراتـكَ ولحيتكَ وقبَّعتكَ تقول إنَّك تعرف من هو (جيفارا) ! بل تقول إنَّكَ تحاكي مظهـره على الأقل بهذه القبَّعة البنيَّة نادرة الاستعمال .

أخشى نظراتكَ يا عيسى ، ليتك تكفُّ عن بعث هذه النَّظرات ، ليتني كنـتُ أملك الكلمات المناسبة لأطلب منكَ هذا الطلب الطُّفولي ، لكن كم هي الأمنيات التي لا نستطيع أن نجد لها الكلمات ؟؟! كثيرة هي أليس كذلك ؟!

ليتكَ يا حبيبي تخلِّصني من نظراته بطريقة ما ، لكنَّني أخشى أن أشكو لـك هذه المطاردة ، بل أخشى أن تشعر بها ، أنت غيورٌ ، غيور بطريقة غريبة ، تغـار من مجرَّد أن يحلم من أمامكَ بلمس ما تملك ، تغار عليَّ ليس مثل غيـرة المحـبّ الضعيف ، بل مثل غيرة السَّيِّد الذي يملك قلباً بشكل كامل ، ولا يقبـل أن ينـاقش فكرة حصول أيِّ مخلوق على جزء من هذا القلب ، ولو على شـيء مـن فتـات عطفه، عندما أخبرتكَ أنَّني قابلتُ عيسى في السُّوق وكان وجهه منيراً ، حدَّقت بي بغضب وقلتَ لي بسخرية : لعلَّه من الصَّالحين الأبرار ، لا تنسِ أن تنالي بركاته .

سريعاً ما تنتهي الأوقات السَّعيدة ، سريعاً ما تنتهي المهرجانات برفقتــكَ ، تطلب منِّي أن أدخل إلى منــزلي كي تعود إلى بيتك ، وعندما أوشكُ أن أرقى أوَّل درجة من السُّلّم ، تطوِّقني (بكوفيَّتكَ) ، تدنيني من مكان وقوفك ، تطــوِّق بيــديك وجهي ، تحدِّق به كأنَّك تراه لأوَّل مرَّة ، تداعب عقارب شعري ، تقول لي بصوتٍ خفيض ، ولكن بقوة صوت فلاّح أجهد الأرض وما أجهدته : تعبتُ وأنا أنتظــركِ. انتظرتكِ أكثر ممَّا ظننتُ أنّني سأفعل . . .

– أنا لك ، قل لي إنّني هبتُكَ في هذه الحياة .

– لا يمكن أن تكوني إلاّ لي ، من يقترب من حبيبتي (أرتــيمس) ســأقتله دون تفكير .

– ليتكَ كنتَ أقلَّ روعة حتَّى لا أحترق آلاف المرَّات في نــار غيرتــي ، ليتنــي عمياء كي لا أتعذَّب بمراقبة عيون النِّساء تحلم بك ، ليتكَ تسرقني لتُخبِّئني في كهف في عنان السَّماء لأعكف على التَّعبُّد في محراب حبِّكَ إلى الأبد .

– لا تغاري يا حبيبتي من النِّساء ، أنتِ لستِ كأيٍّ واحدة منهنَّ ، أنتِ صنف آخر، مزيج عجيب من الحبِّ والأسطورة والقدر ، أنــتِ وجــه لا ينــسى ، ملامحــه لا تتكرَّر، أمَّا غيره من الوجوه فقدرها النِّسيان ؛ لأنَّ ملامحها لا تملــك مثــل بريــق عينيك العاشقتين . هيا يا حبيبتي أسرعي إلى النَّوم ، لا أحبُّ أن يسرق التَّعب شــيئاً من نضارتك .

– عدني بأنَّكَ ستزورني في أحلامي .

– أعدك بأنَّني لن أفارق أحلامكِ ما حييتِ .

– أتحبُّ أن أزوركَ في أحلامكَ أيضاً .

– أنتِ أجمل في الحقيقة ، أرجوكِ لا تسكني أحلامــي ، دعينــي أنــام بــسلام ، تحتاجين رجلاً بطاقة أسطوريَّة كي يستطيع أن يحلِّق في ســمائك ، وهجــكِ فــي الأحلام مخيف ، أنتِ كالكابوس . . . هكذا هي أحلامنا عندما تتحقَّــق ، نخــشاها لدرجة أنَّنا نظنُّ أنَّها كابوس ، مخيف أن يرى الإنسان أحلامه حقيقة ، أفكِّر أحيانــاً

في أن أهجركِ وأهرب بعيداً ، ولكن إلى أين ؟ أنتِ مصيري ، أنتِ لعنة ، منـــذ أن خلقنا، خُلقتِ على شكل لعنة لكن ما أجمل أنَّكِ لعنتي الأزليَّة !! اذهبي إلى النَّوم .

- سأنتظرك .
- سآتي .

كلَّ ليلة زرتني في الحلم يا حبيبي ، أعشق النَّوم ؛ لأنَّني ألقاك فيه ، أجـــدكَ تنتظرني ، تمتطي صهوة أشواقك ، تدعوني إلى المستحيل ، آه ما أعظم الخـــالق ! لولا هذه الأحلام لاحترق قلبي ، لفتَّتَ الشوق بأسي ، كلَّ ليلة طوال ثمانيـــة عـــشر عاماً ، قضيتُ اللَّيل في حضنك ، اعتدتُ على أنفاسك ، على نبض قلبـــكَ ، علـــى رقيق لمساتك وحركاتكَ ، ترتدي زيّكَ السَّماويَّ ، تكلِّل شعركَ بالغار ، تماماً كمـــا ترسمكَ الأسطورة (هيليوس) المشرق ، ويداك تكلِّـــل شـــعري بزهـــر اللُّـــوتس الجميلة، نطفو على ورقة خضراء فوق ماء بحيرة صـــافية ، أصـــوات الموســـيقى تسحر المكان ، تغنِّي لي بصوتكَ السَّماويَّ ، وتهمس لي بـــآلاف الأمنيـــات ،هكـــذا الأحلام تشبهكَ ، لذا أعشقها ، النَّاس تطلب الرَّاحة في النَّوم ، وأنا أطلب النَّوم لكي ألقاكَ بعيداً عن كلِّ البشر ، بل بعيداً عن نفسي وعن مجال إدراك حواسِّها المحدود.

(١٢)

أنا مهووسة ، هكذا يسمُّون المرأة التي لا يفارقها طيف رجل تعشقه ، الهوس تهمة يحاول أن يرفضها كلُّ من توجَّه له ، أمَّا أنا فأتَّهم نفسي أبداً بهذه التُّهمة اللَّذيذة ، أفخر بأنَّني مهووسة بكَ ، طيفكَ يضحك بشدَّة من فكرة الأدلَّة، يضمُّني بعطف كأنَّه يقول لي : سكناي لكِ دليل كاف على هوسكِ بي .

أنا مهووسة بك ، أمَّا أنتَ فلا تحتمل مثل هذا الهوس ، تخبرني بأنَّ هذا العشق المستحيل يناسب امرأة مثلي ، امرأة تملك مثل طاقتي ، امرأة ملعونة بعشقها.

تراهن كثيراً على عشقي ، أمَّا أن فأقبلُ لهوكَ مع النِّساء ، فهذا ما لم تراهن عليه ، أنتَ رجل لا تملك إلاّ أن تكون معشوقاً ، رقَّتكَ ودماثة طبعك تجعلكَ ألطف مما يجب مع النِّساء ، عندما تحلم بكَ النِّساء ، تخبركَ بأحلامها ، تستغرب ، أمَّا أنا فأتفهَّم ذلك، أستطيع أن أهب بعض النِّساء لحظات سعادة معكَ، ولكنَّ روحكَ ملكٌ لي أبد الدَّهر، أنتَ رجلٌ ضعيفٌ أمام حبِّ النِّساء لكَ ، وأنا ضعيفة أبداً أمام حبِّك ، لا تغيِّر من طبعك ، لا تقمع ذاتك من أجلي ، مارس ذاتكَ ، وكن على سجيَّتكَ، ثمَّ عد إلى حضني ، وحدِّثني كالطِّفل عن خطاياكَ ، ودعني أمسح بيديَّ عناء كلماتكَ . .

تسألني دائماً : كيف أستطيع تحمُّل . . . . . ؟!

أجيبكَ بصمت من حطَّمه الانتظار : ألم تقل إنَّني أملك طاقةً استثنائيَّة ، لا بأس في تبديد بعضها في تحمُّل . . . . .

تعيد سؤالكَ كالطِّفل : ولكن كيف تستطيعين أن تحتملي . . . . . ؟!

أُجيبكَ : وكيف تستطيع أن تراني أعاني في تحمُّل . . . . . ؟!

أنا مهووسة . . .

أنا مهووسة . . .

أحدِّق في المرآة ، أراقب شحوب وجهي ، لا أصدِّق أنَّني فعلتُ ذلك ؟! أفعلتُه لأنَّني مهووسة بحبِّك !!

تسألني المرآة بفضول : ماذا فعلتِ ؟!

أجيبها : لن تصدِّقي ما فعلت ؟

أنتَ يا حبيبي تعرف ما فعلتْ ، أظنُّ أنَّ عينيّ نغم هُما السَّبب فيما فعلت ، هي فتاة ساذجة إلى أبعد الحدود ، عدسات نظَّارتها سميكة ، ولكنَّها تشي عن عيون شبه حمقاء ، ما سبب ولعها باللَّون الأصفر الغامق ، تلبسه باستمرار ، حتَّى بات منظرها يذكِّرني ببعض أنواع الفاكهة ، عَرفتْكَ منذ بضعة أشهر ، تتكلَّم عنكَ بصراحة وأمام أيِّ شخص ، حتَّى أنا حديثة المعرفة بها ، لا تجد حرجاً في أن تحدِّثني عن تعلُّقها بكَ ، تغيظني أحياناً ، ولكن عندما أرى الحبَّ في عينيها ، احترم حبَّها ؛ فقط لأنَّه هبة لكَ يا من أحبّ .

قالتْ لي : إنّها تحلم بكَ باستمرار ؟

فسألتها بفضول : ماذا تعنين بكلمة أحلم به ؟

- أعني أنَّني أراه في أحلامي .
- حقاً ؟!
- البارحة حلمتُ بأنَّه قبَّلني . . . ! أتُصدِّقين ذلك ؟!
- مدهش .
- ليتّ هذه القبلة كانت في الحقيقة .

كلماتها الصادقة إلى درجةٍ كبيرة أثارتني ، أقترب منها ، وأهمس في أذنيها : اذهبي وأخبريه بأمنيتك .

لاقت كلماتي الرِّضا في وجهها الذي يملك نفس الملامـــح والـــرُّدود مهمـــا كانـــت انفعالاتها: وماذا سيفعل ؟
ابتسم لها ، من حقِّها أن تقترب قليلاً من وهجه ، ستجده رجلاً مستحيلاً : ســـيُقبِّلكِ بالتَّأكيد ، ولكن إيَّاك أن تحلمي ثانية به ، وأسرُّ في نفسي : لأنَّني سأقتلكِ عندها . .

يالك من رجلٍ مجنون ! لهذا أحببتُكَ ، ولهذا شابهتُكَ . لقد قبَّلتها كما توقَّعتُ تماماً ، أعرف أنَّكَ أشفقتَ على أمنيتها ووهبتها قبلتكَ ، وليس قلبكَ ، قبَّلتها بدماثـــة السَّيِّد ليس أكثر ، أمَّا أن تطلب أن تتزوَّجكَ فهذا ما يثير ضحكاتي ، ويثير ســـخطكَ علي .
تقول لي : أيَّتها الشيطانة ، أنتِ من سوَّل لها أحلامها .
أجيبكَ ضاحكة : تريد أن تتزوَّجكَ إذن ؟!
– قالتْ إنَّ هذه القبلة جعلتها تقرِّر أن تتزوَّجني ، وتتركَ ابن عمِّها الذي يذوب بها عشقاً .
– وإذا لم تتزوَّجها ، ماذا ستفعل ؟
– ستدوس حبَّها ، وتتزوَّج من ابن عمِّها ، وتختفي من حياتي ، هذا ما أخبرتنـــي به .

أضحك بقوَّة : حسناً تفعل . . . محظوظة أنَّها تملك مثل هذه القرارات الحديديِّـــة ، لا تقلق بشأنها ، ليست امرأة عاشقة ، مجرَّد امرأة تمنَّتكَ . . . ستكون بخير .
– وأنتِ . . هل أنتِ بخير ؟!
أتأمَّل وجهكَ ، تتبدَّد ابتسامتي ، أُحادث نفسي : سأكون أفضل لو انقطعت زيـــارات شرف لكَ ، ليتكَ تعرف أيَّ الميتات أموتها عندما أراها تزورك ، وتحـــضر كثيـــراً من مؤتمراتك أو في معارض الطُّلاَّب الفنيَّة التي تشرف عليها .
تسألني بدهشة : أيُّ النساء أنتِ ؟!

- أيُّ الرِّجال أنت ؟
- أنا أعشقكِ . . .
- أمَّا أنا فمهووسة . . . بكَ .

لن تصدَّق أسرار أمر قبلة نغم ، بل لن تصدِّق أن أُنس قد قرَّرت الزَّواج، منذ أن أدركت خديعتها بحبيبها ، تعاملت مع الموضوع ببرود غريب بعد عاصفة من البكاء ، سافرتْ إلى بلدتها ، ثمَّ عادتْ بخاتم خطبة وبقصص كثيرة عن خطيبها المثقَّف المتديِّن ، الذي يحبُّها بشدَّة ، تصوَّري يا أسرار أنَّها أخفتْ شعرها الجميل تحت قطعة قماش ، قالتْ لي بسرور : أُحبُّ حجابي ، لا أحد يستحقُّ أن يتمتَّع بي إلاّ زوجي الذي اختارني إلى جانبه . طيِّبة هي ، أرجو لها السَّعادة الحقيقيَّة مع ذلكَ الرَّجل الذي تقدِّس اختياره لها .

ما أبعد بيتكِ يا أسرار ! لا أنكر أنَّني أسعد بمراقبةِ هذه الغابات الجميلة ، في طريقي الجبليّ نحو مزرعتكِ التي تسكنين فيها مع عائلتك ، ولكن الطَّقس يبدو بارداً هذا اليوم ، والحافلة تفتقر إلى الدِّفء المطلوب ، ذلكَ الرَّجل الذي يُدخِّن بشره يثير اشمئزازي ، ليته يُطفئ سيجارته اللَّعينة ، ويقفل النَّافذة التي يفتحها إلى نهايتها، وليت ذلكَ الشّابّ الأسمر ذا الملابس الدَّاكنة يتوقَّف عن التَّحديق في من حوله من النِّساء ، ألم ير نساءً من قبل ؟! تبدو عليه التَّعاسة ،و العمل الكادح ، لا بدَّ أنَّه عامل بسيط . قد يكون التَّحديق في النِّساء هو كلّ ما يملك ويعرف عنهنَّ ، أشفق على حاله ، لا بأس ، ليحدِّق لبضع دقائق أخرى ، بؤسه يشفع له عندي .

لو كانتْ أسرار معي في هذه الحافلة ، تجلس إلى جانبي ، كما قابلتها لأوَّل مرَّة قبل عام ، لكانتْ بادلته نظراته بابتساماتٍ وابتسامات ، أعرف أنَّها لن تتورَّط في أكثر من ذلك ، لكنَّها تهب ابتساماتها بسخاء لأمثال هذا الشَّابّ من الشِّباب المسحوق بفقره وضنكِ عيشه وعمله .

أثار سلوكها فضولي ، عندما توثَّقتْ معرفتي بها ، سألتها بلهفةٍ عن سبب ابتسامتها لأمثاله ، أدهشتني إجابتها ، شعرتُ بأنّ إنسانيَّتها قد جُنَّ جنونها ، إنَّها عطوفة ورقيقة أكثر ممَّا يظهر في عينيها اللَّتين لا تفارقهما ابتسامة تبلِّلها الدُّموع دائماً ، وتغادرهما سريعاً نحو الخدَّين عند أوَّل موقفٍ يجرح إنسانيَّتها أو يستفزُّ طبيعتها الرَّقيقة ، قالتْ لي : أنا لا ابتسم لأيِّ رجل ، أمَّا أولئكَ (الغلابة) فابتسم لهم عن عمد لأهبهم لحظة سعادة ، يستحقُّون ابتسامة تمسح عنهم غبار حياتهم الصَّعبة ، ابتسامتي تسعدهم، أشعر بذلك ، وتردُّ لهم الثِّقة برجولتهم المسحوقة تحت أعباء الحياة ، يستحقُّون ابتسامة أليس كذلك ؟! أم أنَّ الكعكة في يد اليتيم عجبة ؟

كلامها مجنون و غريب ، لكنَّ إنسانية ما تسكنه ،لذا قرَّرتُ أن تكون صديقتي ، وكذلك كانتْ ، صديقة فريدة من نوعها . ها هي تُقبلُ نحوي ، جسدها نحيل لكنَّ بشرتها متورِّدة بشكل خاص ، وتجمع شعرها في ذنبة فرس ، كيف تُراه سيبدو على كتفيها ، تُقبِّلني وتُحيِّيني بشدَّة ، البريق في عينيها له تناغم مدهش مع كلماتها الحلوة التي تدلُّ على ثقافة مميَّزة ، وحسٍّ مرهف ، وروحٍ فكاهيَّةٍ تناسب رغبتي الفطريَّة في الضَّحك .

السَّاعات تمضي معها سريعاً ، الطَّعام معها لذيذ ، ويكون مدهشاً عندما تتناوله داخل مستنبتها الشِّتوي، تعشق زراعة الخضراوات والفواكه ، وتتقن هذا الأمر، تتفنَّن في اختيار الأصناف الجيِّدة . لم تنضج أيٌّ من الفواكه أو الخضراوات

لهذا الموسم بعد ، ولكنَّ زهور الفواكه تملأ المكان بالأطياف والـرَّوائح العذبـة ، تُحدِّثني لساعات عن أصناف وسلالات تلكَ الأشجار ، ليتها تزرع بعض الزُّهـور الحمراء ، كلَّما تمنَّيتُ ذلك عليها ، تحدِّق بي بنظراتها التي لا يخفى الـذَّكاء فيهمـا وتقول : لماذا ؟! ألتهديها إلى ذلك الرَّجل الفاتن في المدينة ؟ أتعشقينه ؟!

نعم أعشقه . . . يجيبها صمتي . قابلَتْكَ لأوَّل مـرَّة فـي قاعـة المدينـة للموسيقى، صافحتكَ ببرود غريب ، حدَّثتكَ طويلاً ، وفي أوَّل إغفالة منك ، قالـتْ لي : رجلٌ مدهش ، هل تُحبِّينه ؟ إيَّاكِ أن تخسريه ، إن فعلتِ ، فسوف أخطفه منكِ من دون شكّ .

مستحيل . . . هذا الرَّجل خُلق لي وخُلقتُ له . . .

لم أُجبها ، ابتسمتُ ، ففهمتْ عيناها الذَّكيَّتان كلماتي ، وتحسَّستْ برفقٍ عشقي .

عندما أزورها تبحث عيناي بفضول عن سالم ذلك الصَّبيِّ العذب ، يـشبه أخته أسرار ببريق عينيه، أمَّا بشرته الدَّاكنة فتعطيه ثقةً خاصَّـة ، أحبُّـه بـشدَّة ، ويحبُّني بشدَّة ، كلَّما زرته ، يقف إلى جانبي ، يفرح بشدَّة عندما يرى طوله قد فاق طولي ، يُقبِّلني ، ويحسب الفرق بين عمري وعمره ، ويقـول لـي : نـستطيع أنَّ نتزوَّج، سبع سنوات ، ليست فرقاً كبيراً ، صديقي قال إنَّ أمَّه أكبر من أبيه بعـشر سنوات ، وهما سعيدان ، سأتزوَّجُكِ بعد عشر سنوات . أتوافقين ؟

- ولكنَّني عاشقة !!
- هل ستظلِّين عاشقة حتَّى بعد عشر سنوات ؟
- إلى آخر العمر .
- ألا نستطيع الزَّواج ، وتبقين عاشقة ؟
- لا . . لا أستطيع .
- إذن لن تُحبيني ؟
- بل سأحبُّكَ دائماً .

تُسعد كلماتي طفولته البريئة ، يقبِّلني ، له ولعٌ خاص بشعري ، يقضي معظم وقتــه يداعب شعري ، يقول لي بحزم من وجد فكرة ضائعة : أُريد خصلة من شعرك .

- خصلةً من شعري ! ماذا ستفعل بها ؟
- احتفظ بها للذكرى .
- لماذا لا تطلب شيئاً آخر للذِّكرى ؟
- أنا أحبُّ رائحة شعرك ، ولا أريد إلاّ خصلة صغيرة .

تنهره أسرار بشدَّة ، يصمتُ خجلاً ، يريد خصلة من شعري ، أمَّا أنتَ يا حبيبي فلم تطلب خصلة من شعري ، أيحبُّني أكثر منك يا حبيبي ؟ أم أنَّ لرائحة شعري وقعــاً خاصّاً عليه ؟

أعطيته الخصلة التي طلبها ، أسعدني بطلبه ، فأسعدته بهبتي ، عنــدما قصــصتُ عليكَ القصَّة ، غضبتَ من سلوكي ، تفقَّدتَ شعري ، وافتقدتَ تلك الخصلة ، أتكره أن يملك أيُّ إنسانٍ جزءاً منِّي ، ولو كان خصلة شعر ؟! غضبكَ يقول لي : نعم .

- وجهكِ شاحب ، ما السَّبب ؟ تسألني أسرار .

أحبُّ الوجه الشَّاحب ، لأنَّه يعني أحاسيس قويَّة تذبل الرُّوح ، وتضني الفكر . . .

- حسناً يا عزيزتي . أحضرتُ لكِ هديَّة خاصَّة .
- هديَّة ؟ ما تكون ؟
- انظري . . .

أرى بلبلاً ، أهدتني أسرار بلبلاً جميلاً ، عندما قدَّمته لي ، شاع بريقٌ خفيٌّ في عينيها ، بدتْ كالأسد بحدَّة قسماتها وثقتها ، هكذا وصفتها يا حبيبي عندما رأيتها لأوَّل مرَّة قُلت : جميلة كالأسد !

ماذا عنيتَ بجمال الأسد ؟ لم أسألكَ عن ذلك ، لكنَّني لا زلت أجهل ما عنيت بذلك.

قالتْ لي : اهديه بلبلاً ، لتثبتي له أنَّ ورودكِ لا تأخذ لونها من دمه المسكين .

ذلك البلبل أسعدكَ كثيراً ، بل أدهشكَ دائماً ، قلتَ لي إنَّني المرأة الوحيدة التي أهدتكَ بلبلاً طوال حياتكَ . بقي البلبل رفيق مرسمكَ حتَّى نفق ، وتركَ ورودنا الحمراء وحيدة تُزيِّن المرسم .

كلَّما ذكرتَ لي ذلك البلبل تذكَّرتُ أسرار ، وتذكَّرتُ نبرتها السَّاخرة ، وهي تُحدِّثني عن زوجها الذي تزوَّجته بعد موت البلبل بشهرين ، ذلك الزَّوج ذو الشَّخصيَّة الضَّعيفة ، أشفقتْ على ضعفه ، رحمتْ فقره كعادتها ، وعندما أصبح حبَّه الظَّاهر لها مصدراً لسخرية العاملين في مستنبتها الكبير ، تزوَّجته ، وأنقذته من ضعفه ومن سخرية من حوله ، وجعلته شريكاً لها في المستنبت بعد أن كان مجرَّد مهندسٍ زراعيٍّ بسيط يمتُّ لها بقرابةٍ بعيدةٍ يعمل عندها مقابل أجرٍ متواضع.
وكانت تنهي سرد قصَّتهامعه بضحكتها المعتادة التي تشبه صهيل جواد بري ، قائلة وهي تصفق كفَّها بكفِّي : أم أنَّ الكعكة في يد اليتيم عجبة ؟!!

(١٣)

لأوّل مرة أقطع هذا الشارع في الليل، له سكون غريب لا يشبه تلك الجلبة التي تسكنه في النهار، الأضواء الليلية ترسم ظلالها الشبحية على الأشجار، يبدو المتحف وهو مغلق أكبر حجماً، لعل ظلامه وسكون الحركة فيه يوحيان بقدمه وعراقة تاريخه وضخامة مبناه، لم ألحظ من قبل ارتفاع بوابة المتحف الرئيسية، حتى واجهة المتحف الرئيسية تبدو قطعها الفسيفسائية أكبر وأضخم، بل تكاد تبتلع من يقصدها ليلاً.

ظلام إلا ضوءٌ صغير يتسللّ من نافذة مرسمكَ، أهبط السلّم بهدوء أتعمدّه نحو باب مرسمكَ، صوت حذائي يحدث صوتاً لا أستطيع منعه، في المرة القادمة سأنتعل حذاءً رياضياً، شيء من البرودة يلفحني، كيف تسهر في هذا الجوّ البارد ؟! تحبّ عملكَ .. تحبّ فنّكَ .. ولا تريد أن تفارقني، لهذا دعوتني للسّهرمعكَ في المرسم أثناء عملكَ، قلت لي : إنني الشخص الوحيد الذي سمحتَ له بالدخول الى مرسمكَ في الليل ، ومراقبة عملكَ.

الإلهام يأتيك في الليل، تقول : إنكَ تسمع طرقات الإزميل جيداً في الليل، بل وتتحكم بحركة يدكَ بشكل أفضل في الليل، لذا تعمل ليلاً، تسخر أحياناً من نفسكَ وتقول :- إنّكَ ورثتَ عادة العمل ليلاً عن طفولتك المعذّبة، فقد كنتَ تشعر بغضب متزايد في الليل بسبب وحدتكَ الطفولية، وكنتَ تجد في حفر الصخر متعة تفرّغ غضبكَ فيها، بعد ذلك أصبحتَ تهتم بإعطاء شكل محدّد لهذا الحفر ،ثم أصبحتَ فنان النّحت .

باب مرسمكَ شبه مغلق، أطرقه، لا أنتظر سماع صوتكَ، بل أدفعه وأدخل، المرسم يبدو مختلفاً تماماً في الليل، الظلام يغرق معظمه، أنت لا تستعمل الضوء الكهربائي، بل تكتفي بشمعة كبيرة تذوب قريباً منكَ، صوتٌ موسيقيٌ خافت يبدّد صمت المكان، أمّا إزميلكَ فيأتي صوته متقطعاً ومفاجئاً في أوقات مختلفة تتوافق مع تدفّق عملكَ، رائحة الياسمين تغرق المكان، الياسمين في الليل يعبق بشكل أفضل لا سيما إذا أُغلقتْ النوافذ ، وأُسدلتْ الستائر كما فعلتَ أنت، هذه رائحة ياسميني ، فقد اعتدتُ على أن أهديكَ إياه كل يوم، قلت لكَ : إنّني سأهديكَ إيّاه دائماً، بل سأفتتح لكَ موسم الياسمين كل عام، وأنهيه بباقة من زهوري.
فأجبتني : لو فعلتِ ذلك فستكونين أثمن إنسانة قابلتها في حياتي، فكلّ من عرفتُ من نساء أجدن خذلي كما أجدتُ خذلهنّ.

أخبرتني دائماً بأنّ رائحة الياسمين تسبب لكَ النشوة في كلّ ليلة، وتجعلكَ تستحضر أنفاسي طوال الليل، ولكنني ما تخيّلت أنّ الرائحة ستكون بمثل هذا الجمال. ما هذه الورود التي تسكن إلى جانب ياسميني في ذات الزهرية ؟! قرنفل برتقالي أطرافه حمراء اللون، أراهن على أنّها من تلك التي باتتْ لا تغادركَ إلا قليلاً، وتمتعض من لمشاهدتي، وتتابع كلّ حركاتي، وتحاول بكلامها المعسول أن تقترب مني، بل أصبحتْ تحاول أن تقلّدني في بعض عاداتي، التي من أهمها إهداء ورود لكَ في كل صباح، أتراها تقلّدني أيضاً في عادة تقبيلك عند كل لقاء ؟! الويل لها إن كانت تفعل ذلك.

أدلف إلى المرسم بسرعة، أخطف القرنفل بقرف، أطراف القرنفل الحمراء تذكرني بنمش شرف، أفتح النافذة بسرعة، فتحها يحدث صريراً شديداً، أطوّح الزهور نحو البعيد، أشعر براحة كبيرة، وأنا أرى قرنفلاتها تهوي عاجزة على الأرض، أغلق النافذة، أسدل الستارة مرة أخرى، أقول لكَ وأنا أتنفس بغضب : هذه

زهورها أليس كذلك ؟ اللعنة عليها. أكاد أسألكَ عن سبب وجودها الدائم في كل مكان أنت فيه، ولكنني أشعر بغصة ما توقف كلماتي، وألم غريب يسكن قلبي، أحاول أن أغالب بكائي، أشعر بأنّ صوتي أصبح أضعف ، وأن وهنه قد اشتدّ، آه لو أنكَ تضمني لكي أخفي عيني الدامعتين في حنان صدركَ.

تصبح أمامي تماماً، كيف لم ألاحظ جسدك الممشوق يتجه نحوي؟ بل كيف لم ألاحظ صدركَ العاري ؟ أتعمل بهذا الشكل !؟ على أي حالٍ جسدكَ العاري إلا من بنطالٍ أسود، وقدماكَ العاريتان، وشعرك المتطاير، وجسدكَ المتعرّق تناسب جميعها لحظة خلق يهديها لكَ إلهامٌ ليليّ.
تتجه نحوي، تبتسم، عيناكَ ترقص من السعادة ؟ أيسعدكَ أنني أغار عليكَ ؟ أتعمّدتَ أن تحتفظ بورودها كي تغيظني ؟ الويل لكَ مني.
تشتد رغبتي في البكاء، ولطالما اجتاحتني في حضرتكَ رغبة البكاء، تضمني وكأنّكَ تقرأ قلبي، تهرب بضع دمعات من عيني، لست غاضبة، بل صدركَ يشعرني بسعادة غامرة، لا تناسبها إلا نشوة البكاء. تقول لي بصوت خافت :- تأخرتِ ...
- المكان مظلم.
- أحب العمل في إضاءة خافتة هذا مريح للأعصاب.
- الظلام شديد.
- أتخشينَ الظلام ؟
- معكَ لا أخشى الدنيا، بل الدنيا تخشاني، حبّك يخلق فيّ قوة فريدة، قوة لا يعرفها إلا العاشقون.
- جسدكِ بارد، أتشعرين بالبرد ؟
- هكذا أنا عندما أغضب يجتاحني إحساس بالبرد.

– حتى وأنتِ في حضني تشعرين بالبرد ؟!

تجلسني في مقعدكَ الجلدي، تدثرني بمعطفك الشتوي، تقدّم لي قدحاً من الشاي الساخن، تبدأ في عملكَ، تجلس على كرسيكَ الخشبي المرتفع، قريباً من قاعدة تمثالكَ، تجعل جزء منه بين فخذيكَ، تشدّ عليه، كي لا يهتزّ ولو قيد أُنملة، تتأمّله، ثم تهوي عليه بإزميل ومطرقة حديدية، في كل ضربة تقشط منه رقاقة صخرية رفيعة تتطاير نحو البعيد، عرقكَ يتصبّب، أشعر بدقاتِ قلبكَ وهواجس يديكَ في كلّ ضربة تهوي بها على تمثالكَ، تتوقف كل بضع لحظات عن عملكَ، وتطالع أوراق معلّقة بالقرب منكَ، رُسم التمثال فيها، من أكثر من زاوية، تقارن ما بين عملكَ وما بين ما هو مرسوم، نظراتكَ تدلّ على الرضى، تغمزني بين الفينة والأخرى، تبتسم لي، مؤكداً إحساسكَ بوجودي، أصمتُ تماماً، وأراقب عملكَ الدقيق بخشوع من يحضر صلاة، أراقب بروز عضلات كتفكَ ، واندفاع صدركَ إلى الأمام، يغريني بروز عضلاتكَ بمتابعة حركاتها متابعة دقيقة، تنحني على تمثالكَ كأنكَ تنحني نحو امرأة ترجو وصالها، في عينيكَ عشق رائع، عشقٌ لا يعرفه إلا الفنّان تجاه فنّه، أراهن على أنّكَ ستحوّل هذا الحجر الأصم إلى تمثالٍ يكاد ينطق لشدّة إتقانه، أرجو أن لا يكون حبّكَ لفنّكَ كبيراً إلى درجة تجعلك ترغب بتحطيمه، كما فعل النحّات القبرصي بجماليون بتمثاله الجميل.

أطالع تلك التعابير المرسومة على وجهكَ، تعابير مخضّبة بالعرق، قسماتكَ صامتة وراضية كما الطفل في حضن أمه، أمّا من يتابع حركة عضلاتكَ ، ويتتبّع ملامح جسدكَ، يرى الرجولة ممثّلة بكَ، رجولة موهوبة، تصهر نفسها مع إنتاج فني بديع. أحقاً هذا أنت ؟ أحقاً أنا معك ؟ أشعر بأنّ هذه اللحظات ليست إلا حلماً مستحيلاً. أقول لكَ : أنتَ أجملُ من أن تكون حقيقة.

تضم كفّي وتقبّله بحنان، كأنّكَ تريد أن تؤكّد لحواسي التي تدرككَ أنّكَ حقيقة موجودة ، ولست مجرد حلم، تقول لي :- أنتِ قدري، ولكن على شكل امرأة.

تضمني وبحركة سريعة، تنتصبُ أمامي، وتراقصني بهدوء على أنغامِ موسيقاكَ التي اخترتها قبل حضوري، أنفاسكَ تلفح عنقي، تميل علي ، وتهمس في أذني :- تعشقينني بجنون، أليس كذلك ؟ كلماتكَ تذكّرني ببيت شعر أرسلته لكَ مع إحدى ورودي يقول :

إن لم تكن تحبني فأنا أحبّكَ وإن أحببتكَ فالويل لكَ

تهمس ذاتي : الويل لي منكَ ...

تعود وتهمس لي : لم أعُد أرغب بالهرب، أريد أن استسلم، أتعديني بالسلام ؟

- أعدك أنني لن أكون إلا لكَ، سأهبكَ كلّ ماضيّ الذي كان وقفاً على انتظاركَ، وحاضري الذي هو بين يديكَ.

- لا أكاد أصدّق أنّكِ بين يديّ، لا أصدّق أنَ ...

ألامس بيدي فمكَ لأقطع دفق كلماتكَ : لا تذكر اسمي، اسمي هو وجودي معكَ، أنا لا أسمّيكَ بل لا أذكر اسمكَ، أتعرف لمَ.

- لمَ ؟

- لأنّ اسمكَ يعني كلّ رجال الدنيا، أنتَ رجال الدنيا كلّهم في رجل واحد. لا رجال في دنياي من بعدكَ، عالمي أنتَ، لا أسميكَ لأني أغار من أن تلامس شفاهي حروف اسمكَ وأنا أنطقه.

- حبيبتي (أرتميس) أي قدرٍ بعث بكِ إليّ ؟!

شمعتكَ تكاد تذوب، ألحظ صخرتكَ الصمّاء ترقبنا، تنتظركَ كي تحوّلها إلى تمثال جميل، لا بد أنهّا تحسدني؛ لأنّ يديكَ تطوّقان جسدي الثمل بأنفاسكَ.

أسألكَ بفضولٍ : هل ستنحت تمثال لإمرأة ؟

- تقول بنبرة عميقة : لا...

– ولمَ لا ؟

– أنا أكره أن أنحت تمثال لجسد امرأة.

– أتكره أجساد النساء ؟

– أنا لا أحبّ إلا جسد المرأة التي أهواها، هي فقط من أشتهي جسدها، أما غيرها من النّساء ، فأجسادهن سواء لا تثير عندي أي رغبة.

أشعر بيديكَ تطوقان خصري بقوة أكبر، كأنّكَ تريد أن تحاصره، أقول لكَ : هل رأيتَ ما أنجزته من تمثالي ؟

– ليس بعد ، سنراه سوياً ، ولكن بعد الغد.

– ما زال في أول مرحلة.

– ماذا ستسمّيه ؟ لا بد أن يكون للتمثال اسم.

– سأسميه (إليكَ).

– (إليكَ) ما هذا الاسم الغريب ؟

– لأنّ قلبي أهداني إليكَ، لأنّ روحكَ تسكن جسدي، لأنّ طيفكَ يلازمني أبداً، لأنّ كلّ ما صنعتْ يداي يحاكي رسم عينيكَ، أقول لكَ واستثني البشر : إليكَ.

(١٤)

لأول مرة أدخل دنيا الأحلام، ولا أجدكَ في انتظاري، سألتُ ماء البحيرة عنكَ، قالت : إنّها لم تستقبلكَ، أزهار اللوتس لم تبتسم لي كعادتها، أوراق الأشجار دنتْ مني ، وهمستْ في أذني، لم أفهم ما قالته، ولكن كلماتها أشعرتني بخوف كبير، عندما داعبت ماء البحيرة أخمص قدميّ شعرت ببرودتها، لأوّل مرة أشعر ببرودتها، الماء يغرق جزءاً من غلائل ثوبي الوردي، أشعر بأنَني عاجزة عن الحراك، تجتاحني رغبة البكاء، صوت أنفاسكَ يقترب مني، تداعبُ وجنتيّ، وتدعوني إلى اعتلاء زهرة اللوتس الطافية على وجه الماء، أسرع نحوكَ، تطوقني بذراعيكَ، ورق الغارّ الذي تتوّج رأسكَ به ذابل وحزين، أهمّ بأن أسألكَ عنه، لكنّه سرعان ما يتساقط ذابلاً من إكليلكَ الأخضر، يتطاير بعيداً، تسرقه الرياح مني، أفزع من ضياعه من بين يدي، أصرخ، واستيقظ مذهولة من هذا الحلم، بل الكابوس.

لن أتركَ وأسافر مرة أخرى، أعاهد نفسي على أنني لن أفعل ذلك من جديد، كم أشعر بوحدة كبيرة وأنا بعيدة عنكَ، لن أنتظر عودة الجميع إلى المدينة، سأتركهم وأعود في أقرب حافلة، هم يستمتعون بحسن ضيافة عائلة أنس، أمّا أنا فأحترق شوقاً لكَ، الجو عليل والاستضافة كريمة، والطعام لذيذ، هكذا يقول الجميع أمّا أنا فتجتاح فمي نكهة غريبة تجعلني أجد كل ما آكل مراً صعب الهضم، كلما جلستُ إلى الطعام، جلس طيفكَ إلى جانبي، يرفض أن يأكل، غاضب مني؛ لأنَني تركتكَ وحيداً في المدينة، أشفق على غضبه وأهجر طعامي.

زفاف أنس انتهى ، ولا داعي لوجودي، يستطيع الجميع أن يستمتع هنا بدوني، أمّا أنا فمتعتي الوحيدة هي في القرب منكَ، في ليلة زفافها تمنيت وجودكَ

معي، تمنيّتُ أن أتأبّط ذراعكَ ولون ثوبها الأبـيض يغـرق المكـان، تمنيّـتُ أن تشاركني في أكل الكعك والمعجّنات، لا بأس فقد احتفظت لك بكل ما قُدّم لـي مـن سكاكر، وسنأكلها معاً، فللطعام طعمٌ خاصٌ معكَ.

في الحافلة طالعتُ الساعة لآلاف المرات، عددتُ الـدقائق للوصـول إلـى المدينة، ندمتُ لأنني لم أسألكَ يوماً عن عنوان بيتكَ ؟ أصممَ على أنّكَ تسكن السماء وترافق الشمس، أمّا الأرض فعجيبٌ أن تتّخذ فيها مسكناً لكَ كسائر البشر.

لا وقت لكي أعود إلى منـزلي وأتـهندم، سامحني إن أقبلتُ عليـكَ غيـر متزيّنة، اعتدتُ طقوساً خاصة للقائكَ، أمّا الآن فأشواقي أعنف من طقوسي، أدلـف إلى المتحف، أسرع إلى مرسمكَ، الأمتار الأخيرة من الردهة أقطعها جريـاً كمـا اعتدتُ دائماً، أدفع الباب وأهمّ بالدلوف إلى المرسم، لطالما دخلتُ بهـذه الطريقـة، ولطالما طاوعني الباب، أما الآن فيبدو عنيداً لا يشفق على لهفتي ...
أنتَ لست موجوداً، أين تراكَ تكون ؟ ألم يحدّثكَ قلبكَ بأنني قادمة ؟

ثلاثة أيام تمضي، وبابكَ مغلق، أشعر بحرجٍ خاص كلما سـألتُ زمـلاءكَ عنكَ، يبتسمون ، ويقولون بخبث : لا نعرف شيئاً عن سبب إجازته، اسألي عنه في بيته.
أتحمّل خبثهم، وأعاود الاتصال بكَ مرة تلو الاخرى، صوتكَ لا يتدفّق أبـداً عبـر الهاتف، كلّ ما أسمعه صوت الخط المبحوح ينتظر صوتك بلهفة، أطيل الانتظـار، أتمنَى أن أسمع صوتكَ، ولكن لا إجابة، قلبي يحدّثني بأنَ مكروهاً قد أصابكَ .
يا شمس حياتي أين أنتَ يا (هيلوس) ؟ في أي بقاع الدنيا تختفـي ؟ حبيبتـكَ (أرتميس) قد أضناها الانتظار.

عندما قابلتُ صديقكَ نمر نصّار قال :- إنّه لا يعرف أيّ شيء عنكَ، جلس إلى مكتبه، ودعاني إلى شرب القهوة، قررتُ أن أتحمّل ثقل ظلّه من أجل أن أعرف أي معلومة عنكَ.
حدّثني كعادته عن شعْرِه المجيد، وعن موهبته الأصيلة !! اتهّم كل من يعرف بالتآمر ضد شعره غيرة من موهبته، كدتُ أخبره أكثر من مرة أن شعره سخيف وموهبته خاملة، لكنني أشفقتُ على غروره. عاد وأهداني ديوان شعر آخر يحمل اسم (سبعةٌ في السماء)، كتب لي إهداءً طويلاً في رأس الصفحة الأولى، لم أعنِّ نفسي بقراءته، فهذا الديوان سيلاقي مصير أخيه السابق، إلى سلّة المهملات.

أتابع كلامه الطويل وهو يتصنّع الرقّة والشاعرية، يدهشني عظم كرشه، وأتساءل عن سبب تلك الهالات السوداء حول عينيه، أتراه ممن يسكرون ؟ أم أنه يمضي ليله في أمنياته وفي نسج شعره المهترئ .

كنتُ أتناول الطعام معكَ في مطعم الجبل عندما قابلته لأوّل مرة، سلّم عليكَ بسرعة، كان متلهفاً على إكمال حديثه مع تلك الفتاة ذات الشعر الاحمر والأهداب الحمراء التي كانت تجالسه بسعادة، عمرها لا يتجاوز الثلاثين، لكن بشرتها الحمراء وشعرها المجعّد يجعلانها تبدو مثل ساحرة شريرة، لا بدّ أنها حمقاء لتقع في حب هذا العاشق المهووس بنفسه.
يومها سخرتَ منه ، وقلتَ لي : هو دائماً عاشق، بصراحة هو يحبَ أن يكون عاشقاً، ولو لعجوز شمطاء .

في ما بعد أصبحتُ أراه وحيداً، قال بإنَ المرأة الحمراء سافرت، وستعود عما قريب، لكنّها لم تعد أبداً، عيناه تقدَمان عروضاً بشكلٍ مستمرَ لعلاقة محتملة، أكرهه، هو، يعرف ذلك ، لذلك يتجنبكَ عندما أكون معكَ، يتقن كلمات الغزل، التي

يحفظ معظمها من كتب الشعر القديمة، لذا يستطيع أن ينال إعجاب شرف وهو يغرقها بكلمات إعجابه.

يسألني عن شرف، أجيبه عنها باقتضاب، أتخيّل كم هو مناسب لها، ستعشق نقوده بشكل كبير، وستقدّم جسدها رخيصاً مقابل أمواله، وهو مستعدٌ دائماً للدفع وبكل سخاء.
أرغب في أن أتقيّأ عليه، أنتصبُ واقفة بمجرد أن أحصل على عنوانكَ منه مكتوب على قصاصة ورقٍ صفراء، أشكره كارهة وابتعد، يصلني صوته الأجشّ ليتعالى خواره ويقول : لا تنسِ أن تتقلي تحياتي للست شرف .

أنتَ في البيت، قلبي يحدّثني بذلك، لا بدّ أنّكَ مريض، لذلك تخفي ضعفكَ عني، لا تقبل صدقة من أحد، تفضل الموت على أن تضعف، تقبل العشق، وترفض أن تخالطه الشفقة، أتذكّر تلك المتسوّلة التي كانت تلحّ عليك بالصدقة، كنت تساعدها بالنقود، وتتقزّز من دعائها الذي تقدّمه ثمناً لصدقتكَ، أنت ترفض العطايا ولو كانتْ مجرد دعواتٍ تقليدية.
كنتُ متأكدة من أن هذه الطريق تؤدي إلى بيتكَ، كلما سرتُ فيه راودني شعور بقربي منكَ، أقطع الطريق سريعاً، عندما أقف أمام بيتكَ الغارق بين شجر السرو، أشعر بتعب في قدميّ، الطريق طويلة، أتساءل عن سبب عزوفي عن استقلال سيارة أجرة ! لقد نسيت أن أفعل، أشواقي كانتْ أعظم من أن أتذكّر نفسي، أتأمّل بابكَ، آخذ نفساً عميقاً، أخرج المرآة الذهبية، أتفقد زينتي، يعبق جسدي برائحة عطري، اسمه (الخطيئة) أنت من أهداني إياه، أنقط المزيد منه على جسدي.

أقرع الباب، أحضّر كلماتي، سأعتذر عن غيابي، سأعدكَ بعدم السفر ثانية، لا تتوقع حضوري، أعلم ذلك، فلقد قطعتُ إجازتي كي أراكَ، وجهكَ شاحب، لا

بأس، فأنا أحب الوجوه الشاحبة، سأضمّكَ، سأتوّجكَ ملكاً، سأقوم على خدمتكَ، وسأسهر الليل قريباً من سريركَ.

أعاود قرع الباب، لا بدّ أنّكَ تسير متعباً نحو الباب، ستفرحك طرافة هديتي، هذه السلّة القشيّة المكلّلة بالزهور، والمغلّفة بالورق البلاستيكي الشفاف، جمعتُ لك فيها جميع أنواع الفواكه التي يعرفها بشر هذه المدينة ، من كل نوع اشتريت لكَ حبة واحدة، حبة ناضجة ولذيذة، أحببتُ أن أهدي لكَ بساتين الدنيا، فاخترتُ لكَ أفضل ما أنتجتْ، كلّ حبّة تلمع مزهوّة بقشرتها الملونة ورائحتها الزكية.

الباب يُفتح، أنتظر وجهكَ، ابتسم للقائه، يطالعني وجه شرف بشعرها الجميل ونمشها البنيّ، كلّ سمّ الدنيا يُقذف في عروقي، أشعر بأنَ قلبي قد سقط أرضاً، لا أبالي به، أرغب في سحقه في هذه اللحظة، ترمقني بدهشة كما لو أنّها رأتْ شبحاً، تدعوني بإشارة منها إلى الدخول، أسبق خطواتها نحو الداخل، لا ألتفتُ نحوها أبداً، أسمع صوتها من خلفي يقول باضطراب :- كان مريضاً، كاد يموت من الحمى، كان محتاجاً إلى معونتي، لقد ردد اسمكِ طويلاً في مرضه.

أدلفُ إلى غرفتكَ، رائحة عطرها تملأ المكان، اللعنة عليها، تتمدّد كمارد على السرير، تتدثر بالسميك من الدثار، تلك الأدوية التي تزدحم بها طاولة عند رأسكَ تدلّ على أن الطبيب قد زاركَ أكثر من مرة، أجثو على الأرض بالقرب من رأسكَ، أُبعد تلك المنشفة المبللة عن جبهتكَ، أقبّلكَ بهدوء، أتذوق طعم عرقكَ، تفتح عينيكَ، تغلقهما، ثم تعاود فتحهما للتأكّد من وجودي، تضطربُ، تحاول أن تتحرّك، أمنعكَ بقبلاتي، أضمّ يدك إلى صدري، أقبّلها كأنني أطلب مغفرتكَ، أسمع صوتكَ الضعيف يقول لي : ها قد عدتِ ... طوال الليل رأيتكِ في أحلامي، كنتِ ساحرة الجمال كما أنتِ دائماً، طلبتُ منكِ أن تقبّليني، رفضتِ، أحزنني ذلك.

يستقبل تجويف فمكَ دمعةً فرّت سريعاً من عيني، أدفن رأسي في صدركَ بعد أن أغرقته بقبلاتي.

وتداعب شعري بضعف وتقول :- جسدكِ بارد ...

أشعر بنظرات شرف تلهب ظهري، أي الأفكار تراودها الآن ؟

أفتح نافذة غرفتكَ كي تتبخر رائحة شرف من المكان، أطالع السرير حيث تنام، لا أثر يدلّ على أن أحداً قد شاركك إيّاه، أين ذهبتْ ؟

أجدها في المطبخ تعدّ الطعام، أرمقها بنظرة قاسية، لا تنقصها الوقاحة كي تبادلني بمثلها، تعبث بالأدوات كأنهّا في بيتها، أدنو منها، قامتي أطول بقليلٍ من قامتها، أرغب في أن أشمّها، لأتأكد أن رائحتكَ لا تسكنها، أخاطبها بنزق :- لا تلمسي طعامه، سأحضّره أنا. ترمقني بنظراتٍ تحمل وعيداً مخيفاً، وتعاود عملها.

أغادر المطبخ، وأعود إليكَ، تبهركَ سلة الفواكه، تهزّ رأسكَ مستغرباً من هذه الهدية الطريفة، أقشّر لك موزة كبيرة، تأكلها بجوعٍ واضح، صوت باب البيت يُغلق بقوة، لا بدّ أنها خرجت غاضبة، لا بأس، لتذهب إلى الجحيم. تبتسمُ لي، تسألني ببراءة الأطفال :- ماذا ستطهين لنا ؟ أنا جائع ...

(١٥)

– ما بالكَ ؟ لمَ تحدّق بي هكذا ؟ هل تسمع ما أقول ؟

– كل كلمة ..

– إذن .. ما هي آخر كلمة قلتها ؟

تحدّق بي، ثم تحدّق بالبطاقة الملوّنة التي قدّمتها لك بمعيّة طاقة الورود، التي طلبتَ أن اقرأها لكَ بصوتي، للكلمات معنىً خاص عندما يقرأها من كتبها، هكذا أخبرتَني دائماً. تدنو قليلاً مني، ثم تقول بصوت عميق كالشتاء :–

اعتيادي على غيابكَ صعبٌ واعتيادي على حضورك أصعب

تبتسم ابتسامة من هزمني بيقظته، تقول لي بلغتك الآمرة التي أعشق سلطتها علـــيّ، أكملي...

سريعاً استجيب لأمركَ :–

كـــم أنا كم أنا أحـــبّكَ .. حتى أنّ نفسي مـــن نفسها تتعـــجّب

يسكن الشعر حـــدائق عينيـــكَ فلولا عيـــنيكَ لا شـــعر يُكتب

منذ أحببتكَ الشموس استدارتْ والسماوات صرن أنقى وأرحب

منذ أن أحببتكَ ... البحار جميعاً أصبحتْ من مياه عينيكَ تشرب

أتـــمنّى ... لو كنتَ بؤبؤ عيـــني أتراني طلبت مـــا لـــم يطلب ؟

انت أحـــلى خرافـــة في حيـــاتي والذي يتبع الخرافـــات يتـــعب

– أنتِ خرافتي ..

– حقاً ؟!

أبتسم لكَ، أشعر بأنَ ينابيعاً من الماء الحار تتفجّر في قلبي، تداعبُ كلماتكَ روحي، أضع البطاقة قريباً من زهرية الورود، التي أداعبهـــا، وأغيّـــر تنـــسيق ورودهـــا، أستطيع أن ألمح نظرة عينيكَ تعصران ذاتي ...

تتناولُ البطاقة، تقرأ بعض ما كُتب فيها بصوتٍ عالٍ، ثم تقول بنبرة مستغربة :-
هل أنتِ من نظم هذه القصيدة ؟.
- أنا عاشقة، ولست شاعرة.
- إذن من نظمها ؟
- أعجبتكَ ؟
- جداً .
- هي لنزار قباني ..

تصمتُ، تبتسم بفتور، ثم تقول :- هي لنزار قباني إذن، نزار قباني يرسم في قصائده نوعاً خاصاً من النساء، نوعاً واحداً يحلم به، نوعاً مجنوناً فاتناً مخلصاً مدمّراً، نوعاً استثنائياً من النساء، كلما قرأتُ شيئاً من أشعاره شعرتُ بأنَه يبحثُ عنكِ، يبحث عنكِ من دون نساء الدنيا، كلّ كلماته تخصّكِ دون غيركِ، لو كُتب له أن يلقاكِ، فسوف يصاب بالجنون إثر فزع شديد من تجسّد خيالاته أمامه، أو أنه سيعشقكِ بجنون، أشعر بأنَه يكتب لك بالذات، وينشر قصائده من أجل أن تقرئيها، هو يراسلكِ، ولكن بشكلٍ علني، لا يخشى أحد، لا يهمه رأي أحد مثلك تماماً، مسكين نزار سيموت دون أن يعلم أنني وجدت كنزه المسحور.
- أنا لم أُخلق إلا من أجلكَ، خلقتُ كي أناسبكَ تماماً، في عيني أنتَ رجال الدنيا، وغيركَ لا أرى.

بمقدار صدق كلماتي، تلمع في عينيكَ تلك النظرة الساخرة المبلّلة لسبب ما بدمعة عتيقة، لطالما تساءلتُ إن كانت هذه هي الوصفة التي يحتاجها الإنسان ليُخلق في داخله الحب. تداعب يداكَ عنقي وبعض خصل شعري، بل تداعب تلك الندبة التي تجرح بصمت أنوثتي، تعاملها بحب وعطف يؤكّدان لها ضآلتها أمام حبّك لي. تهمس في أذني: عيناكِ متعبة .. ألا تنامين ؟

– كلا ، أعمل لوقت طويل في بعض الرسومات التحضيرية لبعض التماثيل، وعملي الصباحي في المرسم يستهلك كثيراً من طاقتي.
– وتجدين بعد ذلك الوقت لمساعدتي في مرسمي، وفي تنسيق أوراق ملتقى النحت وتقرئين جميع أبحاثي وتناقشيني فيها ؟!
– أحفظ كلَ كلمة كتبتها، ضاع علي الكثير من حياتكَ قبل أن أقابلك، أحاول المستحيل لكي أعوّض لكلينا ما ضاع قبل لقائنِا.
– حبيبتي، أنتِ لا تزالين بعمر زهرة الياسمين !
– أنا أنتظركَ من ألف عام، كم مرة سأخبركَ بذلك.
– لن تعملي معي بعد الآن، سترتاحين، وتنامين بالقدر الذي يحتاجه البشر.

أحدّق بكَ، ليتكَ تعلم أنني لا أعرف معنى نوم البشر، حتى نومي صادره حبكَ، أحلامي حكر عليكَ، يهرب نهاري ليبعث بي إلى ليل هو ملك لك، لا يمكن أن تحرمني من متعة حفظ كلَ كلمة كتبتها :– أرجوك ، لا تحرمني من العمل معكَ، أستطيع أن أعمل أضعاف ما أعمل.
– من أين يأتي جسدكِ الصغير بكلَ هذه الطاقة ؟ أي الأفكار يملك عقلكِ ليفجّر طاقته، ويُعملَ قدراته ؟!
– حبّكَ جعلني امرأة مستحيلة، لطالما كنتُ فتاة مجتهدة ونشيطة لكن عادية، عندما عرفتكَ أصبحتُ أملك من الحواس أكثر مما يملك البشر، طاقتي معك تصبح مهولة، أصبحتُ امرأة مميزة، أتعرف ما الذي جعلني مميزة ؟ نعم عشقكَ، عندما يتعلّق الموضوع بكَ، فأنا أملك آلاف المواهب والطرق والأفكار، عندما تنبت صورتكَ في أي جماد، فإنَه ينبض بالحياة، عندما تلفحني أنفاسكَ أصبح قادرةً على الإنجاز والإبداع والتميّز، كلماتكَ تنفث في داخلي سحراً ملعوناً ينقلب على صاحبه ليدمّره، ولكنني أعشق الموت على يديكَ.

– أيّتها الصغيرة المجنونة، ارفقي بقلبي، أعطي مداركي وقتاً أطول لكي تستطيع أن تستوعب هوسكِ، هبيني شيئاً من الوقت لأحتفل بلقياكِ كما يليق بك يا قمري الذي هبط من عليائه من أجلي أنا بالذات، اعشقيني بشكل أقل، حبّكِ يقتاتُ عمري.
–ليتني أستطيع أن أفعل، لكننَي لا أملك زمام عشقي، هكذا أنا عندما أحبّ أكون عشق نساء الدنيا، أو يكون إيّاي هذا العشق.

الوقت معكَ يمضي سريعاً، أمتأكد يا حبيبي من أنّ الزمن على كوكب الأرض يسير بنفس السرعة ؟ أشكّ بذلك، وإلا فكيف ينقضي الوقت معكَ بهذه السرعة، ليتَ الزمن يصاب بالشلل وأنا معكَ، وأبقى في دفء حضنكَ إلى الأبد، بل ما أسعدني لو بُعثتُ يوم القيامة على هذه الهيئة.

انقضى الوقت معكَ سريعاً، انقضى من دون أن أخبركَ بما حدث، حسنٌ أنّه انتهى، أخشى أن أرى صفو وجهكَ يتكدّر عند سماع تلك الكلمات عن ذلك الشخص، لطالما شعرتُ بأنكَ تكرهه، أمّا عندما أحدّثكَ عن وقاحته فسوف تكرهه بلا شكّ، بل ستغضب، أخشى أن أتوقع غضبكَ، أكره غضبكَ الذي يشبه ثورة مجنونة تضرب البحر والشاطئ بغضب غير متناهٍ .

دع خيالات غضبكَ ترحل عن مخيلتي؛ لأعرف سبب وجود كاظم هنا، أمام الباب الخلفي للمرسم، يبدو متأنّقاً، شعره داكن السواد إلى درجة اللمعان، لحيته المهذبة بشكل جيد توحي بصرامته الشديدة. اقترب منه :
– تحية كاظم، ماذا تفعل هنا ؟
– أنتظر فضيله، اتفقنا على أن أمرّ لأصطحبها من أمام المرسم، لكنّها تأخرت.
– سأذكّرها بموعدك.
– حسناً، لكن استعجليها ... أرجوك.

في عينيّ كاظم إنكار غريب، لم أعد ألمح تلك النظرة البهيمية التي كانت تسكن عينيه، تلك النظرة التي تستبيح جسد أيَ امرأة دون استئذان، تلك النظرة التي لا تعرف الولاء لامرأة معينة، في عينيه سكينة واضحة، أيَ مجهول قد سكن نفسه؟

– كاظم أحقاً أنتَ تحبَ فضيله ؟

– وحقّ عيني أحبها، زود عن عيوني أحبّها.

– منذ متى تحبَها ؟

– منذ أن وقعت عيناي عليها ، أحببتها من النظرة الأولى. أتؤمنين بالحبَ من أول نظرة؟

– أؤمن بالحب أياً كان ظرفه .

– الله يعلم أنَ حبّ فضيله أعاد الحياة إلى قلبي.

– حافظ على فضيلة، فضيلة تحبّكَ، هي من عائلة طيبة، لا تكسر قلبها.

– فضيله أغلى من عمري، هي السعادة الوحيدة في حياتي.

لا أجد فضيله في المرسم، لعلّها غادرته من الباب الأمامي، لا بأس، سألقي نظرة على الطابق السفلي من المرسم، لا أسمع غير صوت قرعات حذائي على البلاط البارد، أعبر الباب السفلي، أجتاز أفران الفخّار، حجمها كبير، ولونها الداكن يخيفني، يذكرني بالبارحة، يذكرني بعيسى.

البارحة كان يوماً عادياً، العمل طال، أصبح المكان موحشاً بعد أن غطى كلّ طالب عمله بغلاف بلاستيكي، وغادر المكان، بقيتُ وحيدةً، أصبح المكان موحشاً، أنا لا أخاف الوحدة، لكن عندما أبقى وحيدة مع صمت عيسى فأنا أخشاها.

طوال نصف ساعة لم يصدر أيّ صوت، كان هادئاً كالقبر، لدرجة أنّ فضولي دفعني أكثر من مرة إلى أن أنظر إلى وجهه بصمت لأتأكّد من أنّه ما زال

يعمل، ولم يغادر المكان، كان ينعم النظر في عمله، عمله ضخم وجميل، عندما يخفض رأسه نحو قاعدة التمثال تلاصق لحيته الكثيفة الصلصال، أعجب كم هو هادئ وهو يعمل!! سكينة غريبة تسكن وجهه، ذلك النّور الخفي يشعّ من قسماته، يداه تداعبان عمله بألفة مؤثّرة، أستطيع أن أحكم على أن يديه يدا فنان، لأكثر من مرة يترك المرسم، ويتجه نحو الأفران، ما تراه يفعل هناك ؟ أهو منزعجٌ من وجودي؟ حركاته وانفعالاته محايدة تماماً لا أستطيع أن أستنبط منها أيَ انطباع، كلما غاب في الداخل، استرقت النظر إلى تمثاله الضخم.

ما أجمل عمله ! التمثال من الصلصال الجيد، ليته أنجزه من الصخر أو الرّخام، لكنّه لا يحتمل أن يكون قاسياً إلى درجة تسمح له بتهشيم الصخر ، وخلق أجسادٍ من الصلد الأصم، يشعر بأن إزميله يؤلم الصخر الصامت، وهو يكره التعذيب، يكرهه بعمق، يستطيع أن يتعامل مع الصلصال، الذي يتشكل بهدوء وبطواعية كأنه سعيدٌ بمصيره، لا يحتاج إلى مطرقة وإزميل بل يطاوع الأيدي الفنانة التي تحسن مداعبته، هكذا قال لجبر قبل أسابيع، لقد سمعت حوارهما من غير قصد.

الصلصال يحبّ عيسى، دقة تصنيع التمثال تؤكّد ذلك، تمثال يجسّد امرأة فلسطينية بثوبها الداكن، ذي النقوش المهترئة، الثوبُ طويلٌ ، لكنّه لا يخفي قدميها الحافيتين، التقرحات والجروح واضحة فيهما، بضعة حجار تدوسها بقدميها. إلى جانب قدمها اليسرى حمامة مسجّاة وقد دُقّ عنقها، التي تظهر ملويّة نحو جسدها، والجناحان مكسوران. المرأة الفلسطينية تتقلّد سلاسل حديدية تحني ظهرها المتعب، أثار الغضب والنصب في وجه المرأة، ضفيرتا شعرها تبرزان من تحت غطاء رأسها الطويل، تقبض في يدها اليمنى على حجر كبير، تقبض عليه بقوة تبرز عروق يدها الدامية التي تنزف بشدّة، في كفّ يدها اليسرى تحتضن كفّ طفلها

الصغير، تعبيرات وجهه غير ظاهرة، لأنَ رأسه مائل إلى أسفل وهو يلتقط حجـــراً من الأرض تماماً من جانب الحمامة المقتولة.

ياله من تمثال مدهش ! لا زال يحتاج إلى بعض العمل، لكن الـــروح تـــسكنه من الآن، لن استغرب إن طفقت المرأة وابنها يتحركان هنـــا وهنـــاك، ويـــشرعان يرجمان حجارتهما في وجه العدوّ وفي وجه ذلك الصمت العربي.

يعود عيسى وهو يحمل غطاءً بلاستيكياً كبيراً، يغطـــي تمثالـــه باهتمـــام، وبقطعة قماشٍ مبللة يمسح ما حوله، فهو يخشى أن يمسّ التمثـــال أيّ كميـــة مـــن الجبص الذي يستعمله الطلبة في بعض أعمالهم الفنية، فالكثافة النوعية للجبص أكبر من الكثافة النوعية للصلصال، وإذا اختلط الجبص بالصلصال ، فـــإنّ تمـــدّد الأول أكثر من الثاني عند تعريضهما إلى حرارة الفرن الحراري، فيكون مصير القطعـــة الفنية أن تتهشم بسبب هذا الفرق في الكثافة النوعية للمواد المـــشكّلة لـــه والمـــواد الدخيلة عليه.

يعود ويتأكد من ضبط حرارة المرسم من ميزان الحرارة الخـــاص بمكيّـــف الصالة، فهذا التمثال وغيره من الأعمال الصلصالية يحتاج إلـــى درجـــة حـــرارة منخفضة ما دام لم يتعرّض إلى عملية الشيّ في الفرن الحراري . يكشف عن جزء من تمثاله يطالعه، ثم يعود إلى الداخل، ليختفي هناك مرة أخرى.

الأفران هي كلَ ما في المكان ، الآن هي بـــاردة كـــالثلج، كلمـــا تـــذكرت حرارتها شعرت بخوف شديد، أتحسّس باب الفرن، هناك ألمح عيسى، يحـــدّق بـــي بنظرات متوقّعة حضوري، أتوقع أن يخطو خطوة أو خطوتين نحوي، لكنّه لا يفعل بل يلزم مكانه، أنتظر كلماته، لا بد أنَه سيقول شيئاً، لكنّه لا يفعل، لماذا أتيتُ هنا ؟ أشعر بالإحراج ، أقول له بتلعثم :- قلقتُ لأنّكَ تأخّرتَ في الداخل ، لذا أحببتُ أن أتأكدَ من ...

يقاطعني ، ويقول بنبرة واثقة :- أنا أعشقكِ .. تزوجيني ... تزوجيني الليلة، وغداً نعود إلى فلسطين، سننجب عشرة أبناء، سنربّيهم على حب الوطن، سنقدمهم للوطن، ستحبّكِ أمي وسأحبّكِ دائماً.

أتأمّل وجهه بقلقٍ، أكاد أسأله إن كان يمازحني، قسماته تقول إنّه جادٌ في كلّ كلمة يقولها، يبدو مرتاحاً؛ لأنّه قال كلماته التي يبدو أنّه كررها في قلبه مراراً، عزمه يعجبني، خطته رائعة، تحتاج الأمة إلى آلاف الخطط المشابهة لها، لو قابلته في ظروف أخرى لأسعدني أن أنفّذها معه، امرأة بمثل جنوني وطموحي ستستهويها مثل هذه الخطة، أمّا الآن فقدري أقوى مني، أنا لا أريد عشرة أبناء، أنا أريد أحلام، أريدها من صلب حبيبي، أريدها تشبهه تماماً، أريدها تحمل سحره وعطفه وتحمل كلّ عشقي.

عيناه تنتظر إجابتي، تنتظرها لتحلّق بها :- لا أستطيع ...

- أنا أعشقكِ.

- لا أستطيع.

- تحبينه إذن ؟

أصمتُ، أراقبُ أوعية عينيه، تتسع ويتدفق الاحمرار فيها بشدة، يدنو مني خطوتين، يهزّ رأسه ، ويكرّر بحرج :- تحبينَه إذن ؟ ... هو لا يستحق حبّكِ، لا تدعي سحر عينيه يخدعكِ، تاريخ عشقه طويل، النساء يدخلنَ تاريخه فقط كي يقيدن أسماءهنّ فيه، إيّاكِ أن تصدّقي وطنيته المزعومة، وطنيّته تبخّرت منذ أول ليلة أُعتقل فيها، صدقيني، عودي معي إلى الوطن ، واحذفيه من تاريخ حياتك ...

- لا أستطيع .

- أنا أعشقكِ.

كلماته تزعجني، أتمنّى أن ألكمه، كيف يفكر في امتلاكي ؟ أنا ملكٌ لمن أحب، ومن أحب ملكٌ لي، لن أسامحه على اعتدائه على حق من أحبّ في إخلاصي، وطنيته لا

أعرف عنها شيئاً، السجن لا أعرف عنه شيئاً، لكنني أعشقه ، وأعرف عن عــشقه كلّ شيء.

– أنا أعشقكِ ...

– أنا أعشقه ...

كلماتي تسقط كالنار يُصبّ على رأسه، يشتاط غضباً، يدنو مني خطــوتين، يــوزّع نظراته بيني وبين الفرن، للحظة شعرت بأنّه سيدفع بي إلى داخل الفــرن ليحــولني في دقائق إلى غبار، كلّ ما أحتاجه هو دقائق حتى أتبخّر داخــل هــذا الفــرن، لا يهمني ليدفعني إلى الموت، لا أبالي به وأنا أحمل عشقي معي، أكرر كلماتي :– أنا أعشقهُ.

– عاهرة !!

هل قال لي عاهرة ؟ نعم قالها، أيصوّر حبي لكَ بالعهر ؟ ألا يعنــي العهــر مئــات العلاقات ومئات الرجال ؟ ألا يعني جسداً لكلّ من يدفع له ؟ أنعتنــي بالعــاهرة ؟! غبي، هو لا يعرف شيئاً عن ذلك العشق الروحي الذي يدوم إلى الأبد، يطوف حول الجسد، ويسكنه لكنّه لا يدنّسه أبداً، هذا العشق يعرفه فقط من انتظره دهراً كــاملاً، عشقي هو الدنيا بأكملها، وبعده لا أبالي.

أشعر بهدير من الدموع يجتاحني، أتمالكُ نفسي، لا يمكن أن أسمح له برؤية دموعي، أنا أؤمن بأنّ المرأة لا تبكي إلا أمام من تحبّ، وهو ليس من أحــبّ، لــن أهبه شيئاً من دموعي، أحدّق في لحيته، عيناه تقول : إنّها رأت اتهاماً فــي عينــيّ. يضطرب، بعض شعيرات لحيته تهتــزّ بسرعة، يكاد يقول شــيئاً، ولكننــي أتبــرّم بشكل خاص، أخطو خطوة إلى الخارج، أشعر بكبرياء غريب يسكن ذاتي، لا تغادر أذنيّ كلمته الجليلة !! أشعر بأنّها شهادة شاذة بأنّني عاشقة لكَ، أبداً لــكَ، إن كــان عشقي لا يؤكّد إلا بمثل هذه الشهادات الشاذة فليكن، في ســبيل حبّــكَ أســتطيع أن

أقامر بحياتي، ولا أبالي إن خسرتها. أصعد الدرج سريعاً، لا أسمع صوت خطواته، لا بد أنهّ يشيعني بعينيه من دون حراك ! قال لي عاهرة أليس كذلك ؟ غبي ...

البارحة حدث كلّ هذا، الآن لا أجد فضيله، ولا أجده كذلك، تبحث عيناي عنه، توقعت أن أسمعه يعتذر لي، لكن كيف سيعتذر لي وهو غير موجود ؟
حتى وإن كان موجوداً لا يعنيني اعتذاره؛ لأنّه غبي، ما يعنيني هو تمثالي الوليد، عملتُ به لساعة، أعجبني هدوء المرسم هذا اليوم، لكن ما سبب غياب معظم من أعرف، يحدّثني قلبي عن حدوث مكروه، المهم أنهّ حديثٌ بعيدٌ عنكَ، إن كنتَ في خير، فالدنيا كلّها في خير.

عاد الوقت ببطء كعادته، انتظرتُ هذا الصباح لأقابلكَ ليس مثل عاشقة، بل مثل إنسانة تناشد إنسانيتك، أردت أن أقول لك : أحتاج إلى مساعدتك، حتى وأنت في خير ، فهناك كثيرٌ من البشر يجب أن يعنيني أمرهم.
أثق تماماً في أنك ستقدّم المساعدة ، بل ستقدّم أكثر مما هو متوقع منكَ، أعرف أنّكَ تملكُ نفساً قادرة على العطاء وبسعادة.

طوال الطريق استعدتُ ما حدث البارحة، حدّثت السنديان عن عيسى فأجابتني : إنّها تعرفه، وتعرف كم يحبّ وطنه، هي كذلك تحب الوطن، ولكنّها لا تحدث الريح بذلك؛ لأنّها تخشى السوط، الكلّ يخشى السوط، إلا عيسى لا يمكن أن يخشى السوط؛ لأنّه خُلق كي يُخشى، هكذا هم أصحاب الحق يُخشون ولا يخشون، أتذكر الآن نظرة عينيه، أراها تسخر من العدو، وتبزق في وجهه المشوّه بقرف، أتخيّل (كفيّته) الفلسطينية تتمزّق تحت ضربات السوط، أمّا كبرياء وإصرار عيسى فلا يتمزقان أبداً، بل يتجددان، كطائر الفنيق في النار ولا يحترق . أتعرف يا حبيبي

ما هو طائر الفنيق ؟ هو طائر مقدّس عبده الفنيقيون؛ عبـــدوه لأنّـــه رمـــز للحيـــاة والتجدّد، كلما قهره الزمان أحرق نفسه ، فجدّد بذلك حياته، وعاد إلى قوته وشبابه.

نورما ومجموعة من الأصدقاء ذهبوا ليجدوا العون لعيسى، أنّا قادمة نحوك لتكون في عونه أيضاً، صدّقني إنَني غفرت له كلمته، أظنّه قد غفر لي عدم حبـــي؛ لأنّه يملك في قلبه حباً عظيماً , حبّ الوطن سيعوضه عني، لو كانتْ نورمـــا معـــي لرأيت هدوءها يتحول إلى نيران من الغضب، مأساة الـــشعب الفلـــسطيني تحـــاكي مأساة شعبها، لا تنفعل إلا عندما تتكلم عن الشعب الأرمني، وما لحق به من إبـــادة بشعة على يد الأتراك، تحفظ تاريخ شعبها بطريقة تشبه التقديس.

عام ١٩١٤ تاريخ محفور في ذاكرة الوجدان الأرمني وفي وجدان نورمـــا، هذا اليوم هو تاريخ مذبحة بشعة ضاع ضحيتها آلاف الأرمن في مذبحـــة جماعيـــة أُعدّت لهم في وطنهم، تؤمن بقضية شعبها، تقدّس تاريخه وتراثه، ترطن من وقـــت إلى آخر بكلماتٍ من لغتها التي درستها قراءة وكتابة في طفولتها، لا تنوي أبـــداً أن تنسى ماضيها، تكرّر دون ملل نفس الجمل، ونفس الأحداث، التي بتُّ أحفظها. مـــا أجمل وطنيتها المخلصة لقضيتها أبداً ! كلّما حدّثتْ أمّها بالهاتف برطنهـــا العـــذب، استعدتُ في ذهني قصة شعبها، قصة حزينة تشبه كلّ قصص الشعوب المـــستعبدة، عندما يتعلّق الأمر بالشعوب المستضعفة فإنّها أوّل من يغـــضب، وأوّل مـــن يقـــدّم الدعم، وطنيتها لها حسّ قوي يشبه حسّ عيسى، لأوّل مرة أراها متحمّسة لـــه، بـــل لقضيته، بعد أن قررّت الانضمام إلى الاعتصام الذي يدعو له اتحاد الطلبة احتجاجاً على اعتقال بعض الطلبة لأسباب سياسية غير معروفة، ومنهم عيسى، أنا سأنـــضمّ إلى هذا الاعتصام لكن بعد أن أراكَ.

رائحة القهوة أوّل ما يستقبلني في أوّل الردهة، أسمع صوتكَ تتكلم، بل تقرأ الشعر، تقول بنبرتكَ المتهدّلة.

فراشة قالت لأختٍ لها : ما أبهج الكونَ وما أسنى !
لكنّني يا أخت في حيرةٍ من أمره سرعانَ ما يفنى !!
رفيقــة العمر لنا يومنا فلنجنِ من نعمــاه ما يُجنى
لا تسألي عن غدنا ربّما أيقظتِ من أشباحه الوسنى

أكاد أدلف إلى مرسمكَ ، وأقول لكَ:- الله ما أجمل الكون معكَ، ولكنّه سرعان مــا يفنى!

لكن صوتها يتعالى، تقول بنبرتها المصطنعة :- يا لها من فراشة حمقاء ! لا تدرك حقيقة الأعمار.

شرف كم أنتِ جاهلة ! كدتُ أغضب من وجودكِ، لكن فكركِ الضحل هــو أكبر عقاب لمن أحبّ، عاقبيه أكثر، ودعي لغة الفراش لقلــوب تعــرف العــشق، وتعرف قيمة الحياة. لا تبدين سعيدة بحضوري، أجلس دون دعوة، تبدو مرتبكاً، لِمَ ذلك يا حبيبي ؟ ألأني طلبت منكَ الحديث على انفراد؟ لا بأس هي تبدو وقحــة ولا تفهم مغزى ما أريد، أحدّق بها وهي تشرب القهوة بتــؤدة مقــصودة، أتحــاول أن تغيظني بسلوكها ؟ أراقب يديها ترقّصان فنجان القهوة، وتنــزلانه بيد ثابتة، كيــف تستطيع يداها أن تملكا هذا الثبات وهي معكَ ؟ لم أشرب القهوة معــكَ ولــو لمــرة واحدة، دون أن ترتجف يداي ، وتسكبان مما تحملان علــى ملابــسي، لا يحتمــل جسدي فرحة لقائكَ، كلّ عضو به يعبّر عن رعشة سعادته ونشوته، حتــى الآن لا زلتُ أملكُ تلك الرّعشة في كلَ جسدي، أنتَ فقط من كان يلاحــظ هــذه الرعــشة، ويعرف تماماً سببها ؛ لأنّها تخصكَ أنت بالذات.

متى قصصتِ شعركِ ؟ لِمَ هو قصير إلى هذا الحد ؟ أتوق لتأمّل جسدكِ من دون أن يستر شعركِ بعضاً منه. تغادرُ بعد أن تطلبَ منها المغادرة، تبدو ممتعــضة لذلك، أحدّق في ردفيها، أتراها تعلم أنهما كبيران إلى درجة التغوّل ؟ كيف تستطيع أن تحملهما ؟ ألا يثقلان عليها ؟

– يبدو أنّها تحتاج إلى مساعدتي في بعض الأمور. تقول لي.

– حقاً !؟ في ما ؟

– دعينا من الحديث عنها، وقولي لي كيف حالكِ ؟ وجهكِ ما زال متعباً.

– أحتاج إلى مساعدتكَ.

– تحتاجين إلى مساعدتي !

– هناك من يحتاج إلى مساعدتك ؟

– من ؟

– عيسى ... يحتاج إلى مساعدتنا جميعاً.

– عيسى العرب ؟ ما باله.

– البارحة قُبض عليه، المخابرات تقول إنّ له نشاطات سياسية تخريبية.

– وهل له حقاً مثل هذه النشاطات ؟

– بالتأكيد لا، كلّ ما فعله هو كتابة مقالة في الصحيفة اليومية، يطالب فيها بتحريــر المواطن العربي من قيوده ليستطيع أن يقوم بواجبه في الدفاع عن الأراضي العربية المحتلة.

– فسجنته الدولة لذلك، وَعُدَّ مخرباً، وطويل لسان.

– بالضبط .

– ولا بد أن الدولة ستقطع لسانه.

– لن نسمح لها بذلك.

– من أنتم ؟

– جميع الأصدقاء، أنا، الطلبة، أنتَ ...

– لم أفهم، ما هو المطلوب مني ؟

– الدولة سترّحله إلى فلسطين، وتحرمه من منحته، المحامي يقول إنهّ قد يجد له مخرجاً إذا وجدنا له كفيلاً مناسباً.

– ليكفله أصدقاؤه.

– رئيس المخابرات اشترط أحداً من الأكاديمية، أكاديمياً أو إدارياً لكي يكون عمله كفيلاً لكليهما.

– والمطلوب ؟

– واضح، يجب أن تكفلهُ، كفالتك ستكون مقبولة، وقريباً سينهي دراسته، ويغادر البلاد إلى بلد عربي أكثر حريّة وأكثر ولاءً لقضيته، كلّ الشعوب العربية تُضرب بالسوط ، وتصمت ثم تصمت ، وتنسى قضيتها.

– المهم، قال الطلبة : إنّهم سيبحثون عن شخص يتطوع بكفالة عيسى، قلت لهم لا داعي لذلك، أنتَ ستفعل ذلك.

– هل يعلم الكلّ أنك ستطلبين مني ذلك ؟

– نعم.

– هل يعرفون أنك تطلبين ذلك مني الآن ؟

– نعم.

– مجنونة، من هذا الذي تريدين أن أكفله، أنا رجل حياته مستقرة، لا أريد أيّة مشاكل.

– لا مشكلة في ذلك.

– أرجوك لا تعاودي الحديث في هذا الموضوع ، وعذراً أحبّ أن تقلّلي من زياراتك لي في الأيام القادمة، لا أريد أيّة مشاكل مع أحد ، أتفهمين ؟

– لكنّك كنتَ في مكانه في يومٍ من الأيام، وتعرف أنّه في حاجة الى مساعدتك.

– من قال لك ذلك ؟

– لا يهم من قال، المهم أنكّ تتخاذل بدون سبب.

– لن أغفر لكِ تجسّسكِ على حياتي، أنا عانيتُ كثيراً، ولا أريد المزيد من المعاناة؟ أنا لم أكن بطلاً سياسياً كما نعتني البعض ، وكما ظننتُ نفسي بل كنتُ غبياً قُدّم مجاناً ككبش فداء، لن أسمح لكِ بالذهاب إلى جهنم، ولن أسمح لك بتدمير مستقبلي الذي بنيته طوال سنين، لقد بنيتُ نفسي من الصفر، رجلٌ آخر لو كان في مثل ظروفي لكان الآن مجرد حرّاث، ولما كُتب له أن يكون في موقعي.

– لا أصدق ما تقول.

– ولكن تصدقين جنونكِ وانفعالاتكِ الطفولية، يجب أن يمسكَ أحدنا بزمام الأمور، وأنا من سيقوم بذلك.

– في الفترة القادمة ...

– في الفترة القادمة سألقي على عاتقكِ مهمة إبعاد أيّ إصبع يوجه نحوي بالاتهام، وعيسى انسِ أمره تماماً، ولا تتدخلي في أيّ شأن من شؤونه.

– وإن لم أفعل ؟

– أنتِ وشأنك، ولكن لا تورطيني معكِ، اجعليني بعيداً عن المشاكل، أفضل أن تفكري بهدوء، وحتى ذلك الوقت أرجو أن نقلّل من لقاءاتنا على الأقل هنا في المتحف.

– لا أصدق أُذنيّ ؟

– أنتِ لم تخبري الحياة، كما خبرتها، الحياة لئيمة وقاسية تعطي القليل، لذلك يجب أن يتمسّكَ الإنسان بهذا القليل.

– وأنا ؟

– أنتِ حبيبة قلبي، ومن تحبني يجب أن تحميني، ومكانك في قلبي محفوظ.

– لم أسألك عن مكاني ؟ بل سألت عن رأيي بكَ، ألا يهمُكَ ؟

– أيّ رأي تعنين ؟ أنا أعرف رأيكِ بي ؟

– لا .. لا تعرف، الحقيقة أنا أيضاً لم أكن أعرفه قبل الآن.

– تعرفين ماذا ؟

أحدّق طويلاً في قسماتكَ، متى أصبح فمكَ متسعاً إلى هذا الحد، شـــعركَ لا يتماوج كما شعر (هيليوس) بل كما شعرٍ يتهيأ لبروز قرون شيطان من تحتـــه، أنـــا أخشاكَ، أرمقكَ بغضب يساوي حبكَ لي :- أعرف أنّكَ جبان ...

لا أرى في عينيكَ دهشة، ولكن أرى غضباً فقط، أحقاً أنـــتَ جبـــان؟ هـــل الجبن عيبكَ الوحيد أمام جميع حسناتكَ؟ أم أنّ كرم نفسكَ معي يحمل نقيـــضه مـــع الناس، أي أنّ كرمكَ يحمل نقيضه تماماً، الشيء يحمل نقيضه هذه فلسفتي العتيـــدة، اللعنة على فلسفتي.

لا أرغب في أن أراكَ، لأول مرة أرغب في أن لا أراكَ، أســـتجمع ذاتـــي، لأغادر مرسمكَ، صمتكَ يقول : إنّك غاضب إلى درجة كدتَ تطلب معها أن أغادر مرسمكَ، لا أعرف أيّهما يؤلم أكثر أن تجرحي حبيبكِ، أم أن تكتشفي أنكِ تعـــشقين رجلاً لا يستطيع إلا أن يكون جباناً ! أقسم أنّ كليهما مؤلم.

(١٦)

لو أنّ هذه السجون تحوّل إلى مستشفيات مجانيّة لأصبحتْ شعوبنا من أكثر الشعوب تمتّعاً بالصحة، لو أنّ معتقلات الأحرار أصبحتْ سجوناً إصلاحيّة للمجرمين تهذّبهم وتعدّهم أفراداً محبّين للوطن لانعدم الخوف في بلادنا، لو أنّ هذا العدد الغفير من العسكريين وُجّهَ إلى ساحة القتال بدل مطاردة الكلمة وسحق الصيحة لحررتْ بلاد العرب والمسلمين منذ أكثر من نصف قرن.

أمّا ذلك الضابط ببذلته الداكنة، وعينيه الغائرتين، وأنفه المعكوف كالصقر ينقضّ على فريسة ضعيفة، فلا أجد له مسوّغاً للوجود على قيد الحياة، وأظنّ أنّ من يعيش مثل حياته، ويحمل فكراً مثل فكره ليس على قيد الحياة، سخرتُ في ذاتي من كلمة (فكر) لا أظنّه يحمل أيّ فكر أصلاً، بل هو مجرد آلة بشرية مسيّسة من قِبل أيدٍ متنفّذة ليكون سوطاً يجلد نفسه وأبناء شعبه دون أن يشعر بوخز ضميره .

هل له عائلة وزوجة وأبناء ؟ عندما يكون بينهم أيّ القصص ينسجها ليضلّل أفكارهم حوله ؟ أيقول لهم إنّه يحارب المجرمين ويقضي عليهم ؟ أيفخر أطفاله به؟ أيتمنّون أن يلبسوا مثل بذلته، ويحملوا مثل سوطه ؟ لعلّهم لا يعرفون أنّ سوط أبيهم لا يشبع من لحم الأبرياء ودم الأحرار.

منذ متى لم يعُد هذا الضابط إلى بيته ؟ لعلّه منذ عدّة أيام لم يرَ أبناءه، بالتحديد منذ اندلاع اعتصامات اتحاد الطلبة، لا بدّ أنّه كان مشغولاً بتصيّد الطلبة،والزّج بهم خلف القضبان بتهمة الشغب أو التخريب.

رائحة تعرّقه منتنة، لا بدّ أنّ الماء لم يقارب جسده منذ أيام، يحاول أن يتصنّع الذوق ، لكنّه يخفق، من أوّل مظاهر الذوق أن يدعو الحاضرين للجلوس، لكنّه لا يفعل، بل يجلس على مقعده الجلديّ المنجّد، لا بدّ أنّ ثمنه كبير، يعقد يديه

المشعوعرتين أمامه على الطاولة، يحاضر بنا كالمعاقبين، نحن زائــرون ، ولــسنا معتقلين، يبدو أنّ الأمور سواء عنده، فالزائر يمكن أن يصبح بإشارة منــه معــتقلاً جديداً.

يوزّع نظراته أثناء حديثه بيننا نحن الطلبة الواقفين أمامه، وبــين الأســتاذ مشعل الخضرا الوحيد الجالس بعد أن دعاه لذلك، يؤكّد لنا أنّ الاعتقــالات كانــتْ محدودة ومُبرّرة لبعض الأشخاص، ينفي ما تناقلته بعض الصحف عــن اســتمرار حملة الاعتقالات في صفوف الطلبة، يؤكّد وطنيّة هذا البلد مثله مثل وطنيّة أيّ بلــد عربيّ آخر ، والجميع يحمل على عاتقه شرف التحرير المنتظر.

يدعونا إلى تناول الشاي الذي يقدّمه لنا أحد الجنود في أكــواب بلاســتيكيّة على صينيّة نحاسيّة قديمة، رائحة النعناع تفوح بشدّة، أمّا طعــم الــشاي فــرديء، رديء جداً، أراقب ذلك الجنديّ، ما زال شاباً يافعاً، بل صبيّاً كبيراً، علامــاتٌ مــن التأثر الخاص تسكن مُحيّاه، يقدّم الشاي باضطراب واضح، يزداد توتّره عندما يقدّم الأكواب للطالبات.

لا بدّ أنّه لم يعرف من الدّنيا شيئاً سوى بيته ومعسكر التدريب وهذا المكــان المقيت، في هذا المكان سيبقى لا يعرف شيئاً حتى الأبد، هكــذا هــو قــدره أن لا يعرف شيئاً، فقط ينفّذ ما دُرّب من أجله.

يعود صوت الضابط الحادّ بطريقة مزعجة يملأ المكان، ويؤكّد حرصــهم، من هم ؟ لا أعلم ! على أبناء الوطن، يقول إنّ حبّهم كبيــر ؟! وأنّهــم مــسخّرون لحماية الشباب من تلك العناصر الفاسدة والمخرّبة، كلماته تبدو صادقة لمن يسمعها دون أن يراقب حركة يديه اللّتين تعصران بعضهما البعض بغيظٍ واضح.
كلما علا صوت الضابط دفع برأسه إلى الأمام، أنفه المعكوف يظهر بشكل واضح، عيناه صغيرتان، كيف تُراه يرى بهما ؟

أكاد أبتسم، أتذكر جدّتي، وأتذكر قصّتها عن ليلى الحمراء والذّئب، أتخيّل الضابط الذئب سينقضّ في أيّة لحظة على نورما ، ويفترسها بلا رحمة، ثوبها القصير يناسب نظراته تماماً، لا ينفكّ يطالع لحم ساقيها من وقتٍ إلى آخر، ثم يعود ليحدّث الجميع عن الأشراف والأحرار ، ولكن من وجهة نظره !

أراقب الأستاذ مشعل الخضرا، لأوّل مرة أرى وجهه متورّداً بحمرة الغضب إلى هذا الحد، أرغب في أن أنحني على يديه بالتقبيل لعشرات المرات، كنّا نسميه (السيّد دودة)، نسخر من قصره المفرط وكرشه المتكوّر بشموخ أمامه، نظّاراته ذات العدسات الغليظة والإطار الأسود جعلتْ البعض يسميه دودة، لمَ دودة؟ لا أعرف، أنا أكره الألقاب التي تسخر من شكل الإنسان وتكوينه الخارجيّ ؛ لأنّها أمورٌ قدرية ، لا اختيار لنا فيها، ولكن هذا لم يمنعني من أن أناديه أسوة بمن حولي (بالسيد دودة) أمّا الآن فالكلّ يجلّه، وينحني خجلاً أمام نظراته ، ويردّد باحترامٍ اسم الأستاذ مشعل. دائماً كان صامتاً وبعيداً عن فعاليّات تخصّصه، كنّا نظنّه ممن يؤمنون بمقولة العواجيز (الحيط الحيط ويا رب الستّر)، أمّا الآن وبعد أن كان أوّل المعتصمين، وبعد أن أقدم بنفسه على تكفّل كثير من الطلبة وعلى رأسهم عيسى بضمان عمله، بتنا جميعاً نعلمُ إنّه من ذلك النوع الذي لا يجيد الجعجعة والشّعارات، ولكنّه من النوع الذي إن قال فعلْ، وإن صمتَ تدبّر.

أتخيّل قامة مشعل القصيرة تتمدّد لتصبح بقدر قامتكَ تماماً، وجهه يستدير ليصبح بمثل استدارة وجهكَ، عيناه تتّسعان لتصبحا بمثل اتساع عينيكَ، فمه يتماوج ليصبحَ مثل شفتيكَ ، وبمثل انتظام أسنانكَ، شعره ينبت بعبث لذيذ ليصبح مثل شعركَ، وجهكَ يبتسم لي، يحدّق بي بكبرياء، يُشعرني بفخر، أجيل نظراتي في وجه من حولي أقول لهم باعتزاز: هذا حبّي، هو شهم دائماً، مؤمن بكلّ ما يقول، انظروا

إنّه يتكفّل الجميع، ألم أقل لكم إنّه شجاع بشكل خـــاص، لـــذلك أحبّـــه، لكـــم أن لا تلوموني في حبّه بعد الآن.

سريعاً ما يتبدّد وجهكَ، وتبقى صورة مشعل، أراقب نظراته الهادئة، يحدّق بشكل غريب بالضابط وهو يتكلّم، لا يصدر أيّ إيماءة تدلّ على أنهّ يسمع ما يُقـــال، بل يكتفي بتجرّع قدح الشاي ببرود غريب واستخفاف واضح، يضع قـــدح الـــشاي جانباً، ينتصب واقفاً بقامته القصيرة، يصافح الضابط ويشكره، يشير إلينا بالخروج، نستجيبُ له متقزّزين ممّا حولنا، يؤكّد الضابط أنّنا سنجد الشباب المُفرج عنهم بكفالة الأستاذ مشعل الخضرا في انتظارنا في الخارج أمام مكتب الإفراجات والكفالات.

يتقدّم الأستاذ مشعل الطلبة نحو الخارج، نظرات الـــضابط تـــشيّع ســـاقيّ نورما، أكاد ألمح لعابه يتنـــزّى من بين شفتيه، ليته يستطيع أن يقرأ العيـــون بـــدل متابعة السيقان لرأى في عينيّ نظرة اشمئزاز قادرة على قتله . ذلك الجنديّ اليـــافع الذي قدّم لنا الشاي قبل قليل، يلمح نظراتـــي، لا أظنّـــه يـــستطيع أن يفـــكّ معنـــى رموزها، على الرغم من ذلك التأثّر الذي يعلو محيّاه ، ولا أعرف معناه.

عشرات الحكايا وآلاف الكلمات سكنتْ الدقائق الأولى بعد أن قابلنا عيـــسى والآخرين أمام بوّابة السجن، التعب والذلّ يتكلمان بطلاقة في وجوه المجموعة وإن اكتفوا ببعض الملاحظات والسِباب البذيئة ...
قال أحدهم وهو يتحسّس رقبته ويضحك : أولاد الزانية، والله كأنّهم يهود. ضـــحك الجميع، حتى عيسى ضحك بحرارة، صافحنا جميعاً، وابتسم لي بعذوبة، لم يـــشكر أيّاً منّا على المساعدة كما فعل معظم من كان معه، إنّما أكّد أنّ الكثير مـــن الطّلبـــة وغير الطّلبة ما زال في الداخل ، ثم حدّق في وجوه من معه ، وجهه يخلو مـــن أيّ

معنى للامتنان، له الحق في ذلك ، فما فعلناه من أجله أقل من واجبنا، ما يفعله العرب لقضيّتهم الأولى أقل من واجبهم .
يستأذن ويتّجه بخطوات متثاقلة نحو الشارع الخلفي للسجن، أستطيع أن أخمّن أنّ الأيام الماضية لم تكن سهلة بل تركت الكثير على نفس وجسد عيسى.

طيفكَ يجلس بعيداً عنّي، يراقب كلماتي، عندما أشيح بوجهي عنه، أجده قد سبقني إلى الجهة الأخرى، لا أريد أن أراه، أنا غاضبة منه ؛ لأنّه طيفكَ أنتَ بالذّات، كلّما هممت بأن أدعوه إليّ تصورته جباناً يسير بحذر على أطراف أصابع قدميه، ويلتفت في كلّ الاتجاهات قبل أن يضمّني، أكرهه هكذا، أمقته على هذه الهيئة، لا أستطيع أن أحلّق برجلٍ خائف، أحتاج رجلاً هو أنتَ لكن دون مخاوف، رجلاً يحلّق نحو الشمس بجناحين ممتدين دون خوف، نحو شمس لا تخشى الظلام، الظلام لا يعرف نشوة النور، الشمس فقط تعرف معناها، وتعرف أنّ النّور قدر الظلام، قدر كلّ ظلام مهما طال.

ملامح طيفكَ مشوّهة بعض الشيء، كلّما حاولتَ أن تبتسم، شعّت ابتسامة عيسى من قسمات طيفكَ، تتكلّم نورما بحماسٍ شديدٍ عنه، تصفه لفضيله وأسرار، تصف كلماته وحركاته ومواقفه، تراجع معهما بحماس مجريات أحداث الأيام الثلاث الأخيرة، كلّما ذكّرتها أنّ كليهما لم تحضرا هذه الأيام، تجاهلتْ ملاحظتي، واستمرت تحدّثهما بحماسها الشديد، تستفزّ فضيله كعادتها، تطالبها بالاستماع لها بدل الاهتمام بأكل الفاكهة اللّذيذة التي أحضرتها أسرار معها من مستنبتها الجبلي.
تحاول فضيله أن تبدي الاهتمام المطلوب لكي ترضى نورما التي أعرف تماماً أنّها لن ترضى عن فضيله مهما فعلتُ.
تسألها فضيله بنبرتها الطفولية :- ما سبب تحمّسك الشديد لعيسى ؟ حتى أنّك لا تعرفينه إلا منذ أيّام؟

تجيبها نورما :- متحمّسة له بسبب اقتناعي التام بعدالة قضيّته.
فضيلة :- فقط ؟
أتدخّل في حوارهما، أغمز بعيني اليمنى كلاً من فضيله وأسرار ، وأقول بلكنة أرمنيّة غير سليمة، تلك الجملة التي لطالما كرّرتها نورما على مسمعي في أكثر من مناسبة حتى حفظتها .

تحدّق نورما باستنكار في وجهي ، وبنفسٍ فضولي واحد تقول فضيله وأسرار:- ما معنى ما قلت ؟
معناه : إنّه الحبّ يا عزيزي.
تحدّقان في وجه نورما، تقولان بصوت تمثيلي ضاحك :- هكذا إذن ! تبتسم نورما وتقول : مجنونات، ثلاثتكنّ مجنونات، أنا فعلاً متحمّسة لوطنيّة عيسى ولوطنيّة أمثاله لا أكثر، عندما أفكّر في الزواج فلن أفكّر إلا في رجل أرمني مسيحي، بل ومتديّن جداً، لن أفكّر بأيّ غريب، هكذا هم الأرمن يحبّون بعضهم ، وقد يحذرون الغرباء، هناك مَثَل أرمني يقول " فقير أرمني ولا غنيّ غريب " وأنا أؤمن تماماً بهذا المثل.
تقول أسرار بنبرة مشاكسة :- من قال لكِ تزوجيه ؟ نحن نقول أحبّيه.
أتذكّر عيسى، أتذكّر مخططه المجنون، هو يريد زوجة تهبه عشرة أبناء ليقدّمهم للوطن، وأنا أريد أحلام لا أحد غير أحلام. تقول نورما : مَن قال لكم إنّني سأتزوّج غير الذي أحبّه ؟ في بلادكم تطعمون الحب للنّار، تلعنونه، تُخفونه كأنّه خطيئة، تفخزون بأحقادكم وكرهكم، أمّا حبّكم فتخجلون منه ، فيخجل منكم، أمّا في بلادي فشعبي يقدّس الحب، يعلن انتظاره دون خجل، وعندما يأتي يستقبله بالطيب والزهور، قليلٌ هم من يتزوجون من دون حبّ، الحبّ محطّة أساسية في حياة الأرمن، حتى أنّ تقاليدهم توجب على العريس أن يحبّ عروسه ، ويخطفها من بيت

أهلها قبل زواجه منها؛ ليؤكّد لهم حبّه الشديد لها ، ورغبته الأكيدة في الزواج المقدّس منها.

ما أجمل الحبّ يُستقبل بالطيب والزهور ! ها قد بدأتْ نورما تحدّث أسرار عن تقاليد شعبها، قريباً ستحدّثها عن اختمارت تلكَ العاشقة المخذولة. أراقبُ فضيله من النافذة بعد أن استأذنتْ وخرجتْ، تستقبل كاظم، تحادثه أمام المنزل، أستطيع أن أخمّن دلال كلماتها من طريقة وقفتها، يهمس كاظم لها ببعض الكلمات، يلوّحان لي ثم يبتعدان. كم هي سعيدة بهذا الحب ! تقابل الحبّ بكل هدوء وتفهّم، لذا تسعد به من دون فلسفات أو آلام ، تقول لي بنبرتها الصادقة :- هو يحبّني بشدّة، أنا فقط أحبّه بصدق، لا أستطيع أن أحبّه بشكل أشدّ، أحبّه ، لكن لا أعشقه، العشق يحتاج إلى طاقة كبيرة وامرأة جبّارة، كلّ من عشقوا ضحّوا بكل سعادتهم ، أنا لا أريد التضحية، كلّ ما أريده هو حياة سعيدة معه إن أمكن، يقول لي : إنّه سيتزوجني حتى ولو لم يوافق أبي على ذلك.
أنا لا أستطيع أن أُغضب أبي، لا يمكن أن أخسر لأجله، ولا أستطيع أن أعيش في العراق بعيداً عن عائلتي، أنا لن أضحّي بعائلتي لأجل أيّ حبّ.

كلماتها تذكّرني دائماً بكَ ، أنتَ تعرف أنّ عشقي لكَ لا يعرف حداً يتوقّف عنده، لذا تؤمن أبداً بأنّني مستعدّة للتضحية من أجلكَ، لا بدّ أنّ هذه الثقة تشعركَ براحة وغبطة، أمّا أنا فتجعلني أعيش في ترقّب دائم وقلقٍ مستمر.

قلق يشبه قلقي وأنا أنتظر أن يتكلّم الضابط الذئب، ويفسّر لي سبب طلبه لي، طلبني مبكّراً، قال الجندي الذي أرسله في طلبي :- الأمر ملحّ.
طوال الطريق تساءلتُ عن سبب دعوته، لو أنّه طلب حضور نورما لخمّنتُ أنّه يختلق الأعذار ليسطو عليها بنظراته، أمّا أن يطلبني من دونها فهذا أمر لا أملك له

إلا تفسيراً واحداً، لا بدّ أنّه قد لمح نظراتي في ذلك اليوم، أفهم معناها ؟ لا أظنّ أنّه ممن يفهمون لغة العيون؛ لأنّه لو كان يفهم لغتها لانتحر منذ مدة طويلة، ولما كنــتُ الآن هنا أجلس إلى مكتبه، أنتظر قهوته لكي يبدأ كلامه.

ابتسم الضابط الذئب، أنهى مكالمته، قال لي : سمعتُ أنّكِ فنّانة ؟

أهي تهمة ؟ من يدري، أجبته :- نعم.

- هل تستطيعين أن ترسمي لي لوحة ؟

- لوحة عن ماذا ؟

- لوحة ترسميني فيها !

- لمَ لا تحصل على صورة فوتوغرافية ؟

- أملكُ الكثير منها، لكنّني أرغب في لوحة مرسومة باليد، أنا أقدّر الفن والفنانين.

أفضّل لو أنّه يلقي بي إلى جهنّم، بدل أن أقف قبالة أنفه، لأرسم وجهه الكريه، مــا زال ينتظر إجابتي، أقول له من دون مبالاة :- أنا لا أرسم إلا صوراً أوليّة لتماثيلي التي أنوي نحتها.

- إذن لن ترسميني ؟

- هل طلبتني من أجل أن أرسمكَ ؟

- في الحقيقة ليس أنا من طلبكِ.

- من طلبني إذن ؟

- طلبتكِ شرف الجميل، قالتْ إنّك ستكفلينها ؟

- أهي معتقلة عندكم ؟

- نعم ، لقد اعتقلناها في مظاهرة شغب البارحة، لقد عضّت أحد الجنود.

- هل أنا ملزمة بكفالتها ؟

- بالطبع لا، تستطيعين أن ترفضي ذلك، وتتركيها كــي تُقــدّم للمحاكمــة بتهمــة الشغب.

تعجبني الفكرة، تعجبني تماماً، أكاد أسأله إن كان يستطيع أن يرسلها إلى الجحيم بدل أن يرسلها إلى السجن ؟ لكن ألن يؤلمكَ يا حبيبي أن تلاقي شرف هذا المصير؟ لطالما أخبرتني بأنّك تشفق عليها، شيءٌ في عينيها يحاكي قلبكَ، حياتها تذكركَ بطفولتكَ، أحزانها تحاكي أحزانكَ، كيف تحاكيها ؟ لا أعلم ...

اللّعنة عليها، لماذا لم تطلب مساعدتكَ ؟ لا أظنّكَ كنتَ ستتخلّى عنها حتى ولو كلّفكَ الأمر عمركَ كلّه، عندما تحتاجكَ فأنتَ تلبّي دعوتها، أمّا عندما أحتاجكَ فتسارع إلى جحركَ خائفاً كما فئران السفينة، أفكّر في أن أتّصل بكَ ، وأدعوكَ لمساعدتها، هذا مناسبٌ أكثر.

صوت الضابط الذئب يقول بنبرة صادقة :- ماذا قلتِ يا آنسة، هل ترفضين كفالتها؟

- هل أستطيع أن أراها ؟

- لا بأس ، ولكن لدقائق ...

- فقط أحتاج إلى دقائق.

يطلبُ من أحد الجنود إحضارها، تتعالى دقات قلبي، أشعر بغضب شديد، كم أرغب في صفعها!! تدخل بمشيتها الغريبة، لأول مرة أراها من غير زينتها، هل رأيتها يا حبيبي من غير زينة، أنصحكَ بأن لا تفعل، لن يعجبكَ المنظر أبداً، سترتها قصيرة تُظهر جزءاً من بطنها، البنطال ضيّقٌ كالعادة، أتساءل بفضول أهذا مظهر فتاة تخرج في مظاهرة سياسية !؟ تداعب مخيّلتي بعض الأفكار الساخرة، أتخيّلها متوجهة إلى موعد مع نمر نصّار، تمرّ بالصدفة بالقرب من المظاهرة، يتحرّش بها أحد الجنود، تضربه ، فتُعتقل مع بعض المتظاهرين، وهكذا تصنع المقادير منها بطلة سياسيّة، فالمقادير تصيّر العيّ خطيباً، وتصيّر شرفاً بطلة وطنية. أبتسم لهذه الخيالات، ما أروع الخيالات ! هي متعة مدهشة لمن يجيدها، وأنا أجيدها.

لا بدّ أنّها ستحدّثكَ طويلاً عن هذا الاعتقال، ستجعلكَ تؤمن بعظمتها، سترسم نفسها بألوان زاهية، وستعشق كعادتكَ هذه الصورة، هي تجيد الكلام، تتفنّن في حمل الشعارات، هي وطنيّة وقدّيسة وشريفة عندما ترسم نفسها لكَ بكلماتها، وأنتَ طيّبٌ تسحركَ كلماتها، فتصدّقها؛ فقط لأنّها تجيد صنع الكلمات. أتمنّى لو أنّكَ كنتَ موجوداً لتشاهدها وهي تجادل الضابط الذئب، تؤكّد له أنّ جنوده قذرون، تقول إنّ أحدهم قد لمس صدرها قاصداً . يزجرها الضابط الذئب ، ولكنّها لا تصمت بل تقول :- سأفضحكم في الصحف، سأنشر كلماتكم البذيئة. يسألها الضابط مستغرباً:- أيّ الكلمات تعنين ؟

تجيبه :- لا أستطيع لفظ تلك الكلمات.

- ولمَ لا ؟

- حيائي يمنعني.

يطالعها الضابط الذئب بابتسامته الماكرة، ويقول لها : حقاً ؟! تصمّم على أن تكتب له تلك الكلمات لكي يعرفها، يوافقها وهو يغمز أحد جنوده، تكتبها على ورقة أمامه، يحدّق في الورقة، يعود لغمز الجندي، ما هي الكلمات التي كتبتها ؟ لا أعلم، ولكن أعجبُ متى أصبحتْ ذات حياء ؟ يسألها الضابط الذئب بنبرة غريبة : ما عملكِ ؟

- أنا أعمل في مجمّع تجاري.

يشيح الضابط الذئب بوجهه عنها ، ويسألني : هل ستكفلينها ؟ لا أجيبه، أهربُ نحو وجهها، متى أصبح نمشكِ بهذه الكثرة، ألم يشفَ بعضٌ منه ؟ ألا يفيده العلاج ؟ أعرف أنّكِ تعالجينه، عرفتُ ذلك بالصدفة، عرفته منكَ يا حبيبي، أنتَ من حجز لها في ذلك المركز العلاجيّ المشهور، بل أنتَ من دفع لها تكاليف العلاج ؟ يا لها من محظوظة ! يا لها من ذكيّة ! استطاعت في شهرٍ واحد أن تعرف كلّ مفاتيح ذاتكَ، استدرّتْ عطفكَ كما لم يستدرّه أحد، جعلت منكَ وصيّاً على نفسها وعلى صحّتها الملعونة.

تحدّق بي، تنتظر إجابتي، أسألها بقرفٍ واضح :- لماذا طلبتِ حضوري ؟
تجيبني بلهجتها الآمرة : كي تكفليننـي.
- كيف تثقينَ في أنّني سأكفلكِ، أنا لستُ صـــديقتكِ، أنـــتِ تعـــرفين جيـــداً حقيقـــة مشاعري نحوكِ.
- أنتِ لن تتخلي عنّي ، أليس كذلك ؟
- بل سأفعل.
طيفكَ يهمس لي بمساعدتها، يذكّرني بظروفها، يتعاطف بشكلٍ خاصٍ معها، يتوسّل إلي بمكانتكَ عندي كي أساعدها، أنا ضعيفة أمام طيفكَ تماماً كضعفي أمام عينيكَ.
يعود الضابط الذئب ، ويسألني :- هل ستكفلينها ؟
أسألها بحدّة : لماذا لم تتّصلي به ، وتطلبي منه أن يكفلكِ ؟
- لا داعي لازعاجه، لن يسعده القدوم إلى هنا.
- ولكنّه يسعدني، أليس كذلك ؟
- .....

أكرهها ؛ لأنّها تفهمكَ أفضل منّي، أنا أحاكي طيفكَ، وهي تحاكي حقيقتـــكَ، تهبني أحلاماً، وتهبها حقائق ووعود تتحقّق، هي تعرف أنّ هذا الوضع لن يُسعدكَ، تعرف أنّكَ جبان لا يُعتمدُ عليكَ، تعرفُ إجابتكَ دون سؤال، أمّا أنا فأرسمكَ فارســـاً فضيّاً يتقلّد عزمه وبأسه، ويمضي في وجه المجهول.
آه .. كم أنا طفلة غرّة ! أمّا هي فامرأة لئيمة تحسب خطواتها بـــشكل جيّـــد، تقـــرأ ذاتي، وتعرف أنّني حمقاء مستعدّة للمساعدة في أيّ لحظة، وستجيدُ استغلال ذلـــك ، لا، لن أدعها تقرأني بعد الآن، لن أكفلها، سأدعها تتعفّن في السجن .
- هل ستكفلينني أم لا ؟
- أنا أعرف أنّ عائلتك تسكن في بلدة بعيدة، ولكن لمَ لا يكفلكِ أحد معارفكِ ؟ هـــم كُثر، أليس كذلك ؟
- أرجوكِ لا تتخلي عنّي ؟

يا الله كم تجيدين التذلّل، تماماً كما تجيدين تمثيل أدوار الكرامة والبطولة أمام حبيبي.

– لا .. لن أكفلكِ.

يقول الضابط الذئب : ألن تكفلينها ؟

يُطالعني وجه عيسى، يُطالعني صوت مروة تقول بنبرتها الساخرة : الحياة مسرحٌ كبير . أفكر في هجرك يا من أحب ؛ لأنّكَ جبان، ترفض المساعدة، وها أنا أحاكي جبنكَ ، وأتخلّى عن إنسانة تحتاج لمساعدتي فقط ؛ لأنّ الغيرة الشديدة تسكن قلبي، يجب أن أشعر بالخزي من هذه المشاعر الوضيعة، جدير بالمحاولة أن أوظّف شيئاً من طاقتي في قهر مشاعر ضعفي الإنساني.

يسألني الضابط الذئب :– آنسة ، هل هذا قرارك النهائي ؟

– لا ، بل سأكفلها.

سارتْ إلى جانبي حتى البوّابة، حدّثتني كأنّها صديقة، سمعتها دون أيّ ردّ، نكاتها البذيئة أشدّ ما أثار حنقي، طلبتْ أن تكون صديقة لي.

تساءلت في قلبي : ألا يكفيكِ هو ؟ّ ما حاجتكِ إليّ ؟

لم أجبها، بل يممتُ نحو ناصية الشارع لأستقلّ سيارة أجرة، أوقفتني قائلة :– لقد أضعتُ نقودي في المظاهرة، وأحتاج إلى العودة إلى البيت.

أهذه طريقتك في استدرار عطف مَن أحبّ ؟

تناولتُ بعض الفكّة من محفظتي، طالعتني صورتكَ في محفظتي، ناولتها النقود، شكرتني ، وقالتْ : سأعيدها في أقرب وقت.

– لا داعيَ لذلك.

(١٧)

مروة تلكَ الروح المسكونة بفنّها، آمنتْ دائماً بي، كثيراً ما قالتْ لـــي : أنـــا واثقة من موهبتكِ، في يوم من الأيام ستنحتين تمثالاً رائعاً، إتقانه وإبـــداع صـــنعه سيبعثان الحياة فيه، في يوم من الأيام سأفخر بكِ ، وأقول لمن حولي : أنا أعرفهـــا، هي صديقتي .

ما أجمل كلماتها ! تدفعني دائماً إلى العمل، أمّا الآن فأنا أحتاج إلى كلماتكَ ، أحتاج إلى الحديث معكَ ، أحتاج إلى تأبّط ذراعكَ ، والسير طويلاً معكَ تحت المطـــر !! حاجات تبدو روتينية بالنسبة لباقي العشاق ، أمّا لي فهي حاجات كفيلـــة باســـتمرار حياتي.

تمرّ الأسابيع ثقيلة من دون لقائك، طيفكَ يواسيني، يربطني معكَ بنـــسيجٍ لا ينفصم، نسيج يجعلني أنسج لقياكَ ،وأنعم به، نسيج يجعل نبضكَ يسكن جسدي، ينقل لي كلّ خلجة من خلجات قلبكَ ،ويصوّر لي كل أحوال نفسكَ، ليتـــكَ تـــأتي، ليتنـــي ألقاكَ، ماذا سيحدث في الدنيا لو أنك خلقتَ أقل كبرياء، أو خُلقتُ أقل عناداً ؟

أنوي أن أغادر فراشي، لكن جسدي متعب، بتعـــب شـــهي، أتعلّـــل بكـــل الأسباب والعلل أمام من يسألني، أقول : إنّني أحتاج إلى النوم المبكّـــر، فقـــط كـــي ألقاكَ في أحلامي، كلما طال النوّم طال لقياكَ، ما زالـــتْ كلماتـــكَ البارحـــة تمـــلأ روحي، أتحسس شعري أهو مبعثر كما كان في أحلامي ؟ نعم هو مبعثر تماماً كمـــا بعثرته البارحة، إذن لا بدّ أنّ وجنتيّ متوهجتين من قبلاتكَ، كم ممن حولي يستطيع أن يخمّن سبب هذا التوهج ؟.

لا أستطيع التحرّكُ من فراشي ، أماّ مروة فتصمّم على أن يستيقظ الجميع ،

لكي يذهبوا مبكرين ، ويشاهدوا العرض التجريبي الأخير قبل عرض مسرحيتها ، طوال أشهر عملتْ في هذه المسرحية، هي من النوع غير المبالي في ما يحدث حوله، ولكن عندما يتعلق الأمر بالمسرح الذي تعشقه تصبح كلّ حواسها مجنّدة من أجل هذا الأمر، هي من أعدتّ هذه المسرحية بل وأخرجتها وستمثل دور البطلة فيها ،أماّ قصتّها فقد اقتبستها كاملة من كتاب الأساطير الذي أهديتني إيّاه . لا تنفكّ تحدّث الجميع عن أحداث المسرحية وعن أبطالها، من دون سابق إنذار تقلب أيّ موقف إلى مشهد من مشاهد مسرحيتها ، تأخذ بتمثيله أمام دهشة البعض وإعجاب الآخرين، أما أنا فأصفق لها دائماً، لها قدرة عجيبة على تقمّص الأشخاص والتنفس بنفسها، حتى أنّ أصواتهم تحلّ في حنجرتها للتكلم بها .

متوترة هي ، بدليل أنّها لم تبدأ بالتمثيل حتى الآن، ولكنها لا تنسى أن تختار أغنية الصباح ، صوت فيروز يصدح، تشدو بلوعة عاشقات الأرض :

علّموني هن علموني
على حبّك فتحولي عيوني
والتقينا .... وانحكى علينا
علموني حبّك ولاموني
عأيام الورد قلبي دايب
كيف كنا وكان العمر طايب
شو جرى شو غير الحبايب ؟
مرقوا على بالي وما حاكوني

صوتك يدندن بهذه الكلمات، يهمس بها في أذني، أسأله بلوعة عن قسوته : من أين له بهذه القسوة ؟

لا يجيب ،بل يستمر بهمسه في أذني .

أراقب مروة تذهب يميناً ويساراً، تلبس ثيابها سريعاً، تجمع شعرها خلف أذنيها، لينسدل على ظهرها، تراجع بصوت مرتفع جدول أعمالها، جدول عمل زاخر وطويل، تؤكّد أهمية حضوري ، تقول بصوتها المضطرب : لا تنسِ الساعة العاشرة مساءً، المسرح الأكاديمي. بطاقات الدعوة موجودة على طاولة المطبخ، لا تنسِ أن تذكّري نورما بالموعد .

– لن أنسى ،لا تخافي .

– هل ستحضرين العرض التجريبي الأخير ؟

– ربما ... لا أعلم .؟

– العرض في نفس المكان الساعة الخامسة مساءً .

وجهها شاحب، لا بد أنّها قلقة بشأن هذا اليوم . انتصب أمامها، تصمت كأنّها تنتظر كلماتي، أمسك يديها، أفركهما ، أقول لها : لا تخشي أيّ شيء ، ستقدمين عرضاً رائعاً ،أنا أؤمن بكِ . أنا محظوظة ،لأنّي قابلت إنسانة بمثل موهبتكِ ،تعلّمت الكثير منكِ، لن أنتظر الكثير حتى أراكِ نجمة مسرح مشهورة، بعد ساعات سيصبح اسمكِ علماً من أعلام المسرح العربي . ثقي بفنكِ .

– سأنتظركِ ...

– سأكون في الصّف الأول

تحدّق بي بدفءٍ غريب ، وتقول : لقد دعوته إلى العرض الأول، دعوته بنفسي، أكّد لي أنّه سيحضر .

أهزّ رأسي، أربت على كتفيها بامتنان خاص، تتجه نحو الباب، تخطو خطوة خارج العتبة، ثم تعود ، وتطلّ برأسها، وتقول بنبرته الساخرة : ماذا ستلبسين هذا المساء؟

– ....

– ليتكِ تلبسين ثوب سلفادور دالي، ستكونين ساحرة به، وستثيرين ثورة به .

– شقيّة ...

– موعدنا العاشرة مساءً

ثوب سلفادور دالي، أنتَ من أسماه بهذا الاسم الساخر، لا زلت أذكر ذلك اليوم، حضرتُ أنا ومروة وهدى وفضيله معرضاً يقيمه قسم الفنون يتضمّن لوحات رسمها الطلبة النابغون تقليداً للوحات عالمية، أثارتنا لوحة تحاكي لوحة أصيلة رسمها فنانٌ اسمه سلفادور دالي ، اللوحة كانتْ غريبة فعلاً، تجسّد امرأة بملامح جميلة وشعر شبه مصفف ترتدي ثوباً نسائياً عادياً، لكن هذا الثوب ينفتق بالقرب من صدرها، ينفتق على شكل صندوق مفتوح يظهر منه الثديان بشكل كامل، ضحكنا طويلاً أمام هذه اللوحة، تساءلنا ما المغزى من هذه اللوحة ؟ ماذا يعني ظهور الثديين بهذا الشكل ؟ لم نجد تفسيراً مقنعاً، ولكن ضحكاتنا تعالتْ إلى حد جعل معظم الزائرين ينظرون نحونا. عندما حدّثتك عن اللوحة وعن ظهور الثديين، ضحكتَ من ردة فعلنا المستغربة، ونعتّني بالطفولية . عندما عدتُ إلى بيت الضيافة في المساء، وجدتُ صندوقاً أبيضَ كبيراً في انتظاري، كتبتَ عليه : إلى آلهةَ القمر، إلى أرتميس، مع كلّ حبي ثوب سلفادور دالي .

أمام فضول صديقاتي، فتحتُ ذلك الصندوق المثير، ثوب أزرق ما كان فيه، ثوب قصير حتى الركب بوردة صغيرة على الخصر، وقبة واسعة، تساءلتُ : كيف سأرتدي ثوباً بمثل هذه القبة الواسعة ؟ أردتَ أن تعطيني شجاعة خاصة في اللباس تبعد عن نفسي تلك الدهشة الطفولية ؟ لعلكَ أردت ذلك .

أردتكَ أن تكون أوّل من يراه علي، لذا كنتُ أمام مرسمكَ منذ السابعة والنصف صباحاً، أدهشكَ جماله، قبّلتني ، وقلت بنبرتك الساخرة : ثوب سلفادور دالي إذن ...

أضحكتني تسميتك لهذا الثوب، كنتَ راضياً عن ثوبي وعن ما يظهره بصراحة من جسدي، سكبتُ القهوة كعادتي على الثوب؛ فأنا لا أملكُ إلاّ أن أرتعشَ أمامكَ . وقد اعتدتَ على هذه الرعشة، بل أحضرتَ أوراقاً معطرة خصيصاً لأمسح بها ما يتسخ

من ملابسي، بدل إزالة البقع بالماء واستعمال مجفف شعركَ الذي تحتفظ بـــه فـــي مرسمكَ لتجفيفها، انتابكَ غضب خاص وأنتَ تمسح تلكَ البقع عنه، وتلمـــح اتـــساع فتحة صدره قلت لي بنبرة حازمة : لا تلبسيه مرة أخرى .

- لماذا ؟ أنت من أحضره .

– لم أعرف أنه سيكشف عن صدرك إلى هذا الحد .

– ولكّنه جميل ،وأنا أحبّه .

– احتفظي به للذكرى، ولكن لا تلبسيه أبداً.

احتفظتُ به كما طلبت، وكلما سألتني الصديقات : لِمَ لا تلبسين ثوب سلفادور دالي؟ تذكّرتكَ، وابتسمتُ قائلة : ادّخره لمناسبة مميزة .

وأنا أجلس في الصف الأول قبالة خشبة المسرح تمامـــاً، تفقّـــدتُ باهتمـــام هندامي، ثوبي الأزرق مناسب ،ويرضيني بهذا الشكل، شعري مسدل كمـــا تحبّـــه، اتطيّب بعطرك المفضّل، بعطرخلاصة الياسمين، وكي لا أثير ضيقكَ ضيّقت فتحـــة الصدر باستعمال دبوس خاص .

منذ زمن لم أستعمل هذا الدبوس الذهبي الطلاء، هو على شكل شمس مشعّة، وجدتْه في السوق ،فاشتريته على الفور، لطالما أعجبكَ، كنتَ تقول دائماً : أين يجد المـــرء امرأة مثلك ؟ حتى هذا الدبوس المميز يبدو كأنّكِ نحتيه بيـــديكِ، وصـــنعتيه علـــى هواكِ، ليناسب طبعكِ الخاص وذوقكِ المميز .

عندما حدّثتكَ طويلاً عن أورفيوس ذلك الموسيقي الأسطوري، الذي عـــشق موسيقاه بقدر عشقه لزوجته (يوريديس)، وعندما سرقها الموت، لم ييأس، بل لحـــق بها إلى مملكة الموت، واستطاع بموسيقاه الحزينة أن يقنع (هـــاديس) إلـــه المـــوت والحياة السُفلى أن يعيدها إليه، لكنّ إله الموت اشترط عليه أن يسير أمامها ،وأن لا ينظر إليها أبداً، لم يستطع أورفيوس أن يكبح فضوله، فنظر إليهـــا، فاختفـــت إلـــى

الأبد، وكُتب عليه أن يبكيها إلى الأبد حتى الموت. أورفيوس هزم الموت ،لكنّه لم يهزم فضوله. حضنتني ،وقلت لي بنبرتكَ المعهودة : أتقصدين أنّ فضولي حولكِ قاتل ؟

– بل أقصد أنّ كلمة هلاكي في علمك فقط .

– أيّ كلمة تعنين ؟

– أعني كلمة الهجران و الفراق .

– نحن لن نفترق أبداً ،كلانا قدرُ الآخر .

الكثير من الوجوه الموجودة أعرفها، بعض الوجوه الجديدة أخمّن أنّها من المهتمين بالمسرح والفن، أحد الفنانين المشهورين يجلس في الصف الثاني مع عائلته، باب المسرح يُغلق بأمر من مدير المسرح، الساعة تجاوزت العاشرة بأربع دقائق، الأضواء تخفتُ حتى لا يبات المرء يرى كفّ يده، السكون يخيم على المكان، المقعدان المجاوران لي ما يزالان خاليين ينتظران فضيله وكاظم، يبدو أنّهما فضلا الجلوس في خلوة أمام شجر المسرح تحت أضواء المسرح الخارجية على حضور العرض ، لن تسامحها مروة إن عرفت أنها لم تحضر هذا العرض التاريخي في حياتها .

لا أعنّي نفسي في البحث عنكَ في الظلام، أعرف أنّك غير موجود، قلبي يدرك حضوركَ كما يدرك غيابك،يُفتح باب المسرح، لا أستطيع أن أرى ملامح القادم، عندما تجلس فضيله إلى يميني أدرك أنّها وكاظم هما الحاضران، أضواء المسرح الحمراء تسقط مباشرة على وجه كاظم، شعره الأسود وذقنه الحادة يلمعان تحت وطأة الأشعة، أتخّيله بوجهه المستطيل وذقنه الحاد تحيط به هالة من الضوء الأحمر، كما وجه (توت عنخ آمون) الذي طالما طالعته في المجلات الأثرية، أوافق أسرار على تسميتها له بتوت عنخ آمون ،لعلّها لمستْ هذا الشبه الخارجي بينهما

قبل أن ألمسه أنا .

يجلس كاظم إلى يساري، يبدو قريباً جداً مني، أتمّنى لو أنه يبتعد عن مقعدي، ويجلس في أيّ مكان آخر، لا أحبّ أن تراه إلى جانبي ،أعرف أنّك لطالما مقته، وقلت : إنّه مخادع كبير . هو يكرهكَ ، ولن أسامحه أبداً على ذلك ، أنّى له أن يكره شريك روحي ؟ ثم يظنّ أنّني سأحبه بعد ذلك، لعلّك تكرهه يا حبيبي ؛لأنّه استأثر بقلب فضيله، فضيله التي تعشق جمالها الطفولي وجسدها النحيل، قلت لي:إنّك مستعدٌ لأن تعشق فضيله فقط كي تخلصها من كاظم، عدتَ وقلتَ لي : إنكَ تمازحني . ضحكتُ من كلماتكَ، لكنني كنتُ أدركُ أنّك لا تمزح بل أنت جاد كلَ الجدّ في ما تقول، أنت مجنون، وعندما تجنّ تمزج جدكَ بالهزل من الكلام .

ساعة ونصف تمرّ بسرعة مدهشة، الديكور الرائع والموسيقى الموفقة وإتقان الممثلين ينقلني بسحر إلى مدينة الملك (كالاجولا)، ذلك الملك المهووس، تموت حبيبته بين يديه، يشعر بأنّه خسر الدنيا بخسارتها، يتعذّب من فقدانها إلى درجة الجنون، يرى أنّ القمر شبيهاً لها، لذلك يطلب الحصول عليه، وكل من يعجز أن يأتي به ، يسفك دمّه حتى لو كان من رجال بلاطه أو من أعزّ أصدقائه، هوسه بالقمر يصبح رعب الشعب، يقرّر رجال دولته أن يتخلصوا منه ،ليوقفوا نهر الدم، فيتآمرون ضده .

المشهد الثالث من المسرحية يتفطر قلبي بسببه، تتفنّن مروة في أداء دور الحبيبة الميتة، يضمها كالاجولا بحبٍ مفجوع، يقفل دونهما أبواب مقصورته، تخفت الأضواء والموسيقى، جسده المفجوع وهو يضم الحبيبة يرسم بؤساً حقيقياً، يبكيها بحرقة، يرثيها بشعرٍ جميل، يطالبها باسم الحب بأن تهجر الموت، ولكنّها لا تستجيب له، كيف تعصي أمر من تحبّ ؟ لو أنّكَ دعوتني يا من أحبّ من الموت

لقهرته ، ولبيتُ دعوتكَ .

ستفسد دموعي زينتي، كيف سألقاكَ بزينتي وقد فسدت ؟ ولكنّني لا أملك أن أمنع دموعي، أحزان كالاجولا أحزانٌ يستطيع أيّ عاشق مجنون أن يفهمها تماماً، أحزانه تلامس شغاف قلبي، أعرف أنّك موجود الآن هنا، قلبي يحدّثني بأنّك تدخل الآن إلى المسرح، الظلام يمنعني من رؤيتكَ، لكنّ قلبي يدرك وجودكَ على الرغم من ذلك ، أتراكَ تشعر بدموعي كما أشعر بخفقان قلبكَ أمام هذه المأساة ؟ !

يميل كاظم بكتفه نحوي، يحاول أن يقول لي شيئاً ،لعلّه سيسألني عن سبب بكائي ، أشير له بيدي ، يفهم أنني أرغب في تركي وشأني، يعتدل ثانية في جلسته، يتركني لأحزان كالاجولا .

أبكي بدموع اعتدتها لأيّ أحزان أو لأيّ كلمة تصف أشواقي لك، تحاكي عشقي لك،لطالما خمّن من أمامي أنّني مرهفة الحسّ ،وأتأثرُ بصدق ما أسمع، أحدٌ لم يعرف أنني ألمحكَ في كلّ كلام الدنيا، وأبكيكَ في كلّ مآسي العاشقين، وأرجوكَ من دون كلّ البشر .

عند إسدال الستارة على المشهد الأخير، يعلو التصفيق، تفتح الستائر مرةً أخرى ،وينحني الممثلون تحيةً للجمهور، وموجة التصفيق لا تزال في ذروتها، لا عجب في ذلك، فما قدّم الليلة كان في قمة الإبداع و الرقي، عينا مروة تتأثران بشكل خاص بحرارة تصفيقي وصديقاتي لها.

الكثير من الحاضرين يرغب في تحية الممثلين ،وإعلان الرضى لهم عمّا قدّموا، بصعوبة أستطيع أن أصافح مروة ،وأبلغها سعادتي فيما حققته .

أقبّلها ،فتهمس في أذني : كان هنا ...

– من هو؟

– صاحب العينين الساحرتين، صافحني ، وخرج مسرعاً .

أراقب سيل الحاضرين المتدفّق نحو بوابة المسرح للخـــروج إلـــى خـــارج المبنى، أستطيع أن ألمح أعلى جذعكَ، وشعركَ يتطاير أمام تيـــار الهـــواء البـــارد، يالشعركَ المجنون! تطايره يسحرني، لو كنتَ تملك شعراً ناعماً كما ممثلي الـــسينما لظننتُ أنّي عشقتكَ لمحاكاتكَ لمعظم أبطال السينما، ولكن بهذا الشعر الذي يروقني من دون كلّ شعر رجال الدنيا، أنا متأكدة من عشقي المجنون، يجب أن يملك كـــلّ رجال الدنيا مثل شعركَ، لكي يوهبوا شيئاً من سحركَ، لطالما أخبرتكَ بأنني أعـــشق شعركَ، كلماتي كانت تثير عجبك، فيما بعد أصبحتُ أكثر صراحة، كنـــتَ تقـــول : لطالما كرهتُ شعري .

– أنا أعشقه، هو رائع .

– حقاً ؟!

– حقاً أنا أعشقه، وآمركَ بأن تحبّه، غير مسموح لك بأن تكره ما أحبّ ...

تبتعد سريعاً، الكثير من الحاضرين يغادرون المكان، ها هو الممثل الـــشاب الذي أدّى دور (كالاجولا)، أشهد أنّه موهوب ، بشرته داكنـــة بـــشدة ،أعتقـــد أنّـــه بموهبته الواضحة وبشرته الداكنة يستطيع أن يبهر الجميع إذا مثّل دور عطيل .
أكاد أقترح عليه فكرتي، لكنني أتراجع عندما أراه يقبل بلهفة على تلك الفتـــاة التـــي تنتظره بخفرٍ واضح، أسمع كلماته يدعوها إلى الخروج، يتجهان بسرعة نحو الباب الرئيسي، عند الباب، يدعوها بانحناءة جميلة إلى أن تخرج قبله، الردهـــة الطويلـــة تردّد صدى كلماته: أنتِ أولاً يا أميرتي الجميلة .

سريعاً ما تخلو الردهة من الأشخاص إلا القليل منهم، في انتظـــار خـــروج مروة والأصدقاء، أشغل نفسي بقراءة بعض إعلانات العـــروض المـــسرحية، هـــذا

الأسبوع سيكون حافلاً بالعروض المسرحية، إحدى العروض تحمل اسم (غَزَلْ) أتذكر مروة عندما حضرت إحدى محاضراتكَ بناءً على رغبتي في نقابة الفنانين قالت : عيناه جميلتان ،فيهما غزل .
ألم أقل لكَ يا حبيبي أنّ عينيك تحملان سحراً ،لا تستطيع أيّ امرأة أن تتجاهل سطوته.

مسرحية أخرى ستعرض غداً، تحمل اسم (جورج صاند)، أتساءل :ما هو موضوع هذه المسرحية ؟ أسيكون عرضاً لحياة الكاتبة جورج صاند ؟ التي أنكرت أنوثتها ،وكتبت تحت اسم مستعار، كي تستطيع أن تنشر كتابتها الأدبية في فترة كان الأوروبيون يرفضون فيها أن يتقبّلوا المرأة الأديبة أو أدب المرأة .

أحفظ عن ظهر قلب فقرة كتبتها جورج صاند وأرسلتُها لكَ مع بطاقة وطاقة زهور تقول على لسان المرأة :

" أعطاني الأول عقداً من اللؤلؤ يعدل مدينة بأسرها بمعابدها وعبيدها وقصورها .ونظم الثاني من أجلي ديواناً من الشعر قال فيه : إنّ شعري أشدّ سواداً من الليل ، وإنّ عينيّ أصفى من أديم السماء ،والثالث كانتْ تحمّر وجنتا أمه عندما تقبّله لفرط جماله، فكان هذا الجميل يجثو أمامي واضعاً يده على ساقي، ويخبرني بمدى حبّه لي .
أما أنت يا من أحبّه فلم تعطني شيئاً، ولم تنظم لي شيئاً، ولم تقل لي إنّني جميلة، ولكنّك أنت وحدك الذي أحبّه وأعبده " .

(١٨)

بعض زخّات المطر تباشر الأرض استقبالها، أعدّ قطرات المطـــر واحـــد، عشرة، خمسين ... تندمج بعضها ببعض ،لم أعد أقوى على إحـــصائها، فـــي هـــذا الوقت من الظهيرة الباردة يخلو المتنـــزّه من الأطفـــال، قليـــل مـــن المتنـــــزّهين ينتشرون هنا وهناك، يطالعني البعض من وقت إلى آخر بنظرات فضوليّة، هل أبدو عجوزاً إلى درجة تجعل وجودي نشازاً في هذا المكان ؟ لم يتجاوز عمـــري العقـــد الرابع، لكنّني أبدو أكبر من ذلك، أعرف أنّ قسماتي قد حفر الزمن فيها تجاعيـــد لا تخفى، قلتَ لي :- إنّني من النساء اللواتي لا يعرف الكبر الطريق إلـــيهنّ، وأنّنـــي سأبقى شابة نضرة إلى الأبد.

طوال السنين التي عشتها معكَ قهرتُ الزمن، حبّكَ بعث الشباب في ذاتي، لكنّ السنوات الثمانية عشرة التي قضيتها بعيدة عنكَ كسرتْ شـــبابي دون رحمـــة، أظن أنّ الشباب هو فترة الحب في عمر الإنسان ،وليس رصيداً مقدّراً من الـــسنين تُنفق في الحياة.

قطرات المطر تصافح رمل المتنـــزّه، تنبعث من المكان رائحـــة التـــراب المبلّل بالماء، تعبق في المكان رائحة الأرض تستقبل الحياة، آه ما أجمل رائحة أمّنا الأرض ! آه كم اشتقت إلى رائحة البرتقال تضمّخ أمي ... كم أنا وحيدة من دونـــكِ يا أمي!! منذ رحيلكِ المشؤوم لم يضمّني أحد لأبكي في حضنه، من لا يحتاج إلـــى أحدٍ ليبكي في حضنه ؟!

عود الحياة قد يبسَ في داخلي من دون شك، وإلا لمَ أشعر بحطام يـــسكنني وأنا أسير في هذا الشارع الطويل ؟ في الماضي كنتُ أحتاج لعشر دقـــائق ، عـــشر

دقائق لا غير حتى أقطعه ،وأصل إلى نهايته، أمّا الآن فأجد أنّ نهاية الشارع في آخر الدنيا، هذه المقاعد الخشبيّة جديدة لم تكن في الماضي، أجلسُ على إحداها، أتأمّل أحواض الزهور المنتشرة على طول الطريق، الأحواض رخاميّة ،لا بدّ أن البلديّة قد أصبحت مهتمة برفاهية المدينة أكثر مما كانتْ عليه في الماضي، الشارع أمامي يعجّ بالسيارات، لكنّني أستطيع أن ألمح في الجانب المقابل من الشارع ذلك الحانوت الذي يشغل الركن الأوسط من مجموعة حوانيت أخرى، لا أذكر أنّ هذا القدر الكبير من الحوانيت كان موجوداً في الماضي، لكنّني أذكر جيّداً أنّ هذا الحانوت المغلق منذ زمن على ما يبدو قد كان يحمل اسم (جنّة أجود)، أمّا الآن فيحمل لافتة كُتبت بخط رديء : بقالة ...، ماذا ؟ لا أستطيع قراءتها، لا يهم، يبدو أنّ الحانوت قد فقد هويته التي عرفته بها منذ زمن طويل.

أمام الحانوت المغلق ألمح فتاة بشعرٍ أسودٍ داكن، وبمعطفٍ فيروزي اللون تسير مسرعةً ،ولكن بخطىً مثقلةٌ بنوعٍ خاص من الهموم، تحدّق بالحانوت المغلق تستدير، تقف قبالتي، من البعيد ترمقني بنظرات أفهم معناها تماماً، أعرف هذه الفتاة، عيناها بالذات لي علاقةٌ وثيقة بهما ،أعرفها ،وأشعر بتعبها ،وتجول في رأسي أفكارها ،ربما لأنّني كنتُ إيّاها كنتُ قبل ثمانية عشر عاماً.

هي متعبة، أو أنا كنتُ متعبة، متعبة من تلك القطيعة التي نعيشها من أشهر طويلة، لقاؤك في دنيا الأحلام لا يكفيني، لا يكفي جبروت عشقي، أشكو لطيفكَ من قسوتكَ، يوسدني صدره، ويأمّلني بأحلام تتحقق . أحتاج إلى متعة رؤيتكَ، أشتهي مراقبة روعة سيركَ. كلّ يوم في الثامنة إلا عشر دقائق عبر حديقة الأكاديمية نحو الفناء الخلفي للمتحف، ترتقي السلّم الخلفي للمتحف، وتدلف إلى مرسمكَ، طوال أشهر اعتدتُ على أن أقف خلف زجاج ردهة المعرض الدائم للأكاديمية، من هناك ومن الطابق الثالث تحديداً أستطيع أن أتابعكَ من دون أن ألفتَ نظركَ، تأخّرتَ

أحياناً، لكنّني أنتظركَ دائماً، قبل أن تلفي كنتُ أعرف بقربكَ منّـــي، قلبـــي يعـــرف دائماً بوجودكَ، يقرع قلبي بقوّة، تلفحني رائحة أنفاسكَ، تغادرني روحـــي لتـــــزفّ إليّ لقياكَ، فأعرف أنّكَ قريب، تسعد عيناي باختلاس النظرات من مراقص الجنّـــة، وتسعد برؤيتك.

لدقائق أراقبكَ تسير بإحساس واضح برجولتك الساحرة، قويّ أنـــتَ، لكنّـــكَ جبان، ولكن أستطيع أن أغفر لكَ ذلك، لقد وُلدتُ لكي أغفر لكَ، أخـــشى أن تتجـــه عيناكَ نحو الطابق الثالث، فتراني أمتّع عينيّ برؤيتكَ، ولكنّكَ لا تفعل، كأنّكَ تـــشفق عليّ فلا تحرمني من نزير لقائك.

لحظات رؤيتكَ تبدو حزينة كمسافرين نلوّح لهم في الميناء، نلوّح لهم حتـــى يصبحوا نقطة سوداء في وسط البحر. أتذكّر كثيراً من كلماتكَ، أتـــذكّركَ تـــداعبُ وجهي ، وتقول لي كلّما أدهشكَ نشاطي الزائد واهتمامي الدؤوب بحياتـــكَ : أردتُ امرأة مميزة، فوهبني الخالق عالماً من النساء، كلّ نساء الدنيا تسكنكِ، وأنـــا مغـــرم بهذا الحشد من النساء.

وعدتكَ منذ زمن بأنّني لن أرحل أبداً ، وأنا أبرّ بعهودي ، تبدو هذه العطلة طويلة، أشعر بوحدة شديدة منذ سفر نورما إلى حيث سكن أهلها، أتناول الغذاء مـــع كاظم وفضيله في مطعم الجبل حيث كنتُ أنا وإيّاكَ نلتقي في بعض الأحيان، ولكـــنّ العمل في (جنّة أجود) يشغل جلّ وقتي.

أحبّكَ وأحبّ أن أهدي الورود إليكَ، عندما أكون بين الزهـــور، أستحـــضر جمال كلامكَ، وحسن عنايتكَ بالورود، منذ فراقنا والورود عزائي الوحيد، أحبّ أن أكون بينها، أمّا فكرة أن أعمل في حانوت لبيـــع الزهـــور، فهـــي فكـــرة أســـرار. اقتراحاتها طريفة دائماً، ولكنّ هذا الاقتراح ناسبني تماماً، ففي هذه المهنة أســـتطيع

أن أقتل الكثير من وحدتي وفراغي ، وأن أمارس بسريّة عذبة متعة مخاطبة الأزهار.

اسم الحانوت (جنّة أجود) وفعلاً كان المكان جنّة، جنّة صغيرة تسكنها الأزهار الملوّنة من كلّ صنف ونوع، منسّقة في داخل المحل بشكل ساحر حتى تبدو وأنّها قد نبتت في هذا المكان، نباتات الزينة تغمر المكان بالخضرة الغامقة، الكثير من طيور الحبّ الملوّنة تعيش أزواجاً وجماعات في أقفاص ذهبية معلّقة على ركائز حديدية ضخمة أمام واجهة الحانوت الزجاجية ، من يسير في الشارع يظنّ أنّه سيدخل حديقة لطيور الحبّ، هناك حوض سمك واحد في المكان، يبدو أنه ملك شخصي لصاحب المحل ،وليس معروضاً للبيع، لا أملك الخبرة في معرفة أنواع السمك، لكنّ ألوان أسماك الحوض تدلّ على أنّها من سلالات مميزة، هذا المكان ساحر، بخطوة واحدة يخطوها المرء من الشارع إلى داخل المحلّ، يدخل جنّة عدن، من نسّق هذا المكان إمّا أنّه ساحر وإمّا أنّه بستانيّ موهوب.

هو مجرد موهوب، تقول أسرار. تعرّفه عليّ، ثم تعرّفني به، اسمه أجود، صديقها منذ أيّام الدراسة، وصديق زوجها، يبدو أصغر من زوجها على الرغم من تلك اللحية البنيّة التي تطوّق أسفل وجهه، يستذكران الكثير من أيام هذه الدراسة، يذكران الكثير من أسماء الأشخاص ،ويتبادلان المعلومات حولها، أمّا أنا فأحدّق في تلك الصورة المعلّقة إلى يسار حوض السمك، صاحب الصّورة يملك عينين بغاية السحر، أسأله : من يكون ؟

أجود :- اسمه (لينو) بطل من أبطال الروس.

الصّورة المعلّقة تذكرني بالمعلومتين الوحيدتين اللتين ذكرتهما أسرار لي عن صاحب هذه الجنّة، المعلومة الأولى : أنّه لن يعطيني أي نقود مقابل عملي،

لأنّه مجرد تدريب لي ،فهو لا يحتاج أصلاً لموظف في الحانوت والمعلومة الثانية : أنّه كان ملحداً، ثم عاد ليصبح مسلماً متديناً.
لم يسألني أجود إلا القليل من الأسئلة التي بدتْ أسئلة تقليدية أكثر من كونها أسئلة تعرّف، لا بدّ أنّ أسرار قد حدّثته طويلاً عنّي قبل أن يوافق على عملي في جنّته، السؤال الوحيد الذي بدا بهدف المعرفة : كم هي المدة التي ستمضينها في العمل معي ؟
– فقط الأشهر الثلاثة القادمة، مدّة فصل دراسي واحد، أنا أجّلتُ دراستي لمدة فصل، في ما بعد ستشغل دراستي معظم الوقت .
– ستكونين دائماً موضع ترحيب .
– أشكرك .

في الأسبوع الأول من العمل زارتني أسرار ثلاث مرات لتطمئنّ على وضعي، بعد ذلك لم تزرني لمدة شهرين، ليتها فعلتْ كي أعبّر لها عن امتناني بسبب هذه المتعة العظيمة التي اقترحتها علي، العمل كان رائعاً، الزبائن كانوا دمثين في معظم الأحيان، وأجود كان شابّاً رائعاً وخلوقاً، كنتُ أفتقد وجوده كلما ذهب إلى أحد الصلوات الخمس التي كان يصمّم على أن يؤديها حاضرة في مسجد المدينة الذي يقع في الشارع الخلفي.

طبعه يناسب تماماً العمل في الزهور، إذا علم أنّ الزبون يشتري الزهور لمناسبة خاصة يهديه بعض الزهرات المجّانيّة ليضاعف من سعادته وغبطته، يحبّه الزبائن ،ويثقون به ،وكثيراً ما يهمسون له ببعض أسرارهم العائلية أو العاطفية ، وأنا أيضاً أحبّ طريقته الدّمثة في معاملة من حوله، حتى أنّني أصبحتُ أضاعف من عملي في جنّته، ولا أخرج منها إلا إذا صمّم أجود على أن آخذ راحة في بيتي، بتّ لا أخرج من البيت إلا لكي أتّجه إلى جنّة أجود.

أملكُ بعض الوقت للقراءة في الحانوت، بالذات إذا كان أجود مشغولاً مع بعض الزبائن أو مشغولاً برعاية الأزهار ونباتات الزينة، أمّا إذا كان غائباً فأحدّث طيفكَ طويلاً عن هذه الأزهار، وأدعوه لاختيار أجملها لأرسلها إليك .

لقد تعوّدتُ على أن أرسل لكَ الورود صبيحة اليوم الأوّل من كلّ أسبوع، ولا أستطيع أن أتخلّى عن هذه العادة التي تسعدني ،وأعرف تماماً أنّها تسعدكَ، حتى في الخصام تجد ورودي طريقها إليكَ. في الماضي أنا من كان يحضرها لكَ ،أمّا الآن فأبعثها مع صبي المحلّ، لكثرة ما أرسلته إلى مرسمكَ ببطاقة الورود، أصبح يحمل طاقة الورود الحمراء صبيحة كلّ أحد، ويبتسم لي ابتسامته الصبيانية ويقول : إلى نفس الرجل ؟

أهزّ رأسي ، وأبتسم : إلى نفس الرجل ...

أوصيه في كلّ مرة أن لا يسقط أيّاً من تلك الورود، هذه الورود أُرسلت لكَ، ولا أقبل أن يشارككَ أحد في ورودي، كثيراً ماكنتُ أقابل بعض أصدقائي وأنا أحمل الورود لكَ، تعجبهم الورود ،ويستهدونني بعضها، أبتسم لهم وكلّي خوف من أن يأخذوا بعض ورودي، وأقول لهم مازحة: لا أستطيع، هذه الورود تحزن إن لم تُهدَ جميعاً إلى من حُملتْ له.

يسألوني بفضول : وإلى مَن حُملت ؟

أقول بغبطة : سِرّ ...

اتفقنا على أنّ العمل مجانيّ، لماذا يقدّم أجود المال لي ؟ أرفضه، لكنّه يصمّم على أن آخذه يعلّل عطيّته بعملي الجاد، وارتفاع نسبة مبيعاته منذ أن بدأتُ أساعده في العمل، ويقول إنّ عمل السّخرة لا يرضي الله، هو يخشى الله، حُمرة من

نوع خاص تعلو وجهه، أقبلُ المال، أشكره عليه، لا أعدّ المبلغ، أقدّر أنّه مبلغ قليل، أدسّه في محفظتي، أعاود تنسيق باقة أمامي، الحُمرة تفارق وجـــه أجـــود ،ويعـــود الصفاء إليه.

أشعرُ بفضول نحو إيمانه الهادئ الذي يبعث الطمأنينة في نفس من يعرفـــه، أقتربُ منه ، ما زال منهمكاً في مراقبة أسماكه الملوّنة ، أحاول أن أرتّب الكلمـــات في ذهني ، يلاحظني، يبتسم لي، أسأله :-

- تجيد الاهتمام بالأسماك والطيور والنباتات .

- أعشقها .

- لا بدّ أنّ دراستك للزراعة قد أفادتكَ في عملكَ .

يحدّق بي مستغرباً :- الزراعة، من قال إنّني درستُ الزراعة ؟

- أسرار .

- أسرار قالتْ ذلك ؟!

- ليس تماماً، لكنّها قالت إنّكما كنتما زملاء في الدراسة، اعتقدتُ أن ...

- نعم زملاء دراسة، ولكن ليس في التخصص ذاته.

- هكذا إذن.

- لقد درستُ الفلسفة.

- الفلسفة ! وما علاقة الفلسفة بالزهور ؟

- قصّة طويلة.

- ...

- أتحبين أن تسمعينها.

- لمَ لا ؟

- لقد درستُ الفلسفة، ثمّ فُصلت من الجامعة لأسباب سياسية، حصلتُ على منحـــة من أحد الجهات الثورية، وأكملت دراستي في موسكو، أعجبني الفكر الاشـــتراكي. أعجبني احترام الطبقة العاملة ،والإعلاء مـــن شـــأنها، أعجبتنـــي فكـــرة الفـــرص

المتكافئة، المدارس المتشابهة، المنازل المتشابهة، الرواتب المتكافئة، أحببتُ تلك الحياة ... ثم ...

– ثم ألحدتَ.

يبتسم لكلماتي كأنّه يسمع تصوّرات طفلة لقصّة ترويها ،ولكن بأسلوبها : ليس تماماً، آمنتُ بأنّ كثيراً من القوى الغيبية ما هي إلا طريقٌ لخداع المسحوقين ، أمّا الشعب العامل الذي تحكمه طاقته المنتجة بحق، أعني العمّال، فلا حاجة عنده إلى إله؛ لأنّه لم يعد مسحوقاً يبحث عن مساعدة من مصدر مجهول ... آمنتُ بأنّ القوى المستبدة تستغل الدين، وتجعل الشعوب تقبل برضىً الظلم والاستبداد ومصيرها الأسود .

– الظلم ليس قدراً من الله، الله لا يقبل به ،بل يدعو إلى جهاده.

– نعم، الآن أعرف أنّ الظلم ليس من قدر الله.

– لذلك عُدت الى إيمانكَ.

– أبداً !

– بل عُدت إلى بيتي لأجد الكلّ ضدّ أفكاري، ضدّ ما أسموه بالإلحاد .

– ألم يكن إلحاداً ؟

– بلى، ولكنني لم أعرف أنّه كان كذلك إلا عندما آمنتُ بخالقي إيماناً لا ردّة بعده.

– لا بدّ أن عائلتكَ قد أعادتكَ إلى حياة الإيمان؟

– أبداً، بل تخلّت عني تماماً، وقطعتْ علاقتها بي، حتى أمّي كانت ترفض رؤيتي، وكلّما حدّثها أحد عنّي تبكي بمرارة، إلى أن مات والدي بشكل مفاجئ، لم يُرد إخوتي أن أرث معهم في البيت، أرادوا أن أبتعد عنهم، لذا وهبوني هذا الحانوت، وتنازلتُ لهم عن البيت، حانوت أبي كان من أقدم الحوانيت في المدينة، كان عاشقاً للزهور، لم أعد أملك أيّ شيء إلا هذا الحانوت، أمضيتُ كلّ وقتي بالعناية به، أصبحتْ الأزهار هاجسي في الليل والنهار، حتى في الأحلام رأيتُ الزهور، رأيتها جميلة تسبّح باسم الخالق ، تأمّلتُ الزهور لأسابيع طويلة، ألوانها وروائحها كلّها

دلائل على عظمة الخالق، لا يمكن أن تَخلق الزهور نفسها، بل لا بـــدّ مـــن خـــالق مدبّر، كنتُ أسمع الزهور تسبّح باسم الله، أمّا أنا فجاحد كافر، في ما بعد كنتُ أسبّح معها، أتفكّر في قدرة الخالق، طلبتُ الغفران طويلاً من الله، عندما ســكنتني تلــك السكينة عرفتُ أنّ التوبة باب لا يُغلق.

– أكانتْ الزهور سبباً في تجدّد إيمانكَ ؟!

– بل سخّرها الله من أجل أن يمنّ عليّ بالإيمان.

– وعائلتكَ ؟

– علاقتي مع إخوتي ما انفكّت فاترة، أمّا أمّي فلا أنام قبل أن أقبّل يديها، وأطلــب رضاها.

– والفلسفة ؟ أقصد ماذا عن العمل في مجال تخصّصكَ ؟

– من قال لكِ إنّني لا أعمل في مجال تخصّصي، الورود لهـــا فلـــسفتها، الألـــوان والأشكال والروائح لها فلسفتها، يحتاج المرء لحدسٍ من نوعها الخاص حتى يفهــم فلسفة الورود.

– حقاً ؟

– أنتِ تملكين هذا الحدس، طريقة تنسيقكِ للزهور تقول إنّكِ تملكين هذه الفلسفة.

أأقول له إنّ عشقكَ هو حدسي الغامض ؟ أأقول له إنّ طيفكَ يختـــار الألـــوان ؟ و يلهمني في كلّ أعمالي ؟ لا .. لن أقول، بل أبقيكَ سراً لا يُدرك.

– من أين لكِ كلّ هذا العشق ؟!

– أيّ عشق ؟

– عشق الزهور. أحبّ فيكِ هذا العشق .

يبتسم ويقول بنبرة دافئة : أتتزوجيني ؟

– لا .

– أنا جادّ في عرضي .

– وأنا جادّة في رفضي .

يبتسم، يعود إلى أسماكه :- أنتِ الخاسرة .

أنهي تنسيق الباقة التي أمامي، الزهور الصفراء رائعة بحق، تدلف تلك الفتاة إلى الحانوت، تُقبل باسمة، هندامها أنيق، السعادة في عينيها تقول إنّها عاشقة على موعد، تعجبها الباقة، أسألها ماذا ستكتب على البطاقة ؟ تهمس في أذني :- إنّها لا تجيد الكلمات لكنّها عاشقة. أدوّن لها بعض الكلمات، يعجبها ما كتبتُ، تشكرني ، وتقول لي :- كأنّكِ قرأتِ ما في داخلي ودوّنته على البطاقة. تأخذ باقتها، وتغادر مزهوّة بها، عشقي يدوّن لكَ آلاف البطاقات ،ويرسلها لكَ عبر المجهول، أكتبُ الكثير من بطاقات العشق للزبائن، يظنّون أنّ كلماتي يمكن أن توهب لمن يحبّون، أمّا طيفكَ فيعلم تماماً أنّ كلماتي لكَ، أكتبُ لكَ بالذات، هي لكَ وإن قرأها غيركَ، يعجب من يشترون الزهور من كلماتي يقولون :- إنّها تصفُ مشاعرهم، لا عجب من ذلك، فداخلي شعوب من العشّاق، بل شعوب من العاشقات اللواتي يذبن عشقاً فيكَ، عندما يذهبون بكلماتي، أدوّنها على دفتر صغير لكي أقرأها لكَ في يومٍ من الأيام.

كم أكره زهرة النرجس!! تقول الأسطورة إنّها رمزٌ للموت والهلاك، أكره أن تُهدى، لذلك لم أهدها لكَ أبداً، ليت أجود يتخلّص منها ،ولا يعود إلى عرضها، تلك الصفرة التي تسكن بياضها توحي لي بالمرض المكفّن بالأبيض، يقول أجود إنّ موسم إزهارها قصير، لذا ستختفي من أسواق الورد بعد أيّام قليلة، أحمد الله لأنّها ستذهب إلى الجحيم.

يتجوّل طيفكَ في المكان، يحدّق في الزهور بطريقته المعتادة، يلمس زهرة، يسأل ما اسمها ؟ أجيبه : ليليوم . يسألني طيفكَ ماذا تقول :- أحبكَ.

- وهذه ما اسمها ؟

– جبسفين؟

– ماذا تقول ؟

– أهواك.

– وهذه ما اسمها ؟

– لويزيانا

– ماذا تقول ؟

– بجنون

– وهذه ما اسمها ؟

– كازبلانكا

– ماذا تقول ؟

– إلى الأبد.

– وهذه ما اسمها ؟

– الستروفيريا

– ماذا تقول ؟

– يا سعادة.

– وهذه ما اسمها ؟

– كلاديولاّ.

– ماذا تقول ؟

– قلبي.

تصمتْ ،تقترب منّي بطريقتكَ الساحرة تقول :– أحبكِّ أهواكِ وأعبدكِ بجنون إلى الأبد يا سعادة قلبي. أضمّ طيفكَ، تداعب يدكَ شعري، أقول لكَ هذه الزهرة اسمها السوسن ترمز للصداقة المخلصة، وهذه الزهرة اسمها زهرة جوزفين، سُمّيت كذلك لأنّ جوزفين أحبّتها بشدّة، وزرعتها بنفسها في حديقة قصرها في باريس، زرعتها تمهيداً لكي تهديها إلى حبيبها نابليون.

بعد يوم طويل من العمل، يدعوني طيفكَ إلى شيء من المتعة، تحت زخّات المطر، هذه الأرجوحة شهدتْ كثيراً من لياليا، في آخر المتنـــزّه، حيــث تعلــو أشجار الكينيا، تدفع أرجوحتي بكلتا يديك، تعلو ضحكاتي، تعود أرجوحتي ســريعاً إلى حضنكَ، تهديني قبلتكَ ،ثم تدفعني يدرك إلى الأعلى من جديد.

هذه الليلة لا تدفعني يداكَ القويّتان نحو الأعلــى، أجلــس مكــسورة علــى الأرجوحة، أدندن بلحن حزين كنتَ تغنّيه لي، طيفكَ يردّد الكلمات بصوت خفيض، أمّا صوت عيسى فيعلو في المكان، لم أتوقّع حضوره، لعلّه وجدني صدفة في هــذا المكان. يضع معطفه الشتوي جانباً، يدفع أرجوحتي، يقول لي:- أنــتِ أول امــرأة أدفع أرجوحتها.

- ...

- غداً أسافر، جئت أودّعك.

- كيف عرفتَ عن مكان وجودي.

- كثيراً ما رأيته يدفع أرجوحتكِ في الليل.

- لم أنتبه لوجودكَ من قبل.

- عندما تكونين معه لا ترين أحداً، حتى ولو كان يقف أمامكِ.

- ...

- لا بدّ أنّه رجل محظوظ ليحظى بعشق امرأة مثلكِ.

- ...

- سُجنت في صباي في معتقلات العدو في النّقب، كان لأحد المعتقلين الفلــسطينيين حبيبة اسمها غالية أمضت ثلاثين عاماً تنتظر خروجه من السجن كي تتزوجه، فــي كل أسبوع كانت تأتي لزيارته، وعندما لا يُسمح لها بالدخول لرؤيته، تمضي النهار تصرخ قريباً من أسوار المعتقل، تنادي باسم حبيبها، تستمرّ بذلك إلــى أن يخــرج الجنود ،ويوسعونها ضرباً، كنّا نعتقد أنّ أيّ حبّ أمام حبّ غاليــة لا شــيء. مــن

يومها لم أعشق أيّ امرأة، عندما رأيتكِ، عرفتُ أنّكِ بمثل عناد غالية، تمنّيتُ حبّكِ، لكنّكِ وهبته لغيري.

– ...

– سأنتظر امرأة تملك قدرتكِ الخرافية على العشق.

– أنا حزينة بسبب ما حدث لتمثالكِ، علمتُ من أحد الأصدقاء بما أصابه.

– هذا الشرخ الذي أصابه، جاء مناسباً، مناسباً تماماً، يحتاج التمثال إلى شرخ يجسّد ذلك الشرخ في جسد الأمة، تصوري أنّ هذا الشرخ لم يؤثّر على تقدير عملي، وحصلتُ على علامة مرتفعة في مادة (مساق التخرّج).

– ...

– ما معنى صمتك ؟

حديثه عن الشرخ يذكّرني بدموع فضيله منذ أيّام لم يفارق الحزن عينيها، بالتحديد منذ أن اكتشفتْ كذب كاظم، لقد اكتشفتْ عن طريق الصدفة أنّه ليس طالباً، بل مجرّد عامل كادح من أسرة فقيرة ، وليس سليل أسرة متنفّذة في العراق، ووالده ليس ضابطاً في المخابرات العراقية بل عجوزاً حطّمه المرض والكبر.

– هل ستراسليني ؟

– ...

– هل قلتُ لكِ : إنّكِ المرأة الوحيدة التي دفعتُ أرجوحتها ؟

بابتسامة أقول : نعم ، قلتَ ذلك قبل قليل.

(١٩)

ليتكَ لم تسافر يا أجود، متى ستعود ؟ أشعر بحاجة ملحة إلى أخذ استراحة والنوم طويلاً، أنا متعبة، متعبة من كلّ شيء حتى من رؤية الزهور، متعبة منذ أربعة أيام، لعلي متعبة من الانتظار، بالتأكيد أنت يا حبيبي لا تعرف ما حدث ذلك اليوم، وبالتأكيد أنتَ لم تسمع استغاثاتي ، على الرغم من ذلك أنا أتوقعكَ، أنتظر قدومكَ، أتخيلكَ تدلف من الباب مبتسماً، تقف على العتبة بقامتك الممتدّة وشعركَ الشّمسي، فتسدّ بقامتك الباب ،وتمنع أشعة الشّمس من التسلّل إلى الداخل، ستأتي صباحاً، سترتدي بذلتك الرماديّة ؛لأنّني أحبّها ، وأنتَ ترتدي دائماً ما أحب، ستقترب مني، وتصافحني، وتبقي يدي في مهجع يدكَ، تقول لي: جئت ألبّي دعوتكِ.

– أنا لم أدعوكَ .

– وماذا عن ذلك اليوم في المسبح ؟ ألم تستغيثي باسمي ؟

– لا، بل كنت أريد أن يكون اسمك آخر ما ألفظ .

– إذن لم تستغيثي بي ؟

– أردت أن أودّع الدنيا على أجمل كلمة، على اسمك.

تضمني إلى صدرك، تقول لي بنبرتك الساحرة :– قصّي علي ما حدث في ذلك اليوم .

– ألم تخبرك شرف بما حدث ؟

– لا ، لم تخبرني .

– إذن كيف عرفتَ ؟

– هل أحتاج لوسيط بيننا ؟ قلبي يخبرني بحاجتك إليّ، أتظنين نفسكِ الوحيدة التي تملك حاسّة سادسة تخصني ؟ أنا أيضا أملك حاسّة سادسة تخصّكِ بالذات، أرصدكِ بها، و أستشعر حاجتك إليّ من خلالها .

– حدث ذلك قبل أربعة أيام، لم أذهب في ذلك اليوم إلى العمل ، بل قضيته في بيت فضيله، كانتْ متعبة بشكل واضح، قالتْ عمتها : أنا أخشى أن تكون مصابة بالتهاب الكبد الوبائي لذا سنعرضها صباحاً على الطبيب .

خمنّتُ أنّ هذا الاصفرار هو اصفرار الفراق لا اصفرار المرض ، حدثتني طويلاً عن كاظم، لن تغفر له أكاذيبه الطويلة، لكنها تحترم تفانيه وعمله الكادح من أجل أن ينفق على أسرته المحتاجة لدعمه المستمر، قالتْ : إنّه مسافر . لم أجرؤ على أن أسألها عن مصير حبّها .

ذكر الفراق يرعبني ، يجعلني أظنّ أنّ هذا الذكر ليس إلاّ إرهاصات تخصّ علاقتنا، ولكن عندما أتذكّر أنّ طيفكَ لا يفارقني ، وأن روحاً سرمدية تسكن جسدينا أشعر ببعض السكينة . والسكينة تدعوني دائماً إلى السباحة، يقولون إنّ من يمارس هواية السباحة لا يستطيع أن يفكر بأيّ موضوع سواها وهو يسبح، يخلع كلّ الأفكار على طرف حوض السباحة، ويقفز إلى الماء متجرداً من أفكاره وذكرياته وملابسه، أنا أفعل ذلك أيضاً، أترك كلّ ذكرياتي عند طرف حوض السباحة، أمّا أنتَ فتظل تسكنني، عندما أقفز إلى الماء ، وأغوص إلى داخله، أشعر بأنّني أنزلق برفق من رحم أمي، أنزلق من زلاله الدافئ، أتحوّل في لحظات إلى امرأة ناضجة وعاشقة، يستقبلني دفء ذراعيكَ، أشعر بهما يحيطان جسدي العاري، أغمض عيني، فيحيط جسدكَ بجسدي، مدرّبة السباحة توبخني دائماً ، وتطلب مني أنّ أفتح عيني عند السباحة ، أنا لا أريد ذلك، لقاؤكَ في المجهول أجمل وأعذب، تقول: أنّ من يسبح بعيون مغلقة يفقد الاتجاهات . ما حاجتي إلى الاتجاهات وأنتَ في الدّنيا ؟ في كلّ الاتجاهات أجدكَ، أنا أسبح كي ألقاكَ، كي نمتع نفسينا بمتعة السباحة سوياً .

أشد ما يزعجني وجود شرف في المسبح، وجدتها في انتظاري عند باب المسبح، كيف عرفتْ عن ساعات تواجدي في المسبح ؟ لقد نسيتُ أنّ أسألها .قالت: إنّها ترغب ببعض الحديث معي . عندما تذكّرتُ أنها تقضي معظم الوقت الصباحي معكَ، شعرت برغبة في صفعها. شكرتني على كفالتي لها قبل أشهر، وعرضت عليّ رد النقود التي استدانتها مني في ذلك اليوم، سخرت من عرضها ،وسخرت من نفسي ؛لأنّني لم أتركها لتتعفن في السجن.

– لا أملك الوقت يجب أنّ أسبح الآن.

– سأنتظرك، متى تنهين السباحة ؟

– لا تستطيعين الدخول إلى المسبح ، هذا ممنوع لغير الأعضاء.

– سأكتفي بمشاهدتك من شرفة الزوار المطلّة على المسبح .

– ما أدراك بوجود مثل هذه الشرفة ؟

– أحضر أحياناً إلى هنا مع بعض الصديقات .

أتساءل في نفسي مع بعض الصديقات أم معكَ ؟ ترافقني إلى غرفة الملابس، تحدّق في جسدي، تتفقّده بشكل واضح، أظن أنّ لون أديمه أكثر ما يلفت انتباهها، أتعمّد أنّ أبقى أطول مدة أمامها لأعطيها الوقت الكافي لاختلاس النظرات، لا بدّ أنها عنّت نفسها بهذه الزيارة لكي تكتشفني عن قرب. طوال الساعة الأولى من السباحة ، تجاهلتُ وجودها، بل تجاهلتُ تلويحها لي بيدها من وقت إلى آخر، لا بدّ أنها قد ملّت من مراقبتي من بعد، هي تنتظرني، أما أنا فأتعمّد أن أطيل فترة لهوي مع طيفكَ في الماء.

شعرتُ للحظة بطيفكَ يتبخّر من جانبي، لون الماء أصبح أزرق، أمّا بريقك السحري اللامع فقد اختفى تماماً منه، هل جاءت شرف لتغرقني ؟ لتقتلني بلعنتها، أغمض عيني، أبحث عنكَ ، لا أثر لكَ في الماء، جسدي يتهاوى إلى الأسفل، أرتال الماء تربض على صدري، ودفق الماء يندفع بقوة إلى جوفي، سأموت، لا بد أنّني

سأموت، أصرخ باسمكَ، أناديكَ أنتَ بالذات، أحاول دفع جسدي إلى الأعلى، أصرخ باسمكَ مرة أخرى، ثم تخور قواي، أحاول أن أدفع نفسي إلى الأعلى مرة أخرى، لكن لا فائدة، يبدو أنّه الموت، لا أعرف ماذا حلّ بجسدي، ولا أعرف ما حلّ بطيفكَ، أين هو؟ لا بدّ أنّ صرخاتي قد ملأتْ أجواء المسبح، لا بد من الاستسلام، فليكن إذن...

الكثير من السيقان العارية حولي، جمع من الألوان يغزو بصري، هل أنا ميتّة، أشعر بأنّ طيفكَ قريبٌ منّي، لعلّي في الجنّة معكَ، وإن كنتُ في الجحيم فلا أبالي إن كنتُ معكَ، يقترب وجه نسائي منّي، يصفعني برفق ، يقول لي : أأنتِ بخير؟

مجموعة من الوجوه الفضولية تقترب مني، أفتح عيني بتثاقل، ماذا حدث ؟

– لا بدّ أنك قد أصبتِ بشدّ عضلي حادٍ في قدميكِ .

– هل أنا ميّتة ؟

تبتسم الوجوه، وتقول المدربّة : لا، أنت في خير .

– حقاً ؟

أين شرف ؟ ها هي ما تزال في الشرفة المطلّة على بركة المسبح، حسناً أنّها لا تستطيع النزول إلى هنا، تقترب المدرّبة، تهمس في أذني قائلة، من هو... ؟

– ...

– لقد استنجدت به وأنت تغرقين .

– ...

أرتدي ملابسي على عجل، أجدها تنتظرني على باب المسبح .

أسألها : تأخّرت ؟

– ملابسك مبتّلة .

– لا أحب أن أجفّف جسدي، أحبّ أن يجفّ بالتدريج أثناء سيري في الليل نحو المنزل.

– ولكنّ الجو بارد، سمعتُ أنّ ثلوجاً متوقع أن تسقط في الأيام القادمة .

– أنا أحبّ السير في الجوّ البارد .

– إذن سأسير معكِ .

– كما تشائين.

لن أسير في الطريق القديم حيث اعتدتُ أن أسير وإيّاكَ في كلّ ليلة، لا أحب أن يشاركني أيّ شخص في استرجاع ذكرياتي معكَ، أختار الطريق الرئيسي، معتم بعض الشيء ،ولكن لا بأس، خطواتي أسرع من خطوات شرف، تتحدّث كثيراً، صوت السيارات المسرعة تضيّع عليّ سماع بعض كلماتها، تتحدّث في مواضيع تدور حولكَ، لا بدّ أنهّا تحاول أن تخبرني بشيء معين، وإلا لِمَ جاءت إلى زيارتي؟ بالتأكيد لم تأت لتشكرني على أمر حدث منذ أشهر .

أتساءل هل سمعتني أستغيث باسمكَ ؟ نظراتها محايدة لا تشي بأيّ شيء، السيارات مسرعة، وتكاد تلامس جسدينا، ماذا سيحدث لو دفعتها تحت عجلات إحداها ؟ وتخلّصتْ من صحبتها الكريهة ؟ حتى في الليل تشاركني في طيفكَ، وتسير عنوة معي.

تقول لي : إنّها تحبّكَ ، وتتعّهد بإسعادك .

أقف أحدّق في وجهها، أفكر جدّياً في إطعامها لإحدى السيارات، أوقف سيارة أجرة، أركبها وأبتعد عنها قبل أن يفلتَ زمام أعصابي من يدي ، وأقتلها .

يبتسم طيفكَ ، ويقبّلني قائلاً : غيورة .

– فقط عليك .

ليتك تطيل زيارتكَ، لكنّكَ تختفي من أمامي، تدخل أسرار ، تقول لي بابتسامتها المعتادة: لا تبدين سعيدة لرؤيتي .

– بل سعيدة تماماً.
– كنتُ في الجوار ، ففكرت في إلقاء التحية، يبدو أنّك سعيدة هنا .
– جداً .
– لا أرى أجود، أين هو ؟
– لقد سافر إلى الساحل .
– سافر إلى الساحل ! لِمَ ؟
تدخل فتاة محجّبة، قصيرة القامة ونحيلة، تمشي كما اللعبة، تسلّم عليّ، تهمس بخجل واضح : هل عاد أجود ؟
– لا، ليس بعد، أظنّه سيعود الليلة .
– اطلبي منه أن يتصل بي حال عودته .
– سيفعل ذلك دون أن أطلب منه . تفضلي استريحي .
– لا عندي الكثير من العمل .
تغادر سريعاً، أشيّعها بعيني، ألتفتُ نحو أسرار ، أقول لها : اسمها هلا، طالبة في معهد الجيولوجيا .
– تبدو صغيرة، أعمرها عشر سنين ؟
– يكفيك سخرية، هي بمثل عمري .
– لقد سافر أجود إلى الساحل لكي يخطبها من أسرتها .
– ماذا ؟!
– لقد عرفها منذ أسبوعين، دخلتْ تطلب شراء حجر جيري، عُرض صدفة إلى جانب باقة زهور في واجهة الحانوت الزجاجية .
– و لِمَ تشتري الأحجار ؟
– هي مهتمة بالأحجار، تراقبها، بل تبحث عنها في الشوارع، ولا تجد حرجاً في التقاط بعضها من الشارع، ولا تسمح لأحد بلمس أيّ من حجارتها .
– ألهذه الدرجة تهتم بتخصصها ؟

– تقول إنّ الأحجار كما البشر، تفهم وتحسّ، بعضها جميل وطيب، بعضها خبيث وشرير.

– وما قصة الخطوبة ؟

– يبدو أنّ قلب أجود قد فُتح لها، لقد شجّعته على الزواج منها، تبدو فتاة مهذبة، أرجو أن يوافق أهلها على الخطبة .

– أظنّهم سيفعلون، أجود شاب ممتاز .

أقول ضاحكة : نعم هو يعشق الأزهار ،وهي تعشق الحجارة...

– يجب أن أذهب الآن .

– ابقِ قليلاً .

– لا أستطيع، يجب أن أذهب، زوجي ينتظرني في السيارة .

تخطو سريعاً إلى خارج الحانوت، يدنو فتى الحانوت مني، يقول بنبرته الطفولية الشقيّة : أهذه هي زهور هذا اليوم ؟

– نعم .

– أأرسلها إلى نفس الرجل ؟

– نعم إلى نفس الرجل .

أمسك ببطاقة، أخط فيها قصيدة لطالما أحببتها، وقرأتها على مسمعي، أكاد أسمع صوتكَ ينشد :–

ألفيتها مخضّلة في روضها ... والفجر بين ذيوله يطويها

حتى إذا انتفضتْ عليه، تجمّعتْ ... أنفاسه، وتجمّدتْ في فيها

وتمايلتْ تيهاً، بعرس فتونها ... وزهت وعرس فتونها يبكيها

والطيب مسفوحٌ على جنباتها ... يهمي على روحي بما يشجيها

فلويتُ في شبه الذهول أناملي ... وقطفتها...لهفي لمن أهديها؟!

يطوي فتى الحانوت البطاقة في جيبه ،ويسرع بعيداً وهو يحمل الورود الحمراء، يقول كاظم : ما أجملها من زهور !

لم أتوقع حضوره، يمسك بقبضة يد فضيله، ما أجمل شعرها بهـذا الـشكل ! لكـنّ وجهها أصفر بل شديد الصفرة، لعلّها مريضة حقاً كما تقول عمتها.

أحدّق في وجه كاظم وهو يدنو مني ، وجهه باهت كميت على الرغم من ابتـسامته الكسيرة، أقول له : أهلاً وسهلاً بكما .

– لقد جئتُ كي أودّعكَ، سأعود إلى البصرة، اليوم مساءً .

كوقع الصاعقة يقع الخبر عليّ، أحاول أن أفهم سر ابتسامة فضيله، وما معنى تلـك الدموع التي تتراقص في عينيها ؟ لا أعرف لمَ أتذكر تمثال عيسى ؟ أرى الـشرخ في وسطه يتمدّد حتى يهشّم جسد التمثال .

– أتذهب إلى البصرة ؟ الإيرانيون يقصفونها بشدة .

– يجب أن أكون إلى جانب أسرتي، سأعمل ،وأكمل دراستي في جامعة البـصرة، وأعود لأخطب فضيله .

– حقاً ؟ ستتزوجان إذن ؟

– عندما أكون جديراً بها، سأفعل، صدقيني يا ...لقد قهرني الفقر، وحرمنـي مـن كثير من الأمور، قضيتُ أجمل أيام عمري، أطارد لقمة العيش كي أعيل أسـرتي، قهرني الفقر، لكنني سأنتصر عليه هذه المرة ،ولن أسمح لـه بـأن يحرمنـي مـن فضيله. دائماً كذبتُ ،وأخفيتُ ظروفي ،أمّا الآن فأنا مستعدّ لأن أواجه الدنيا بحـبّ فضيله .

أقطف زهرة بيضاء ، أغرسها في جيب قميصه ، أقول له: لا تتأخر علينا ، يبتـسم بفتور غريب، يقبّل يديّ ،لا بد أنّه يشعر بمدى تعاطفي معه، يصمتُ ثـم يقـول : اذكريني في دعائك .

– سأفعل .

تهمس فضيله بنبرة كسيرة : ألم يتصل بكِ ؟

أوميء برأسي نافية ذلك .

تقول لي : شرف ...

– أقول متمنيّة، هل ماتت ؟
– بل تزوجتْ ...
أشعر بالجفاف يلفح حلقي، لا دماء تسكن جسدي : هل تزوجته ؟!
تبتسم بسكينة : لا، بل تزوجتْ ثرياً يسكن العاصمة .
– متى حدث ذلك ؟
– قبل يومين .
– وهو ؟!
– اتصلي به، لا تتركيه وحيداً ... أراكِ في ما بعد .

قلت يا شرف أنّكِ ستسعديه، أي سعادة عنيتِ ؟ أرجو أن تذهبي إلى الجحيم، أحدّق في وجهكَ يا حبيبي، يعلوه شحوب غريب، ما تراكَ تكتب ؟ المكان مظلم وبارد أكثر مما يجب، كيف تراكَ تحتمل هذا البرد ؟ أدلف إلى المرسم، أقترب منكَ، أقف قريباً من مقعدك، ألمح ورودي التي أرسلتها في الصباح، ما تزال مسجونة في غلافها البلاستيكي، معظمها قد ذبل، ألم تجد وقتاً لإنقاذها من سجنها البلاستيكي ؟ أتناولها، أنسّقها على عجل في الزُهرية، لا أنظر إلى ناحيتك، ولكنّني أشعر بنظراتكَ تقترب منيّ، أنفاسك تلفح رقبتي، تهمس بصوت كأنّه آتٍ من القبر : لقد تأخّرتِ ... انتظرتكِ طويلاً، ظننتُ أنّك لن تقهري كبرياءك .
– ...
– ضميني أنا محتاج لكِ، محتاج إلى حبّكِ المتدفّق دون انقطاع .

تتهاوى بصمت في مقعدكَ الجلدي، تصمتُ، تحدّق بي، كيف لي أن أضمّ قامتك الممتدة ؟ أجلس في حضنكِ، تطوّقني، فأطوّق عنقكَ بقبلاتي، أشعر بدموعكَ تتدفَق سريعاً، أمدّ يدي إلى وجهك ،أمسح دموعك، أقبّل عينيكَ كأنّني أرجوهما،

أتوسّل اليهما، هما لا تسمعان توسلاتي، بل تقابلان دموعي بصمت، حشرجة بكائكَ تعلو، تبكي كما الأطفال، وأنا أبكي رجولتكَ الباكية، أنت لا تعرف مدى الحزن الذي يسكن قلب امرأة عندما يبكي الرجل الذي تحبّ امرأة سواها، لا تعرف ذلك الشتات الذي يسكن قلبها، لا تعرف أيّ الدموع تجتاح ذاتها، تحمل أحزاناً مستحيلة، وتقدّمها قرباناً لأحزان من تحبّ، تمدّ يدها لتمسح دموع حبيبها، وتبقى دموع قلبها دون يد تمسحها، لا بدّ أنّك شديد الحزن حتى تبكي بهذه الحرقة، أكنت تحتاج إلى حضني لتبكي شرف؟ أضمّكَ بشدة إلى صدري أكاد أسمع وجيب قلبكَ، شرف !! سأقتلكِ ماذا فعلت بمن أحبّ؟ كيف تجرؤين على إيلامه إلى هذا الحد، الويل لكِ مني.

أحدّق في تلك الورقة التي كنتَ تخطّ فيها، أأنتَ من كتب هـــذه الأشـــعار ؟ تهزّ رأسكَ، أقرأ ماكتبتَ، لا بدّ أنهّا من تخاطب في كلماتكَ، أحاول أن أمثّل الهدوء والحيادية، أقرأ كلماتكَ، ابتسم، أقول لكَ وأنا أمسح آخر دمعاتكَ : لم أعـــرف أنّـــك تكتبُ الشعر .

– نادراً ما أفعل .

– لو كنتُ مكانكَ لكتبته باستمرار، تملك موهبة جيدة .

أقبّلكَ، كأنّني أكافئك على ما كتبتَ، تقول لي بنبرة معاتبة : كنتُ أعلم أنّك ســـتأتين، لِـــمَ تأخرت ؟ أعرف أنّك لا يمكن أن تتخلى عني .

– أبداً لا يمكن .

– لقد حضرت زفافها، كانتْ سعيدة، أنا سعيد لأجلها، قالت إنّـــها لن تنساني .

– نعم، لن تنساك، لا امرأة تعرفك تستطيع نسيانك .

– ...

– هل سافرتْ ؟

– نعم ... البارحة .

أعاود قراءة ما كتبتَ، اقرأ بصوت مرتفع : " ... قد أتتك حبيبتي في ثوبها الأبيض عروساً كالقمر، كأردية السحر " .

أبتسم مقتولة ،وأقول بنبرة أحاول أن تبدو كنبرة حازمة : إذن فهي حبيبتكَ ؟

لم أقابل امرأة تحتاج إليّ مثلها، كلّ رقة الدنيا تسكن فيها... أردّد في ذاتي : كلّ رقة الدنيا تسكن فيها، بدليل أنّها تخلّت عنكَ ، ولحقتْ بأوّل رجل لوّح لها ببعض المال .

أداعبكَ، ألقي برأسي إلى صدركَ، تضمني بقوة ،أتراكَ تتخيلني هي ؟ أمّ تتمنى لو كانتْ في حضنكَ : لقد عشتُ حياتي يتيماً بلا أب يعطف علي ، لطالما حلمت بأب انتظرته في كلّ ليلة، أنا أعرف معنى انتظار أب يهب الحبّ والحماية، هي يتيمة الأب مثلي تحتاج إلى عطف، أعطيتها كلّ العطف والحبّ والحماية بل والمال، كنتُ مستعداً إلى أن أرعاها طوال عمري، كلما نظرتُ في عينيها رأيت طفولتي القاسية، كلما ساعدتها شعرت بأنّني أساعد ذلك الطفل الحائر في عينيها، في طفولتي لم يرعاني أحد، لذا قررت أن أحميها من ذلك الضياع الذي تعيشه .

أحدّق فيه، أشعر أنّني أكره شرف أكثر مما تخيلت، كيف استطاعت أن تستغلّ بخبث عواطفك؟ لا بدّ أنّها خبرتْ الاستغلال ،وعرفتْ كيف تستدر عطف من أحبّها وماله .

الثلج يتساقط في الخارج، نتابع سقوطه من خلف زجاج النافذة وتقول : أنتِ فتاة محظوظة ، وجدتِ دائماً من يحبّكِ ويعتني بكِ، أمّا هي فلم تجد غيري ليرعاها.

أقول بنبرة حانقة : ها قد وجدت زوجاً غنياً ليرعاها .

تقول كمن يعزّي نفسه : ولكنّها ستحبني دائماً .

أفاجئك بكلماتي : و لِمَ لم تبقَ إلى جانبك وهجرتك دون رحمة إن كانتْ تحبك ؟

– أنت لا تفهمين الأمر جيداً ، يجب أن تتزوج، هي ضعيفة تحتاج إلى زوج

يحميها، أنا أحبّها ولكن بطريقتي، لا تطلبي منها أن تكون بمثل قوتكِ، لا تستطيع أن تصمد مثلكِ وتقول : لا، لكلّ الدنيا، وتبقى قريبة مني، هي مختلفة عنكِ .

– لعلها لا تحبّكَ مثلي ؟

تحدّق بي، ثم تقول مستسلماً : لا يمكن أن تحبني امرأة كما تحبيني، ... أنت حالة استثنائية في الحبّ بل وفي حياتي، أعرف أنّ لقائي بكِ حدث خاص في حياتي ... منذ رأيتكِ لامستِ قلبي كما لم ولن تفعل أيّة امرأة، ألم أقل لك أنّني أحتاج إلى قوة مهولة حتى أستوعب حبّكِ المجنون، لكِ مكانة مقدّسة في قلبي، تتجاوز الحب، وترقى عنه، لكِ مكانة في قلبي لم يدركها أحد من قبل .

– وماذا عن شرف ؟

– حبي لشرف شعور تقليدي، يزول سريعاً بالسرعة ذاتها التي دخلتْ فيها حياتي، أمّا أنتِ، أمّا تقديسي لكِ، فهو لعنة لا تزول ،وأعذب ما فيها أنّها لا تزول .

أنا لعنة إذن، كم أنا محظوظة بهذه التسمية ! لعلّي محظوظة لأنّني شديدة القوة والتماسك كما تقول، أنا قوية ومتماسكة حتى أنّني لا أحتاج إلى حبّكَ، وهي ضعيفة ورقيقة لذا تحتاج حبكَ، معادلة غريبة، كيف صغتها بهذا الشكل ؟ من قال إنّ النّساء الملعونات بلعنة العشق لا يحتجن للحب والدفء أشدّ الحاجة ؟

بدأت أصدق تلك الخرافة التي حدثتني عنها جدتي باستمرار، بدأت أصّدق أنّ نساء عائلتي جميعهن ملعونات، تقول جدتي إنّ أحد أفراد عائلتها تزوج من صبية طيبة قبل مائة عام، ولكنّه كان قاسياً معها ،بل وحبسها طويلاً في البيت، ومنعها من زيارة أهلها، ظلمها كثيراً ،فدعت الله أن تُظلم نساء عائلته ،ولا يذقن طعم السعادة كما حُرمت منها، تقول جدتي : إنّ الله استجاب لها ؛لأنّها كانت مظلومة، ومن ذلك اليوم نساء عائلتي ملعونات لا يعرفن معنى السعادة، ولا يشعرن بها أبداً، لا بدّ أنّ تلك اللعنة تحصل عليها نساء عائلتي بالوراثة . أنا ملعونة،

ملعونة بكَ، ولا أعرف طعماً للسعادة بعيداً عنك، أين أنت يا جدتي ؟ لتبكي طويلاً على تلك اللعنة التي أصابتني، أنا ملعونة، وأنت تعشقين البكاء .

طوال الطريق، توقّفت لأرى أثر خطواتي على ذلك الغطاء الرقيق من الثلوج التي تتساقط ببطء، الغطاء أبيض ناصع اللون، لا أرى دمائي تخضّب بعض أجزائه، أيعقل أنّ امرأة مقتولة بل ومذبوحة مثلي، لا ينهمر دمها غزيراً على الأرض ؟! لا بد أنّ دمائي تذوب بسريّة في دموعي التي تغسل وجهي بدفء غريب طوال الطريق، الآن جاء دور بكائي، ولكنّ يدك لا تمسح شيئاً من دموعي .

في البيت أجد نورما، كم تسعدني عودتها، تضمني باشتياق حلو، تقول لي : أكنتِ معه ؟

أهزّ رأسي بالإيجاب ،أتساقط على الأريكة، أتابع كرة الثلج البلورية، التي أهديتني إيّاها في العام الماضي، تحرّكها نورما، يهتزّ الثلج، يتساقط ، ويغمر الكوخ الموجود في داخل البلّورة، صوت الموسيقى يرافق سقوط الثلج، يتوقف انهمار الثلج داخل البلورة الزجاجية، تحرّكها نورما مرة أخرى، فيعود الثلج يتساقط داخل البلورة .

تقول لي : كنتُ أعلم أنّكما سوياً، لا بد أنّكما كنتما تراقبان بسعادة تساقط الثلوج، أيّ كلمات العشق قال لك ؟ هيّا أخبريني، ألا تزالين متكتمة حوله ؟ ما أجمل العشق تحت الثلج !

– نعم ما أجمل أن يضمكِ رجل تعشقينه تحت الثلج ! يضمك بصمت حتى يغمركِ الثلج وإيّاه، تصبحان بحبكما جزءاً سعيداً من عشق الطبيعة .

تقول نورما مازحة : ويموتان من العشق .

– لا أحد يموت من العشق ، بعض الناس تموت إذا مات عشقها .

أتزيّن، أتعطرّ، أسرّح شعري، ألبس الأزرق ؛لأنّك تحبّه، أنتظر مكالمتك،

أعرف أنّك ستفعل ،وأنا أحبّ أن ألقى صوتك بطقوس اســتقبال خاصــة، أرشــف بعض الشاي من الكوب الفخاري الصغير الذي صنعته لي بيــديكَ، حفــرتَ عليــه صورة إله الحبّ عند الإغريق، يحمل قوسه وسهامه ويطير مزهوّاً بها .

يُقرع جرس الهاتف، يكاد قلبي يطير، ترتجف يداي كعادتهما كلما كلّمتني، يتــدفق صوتكَ العذب، يغرقني بهمساته، يقتلني ، ولكن بسعادة ...

(٢٠)

- سنحتفل بعيد رأس السنة معاً.
- ولكنّني لم احتفل أبداً من قبل برأس السنة.
- ولا أنا .
- فلمَ تريد أن تحتفل به الآن ؟
- ألا تستحق امرأة مثلكِ الاحتفال بوجودها في كل لحظة ؟
- لكنّكَ تحتفل بولادة عام جديد، ولا تحتفل بوجودي .
- بل احتفل بسعادتي بولادة عام جديد وأنت في حضني .
- لمَ لا ؟ لنحتفل، اين سنحتفل؟
- ألم أقل لكِ سنحتفل وأنتِ في حضني...
- لا أفهم.
- مفتاح بيتي لا يزال معكِ منذ مرضي أليس كذلك ؟
- ولكنكَ كنتَ مريضاً حينها، وكان لي عذري في زيارتكَ...
- الآن أنا مريض بمرض آخر، وبشكل مزمن، ولا داعي لأن تبحثي عن مبررات وأعذار لزيارتي .

أحدّق في ابتسامتكَ، أذوب في كلماتكَ، ليتكَ تعلم كم انتظرتُ لحظة لقائكَ، لا بدّ أنّني أنتظرها من ألف عام ، تصوّر أشواق ألف عام تنتظركَ، ليتكَ تعلم أنّني خُلقتُ لكي أحبّكَ ،تسألني إن كنتُ أخشاكَ ؟ أبتسم من سؤالكَ، كم أنتَ جاهل!! لكنني أعذر جهلكَ؛ فأنتَ لم تقابل امرأة نذرتْ نفسها لك، امرأة هي لكَ، هي جزء منكَ . أيخشى الجسد ذاته ؟ أترتاب النفس من ذاتها ؟ أتخشى الزهرة يد زارعها ؟ أنا هبة لكَ، أنا أهبكَ نفسي كما وهبتكَ قلبي وعمري .

تقول لي : سأنتظركِ .
– سأحضّر لكَ مفاجأة تدهشكَ .
– مفاجأة تدهشني أكثر من حضوركِ ؟
– نعم .
– لا أستطيع أن أتخّيل شيئاً يدهشني أكثر من وجودكِ .
– وجودي معكَ قدر، قدر لكلينا، والقدر لا يدهش بل ينتظر ...
– هل أستطيع أن أخمّن ما نوع مفاجأتك .
– افعل ذلكَ وعندما نلتقي ستعلمني بتخميناتكَ، لكَ عشرة تخمينات .
– موعدنا بعد غدٍ، الساعة الخامسة مساءً، عند الغروب تماماً .
– عند الغروب تماماً، سأزوركَ بأشواق (أرتيمس)، عندما تهبط أرتيمس بقمرها الوردي، سأكون أول من يطالع وجهكَ الشّمسي ،ويقدّم له قرابين الحبّ .
– سأتصل بكِ مساءً .
– لا تفعل، دعني أحترق بسعادة، دعني أنتظر بعد غد بشوق معتكفٍ ينتظر هلول البشارة، دع أنوثتي تنتظر رجولتكَ دقيقة بعد دقيقة .

أنا لا أخشى الدنيا، لا أخشى فكراً وتقاليداً وعادات تطعم حبّي للنار، وتصادر جسدي بتهمة العشق، لكني أتكتّم على لقاءاتنا ؛ لأنّني غيورة ،غيورة جداً، أغار من أن ألمحكَ في عيون النّساء الحالماتْ، أغار من أن يشاركني أحدٌ متعة الذكريات معكَ، ذكرياتنا ملكٌ لنا، لنا فقط ،وسأسرق عمر من يفكر بمشاركتي فيها.

من حانوت إلى آخر، أنتقل، أشتري الورود والشموع، الكثير من الشموع، أطالع تلكَ الورقة التي أكتب فيها ما علي انجازه أو شرائه قبل لقائكَ، القائمة طويلة، معظم ما كُتب قد خططتُ فوقه بقلمي، أحبّ الكتابة بالرموز؛لأنّ العبارات العادية لا تكفي أحلامي بل لا تستوعبها جميعاً، ما زال عليّ الكثير لأعمله، لكنّ

الوقت ما زال مبكّراً حتى تغيب الشمس وتحلّ الخامسة، كم أنا سعيدة، أحقاً سألقاكَ؟

أنا سألقاكَ، يا لها من فرحة ! ليتني أهدي البشر كلهم أزهاراً ابتهاجاً بلقائكَ، ليتني أخبر ذلك البائع المتجهّم بسعادتي، لقد تأخّر في الداخل، ماذا يفعل ؟ يستغرب ابتسامتي العميقة، يضع أمامي ذلك الكيس الأبيض الكبير، أتحسّسه برفق، أحلم بما فيه، أدفع النقود، أشكر أجود في نفسي، لولا ما وهبني إيّاه من نقود لما استطعت أن أحلم بما في هذا الكيس . أبدو كالراحلة بهذه الأكياس ،وبهذه الحقيبة السوداء الكبيرة .

بضع درجات تفصلني عن بوابة بيتكَ، لمَ أشعر أنهّا مسافة خرافية ؟ قلبي يضطرب بشدّة، هذا العرق وهذا النفس المتقطع أهما إشارة إلى أنّني سأصاب بذبحة صدرية بسبب تلك الإثارة التي أشعر بها ؟ يستحيل أن تصف الكلمات ذلك الشعور الذي يتملّك الإنسان قبل لقاء من يحبّ، يجعله يشعر بأنّه بين الحياة والموت، بين السعادة والبكاء، بين التقدم خطوة أو الهروب، كيف سألقاكَ، أستكون مبتسماً أم متجهّماً أم متوتّراً معي ؟ أيّ التحيات سألقي عليكَ ؟ أيّ التحيات سترتدّ بها عليّ؟ أستستقبلني واقفاً أم جالساً ؟ أين سأنام ؟ أين ستنام ؟ أيّ الروائح تسكن بيتكَ الآن ؟ في أي المواضيع سنتحدث؟ أيمكن أن أسير حافية في البيت ؟ أمرتبٌ بيتكَ أم يحتاج إلى شيء من الترتيب؟ أنا محتاجة إلى استخدام الحمام ،كيف سأطلب منكَ ذلك ؟ أم يكفي أن أتوجّه إليه من دون سؤالكَ، عندي فضول حول كلّ شيء في بيتكَ، أأستطيع أن أروي هذا الفضول ؟ أم أنّكَ من الأشخاص الذين يكرهون أن يلمس أحدٌ أدواتهم وأثاثهم ؟

شيء في بيتكَ قد تغيّر عن آخر مرة، ربما رجولتكَ الغامرة في كامل صحتها تعطي سحراً خاصاً للمكان، أو لعلّ تلك الستائر تغمر المكان بظلام هادئ، هذه المقاعد الفرعونية جديدة، لكنّها تغمر المكان بطقوس خاصة، ما أجمل هذه

النباتات ! تنتشر على طول الردهة المؤدية إلى غرفة نومكَ، كم هي نباتات سعيدة، أترويها كلّ يوم ؟ أتراكَ كلّ يوم ؟ يا لها من محظوظة ! تلك الموسيقى تغمر المكان بسحر خاص، البيت يشّع نظافة، أتساءل كم من الوقت أمضيتَ حتى غدا المكان بهذا الترتيب؟ أحدّق فيك، هيئتكَ تدلّ على أنّكَ قد حضرتَ إلى البيت قبلي بقليل.

– لقد تأخّرتِ ؟

– لا ، بل على الموعد .

تضمني، تداعب شعري وتقول : رائع، تحدّق في الأكياس و الحقيبة السوداء الكبيرة، تقول لي : ما كل هذه الأكياس ؟ أيّ نوع من العاشقاتِ أنتِ ؟!

– عاشقة بجنون ...

– أنا جائع، ما رأيكِ بعشاء فريد ؟ أنا ماهر في الطهو ،سأذيقكِ ألذّ (فيتو تشيني) في الدنيا .

– فيتو تشيني ؟!

– إنّها معكرونة إيطالية تتكوّن من المعكرونة وصدر الدجاج والجبنة البيضاء، لقد تعلّمتها من جارة لي عندما كنتُ أدرس في إيطاليا . يجب أن تذوقيها .

– نعم ...

– أستأذنكَ في نصف ساعة، سأحضر مكوّنات هذه المعكرونة من أقرب حانوت وأعود حالاً .

– وأنا ماذا أفعل ؟

– البيت بيتكِ ، تصرفي فيه كما تشائين .

– لا تتأخّرْ .

– لن أتأخر .

نصف ساعة ستغيب عني، نصف ساعة فقط، أحتاج إلى قرن كامل في

بيتكَ، أريد أن أحدّق في كل ما يحتوي بيتكَ، كل قطعة أحبّ أن أتأمّلها، أن أتساءل ما الذي أعجبكَ فيها، كم من المرات تتعامل معها في النهار ؟ في أيّ الأكواب تشرب؟ في أيّ الصحون تأكل ؟ أطالع أشرطتكَ وأسطواناتكَ ، معظمها لفريد الأطرش، بعضها بلا اسم لمغنّيها، لا أجد أيّ شريط باللغة الإيطالية ، أليس هذا غريباً ! أدير مفتاح الراديو، صوت مذيع محطة (مونتي كارلو) يقرأ نشرته الإخبارية بلغته الرصينة، أهذا هو ما تسمع في كلّ صباح ؟

ألقي نظرة سريعة على مكتبتكَ، أطالع بعض الأوراق ، قريباًمن الهاتف أطالعُ دفتر العناوين وهواتف معارفكَ، أقلبّه، أضعه جانباً، نافذة غرفة نومكَ تطل على غابة صغيرة من أشجار السرو، في الحوض المعلّق إلى جانب الناحية الخارجية من النافذة تحتوي أنثى السنونو صغارها برفق، لا بدّ أنّها اختارت هذا المكان لتكون قريبة من عطفكَ وحبّكَ .

أقتربُ من سريركَ ،أشتمُ رائحتكَ، أفتحُ خزانة ملابسكَ ، أتحسّس برفق ملابسكَ، رائحتكَ تسكن الخزانة، آخذ نفساً عميقاً تمتلئ رئتاي بالرائحة، أحقاً أنا في معبدكَ ؟ ليت أسوار هذا البيت تعلو حتى تصل أعنان السماء وتحصرني أنا وإياكَ للأبد، بعيداً عن كلّ البشر أنا وإياكَ والسعادة فقط.

أكياسي تحمل أسراراً تخصّكَ، أفتحها بسعادة كما الطفل يستقبل هدية، في كلّ الزوايا وفي كلّ الزهريات أنشر الورود التي اشتريتُ الكثير منها، أخصّ غرفتكَ بالياسمين، أغرقها بالياسمين حتى تبدو الغرفة قد نبتت بين أشجار الياسمين، مسكينة شجرة الياسمين المزروعة في بيت الضيافة، لقد جرّدتها هذا الصباح من كلّ زهورها، أنا واثقة من أنهّا سعيدة بعطيتها لي، فهي لم تُخلق إلاّ للمحبين.

قبل دقائق كان المكان يغرق بالظلام، أما شموعي التي تجاوزت المئة فقد أنارت المكان ببقع ضوئية خافتة، المكان يبدو كأنّه قطعة من السماء السوداء تكسوها النجوم اللامعة في ليلة صيفية .

أغتسل بسرعة البرق، أتعطّر، أسرح شعري كما تحبّه تماماً، مسدل وبعض خصلاته تزيّن وجهي وكتفيّ، أقدم بفرح على ذلك الكيس، بفرحة مستحيلة التكرار، أخرج الثوب منه، بياضه يغمر المكان، يبدو كأنّه قد حيك من زهور الياسمين البيضاء التي تغرق الغرفة، أضمّ الثوب إلى صدري، أمام المرآة أقربه من جسدي، أحاول أن أتخيّل جسدي يسكنه . لهذا الثوب سحرٌ غريب على المرأة، عرفتُ الآن معنى الحسرة التي تملك قلب النساء اللواتي لم يلبسن ثوب الزفاف، فرحة لبسه فرحة لا تضاهيها فرحة، لا يمكن أن تشعر بها المرأة إلا وهي تلبسه، لونه الأبيض يجتاح قلبها العاشق، يؤكّد أنوثتها تزفّ إلى رجل يحترق شوقاً إلى لقياها .

آه كم أحبّ جسدي وهو يعانق بخفر هذا الثوب ! هل اللون الأبيض يعكس حمرة خاصة على بشرة وجهي؟ أم أنّ إثارة جامحة تجتاحني كلّما تخيّلتكَ تقترب من البيت ؟ تدلف إليه، لتقع عيناكَ على ثوبي . أنا سعيدة، سعيدة إلى حدّ الموت، يبدو أنّ لهذا الثوب وقعاً سحرياً على قلبي، لطالما تمنّيتْ أن تراني أمّي به ،فأنا وحيدتها، ليتها كانت هنا لترى فرحتي الطفولية بهذا الثوب الأبيض، لتتحسسني، وتقبلنّي ثم تسلّمكَ يدي لتراقصني حتى الصباح .

زوجتكَ أنا، حبيبتكَ أنا، قدركَ أنا، قمركَ أنا ،أتوّج نفسي بتاج من زهور الياسمين يشبه ذلك الطوق الذي تعقده (أرتميس) الأسطورية على رأسها، أحدّق في تلك العروس السعيدة التي أراها في صفحة المرآة، أتأمّلها، أتأمّل ثوبها الأبيض ...

أترك غرفتكَ، أتجه إلى شموعي وزهوري، أقف بينها، هناك شمعة قد انطفأت، أدنو إليها بشمعة أخرى لكي أشعلها، الباب يُفتح، أشعر بضربات قلبي تكاد تسحق صدري، أسمع خطواتكَ تتجه إلى المطبخ، تنادي عليّ، لا أجيبكَ، بل أنتصب في مكاني كالمعاقب، صوتكَ في المطبخ يسألني عن سبب عدم إشعال مصابيح البيت؟ لا أجيب.

تدلف إلى غرفة الشموع، كلام في فمكَ يتجمّد، لا تتحرك من مكانكَ، تحدّق بي مثل طفل مسحور بألوان قوس قزح، لحظات صمتكَ ودهشتكَ تساوي كنوز الدنيا بالنسبة لي، ما أجمل نظراتكَ تداعب الأبيض ! تدنو مني، تتحسّس ثوبي وعنقي وشعري، تتحسّسني مثل طفل يريد أن يتأكّد من حقيقة ما يرى، تقول لي بنبرة دافئة : أنتِ أجمل عروس رأيتها في حياتي .

– هل أعجبتك مفاجأتي ؟

– بل أذهلتني .

– هل توقعتها ؟

– لو أعطيتني ألف فرصة لأخمّن مفاجأتك لما استطعت أن أتنبأ بمفاجأتك المستحيلة، لما استطعت أن أتوقّع هذا الثوب ، وهذه الزهور وتلك الشموع .

– كانتْ ستفرح أمي لو رأتني بهذا الثوب ...

– أيّ الأفكار تدور في رأسكِ الصغير، أيّ الأحلام تسكنكِ ؟!

– لا أتخيّل أن ألقاكَ بغير ثوب الفرحة، بغير ثوب الزفاف، لقد انتظرت لألفِ عام كي أرتدي هذا الثوب وألقاكَ به، لن ألبسه بعد هذا اليوم، لن ألقى رجلٍ بفرحة لونه وأشواق انتظاره، تأمّلني به، دعني أرى فرحته في عينيكَ، بعد هذه الليلة لن ألبس الثوب الأبيض، فقط لون كفني سيكون أبيض .

– أرتميس، أيُّ النساء أنتِ ؟ أيُّ الأقدار قد ادخرتك لي، ما أطول انتظاري لكِ، انتظار كاد يشيخ صاحبه وما شاخ هو .

– ألا يستقبل الأبيض بالأحضان ؟

تضمني إلى صدركَ، تطوّق جسدي بيديكَ، يحدثني ثوبي بسعادته بهذا الرجل الساحر الذي يطوقه بحرارة، تشدّني من يدي كما الطفلة إلى حيث مكتبته، تُخرج آلة تصوير فوتوغرافية، تستعد لالتقاط صورة لي، أسألكَ : ماذا ستفعل ؟

– سألتقط لكِ صورة لا يمكن أن تمرّ هذه الليلة دون أن أخلّدها بالصور .

آخذ آلة التصوير من يدكَ، أعيدها إلى حافظتها الجلدية، أدسها في درج المكتب، أحادثكَ كما نحادث صغيراً مستثاراً :– ليست الصور من تخلّد الذكريات، بل تخلدها أرواحنا السعيدة، وقلوبنا العاشقة، لا تحصر سعادتنا وذكرانا في صورة صمّاء، لا تجعل سعادتنا مسجونة في صورة باردة، بل دعها تحلّق حرّة في قلوبنا، وتعيش طليقة في سماء ذاكرتنا ما حيينا وما عاش حبنا، عاش حبّنا، عاش حبنا .

قلت إنّك ستغيب للحظات ،وها قد مرّتْ ربع ساعة، ولا تزالُ في الداخل، هذه الدقائق تساوي احتراقي في انتظاركَ لسنوات طويلة، أسمع صوت الماء يتدفّق في الداخل، أشمّ رائحة الصابون، صمت المكان يجعلني أشعر بحركاتكَ، كأنّكَ تصمّم على أن تستحم وأنا عندكَ، أترقّبكَ، أنتظر رجولتكَ، تهلّ عليّ ،تغمرني بأريجها، تجلس على الأريكة، صدركَ العاري يندفع بسحر إلى الأمام، شعركَ الشّمسي رائعٌ وهو مضمخ بحرارة الاغتسال، أقترب وأجلس قريباً منكَ، ثوبي الأبيض يكسو جسدي ومعظم جسدكَ، أجعل يدكَ مخدعاً لقبلاتي الحارة والمتتالية، رائحة أديمهما تعبق برجولتكَ، أبتسم ، وأقول لكَ كمن وجد كنزاً في مكان قد راهن عليه :– رائحتك ساحرة .

كم تمنّيتُ أن أراقصكَ، أن أقطع في رقصي آلاف السنين الضوئية، وكأنّ غفلة الأمنية قد أصابت عطف الحقيقة، ها أنا أذوب في حضنكَ، يدكَ الدافئة تدفعني نحو سحر صدركَ العاري، تطوقني برجولتكَ، لساعة كاملة أراقصكَ، أذوب معكَ

في مراقص المستحيل، أنا متأكّدة من أنّني أراقصكَ في الفضاء محلقةً بين وهج النجوم، أفتح عيني، المكان يغرق في سحر شموعي، وجهكَ يحفظ قسماتي، أدرك أنني في السماوات ، أعود إلى صدركَ، وأغلق عيني لأترك الموسيقى تذيبني وتذيبكَ وتذيب شموعي وزهوري، ليتني أستطيع أن أراقصكَ بين النجوم إلى الأبد.
لساعة أخرى نرقص سوياً، تختار شريطاً آخر، صوته يبدو أعلى من سابقه، باتَ الوقت متأخراً، تضمني من جديد، تزرعني في عالم من الأمنيات المستحيلة، لا بد أنّ صوت موسيقتنا يبدّد سكون الشارع، ويتخلل إلى بيوت الجيران، أهمس في أذنكَ : أخشى أنّ صوت الموسيقى يصل إلى الجيران .

– ليصل ...

– ماذا سيقولون ؟

– سيقولون :– عاشقان سعيدان، لا شأن لنا بهما .

– ألا تخشى الأقاويل ؟

– بل أخشى عدم الأقاويل ؟

ابتسم لكلماتكَ ،تدعوني إلى مرافقتكَ إلى المطبخ، ستطهو لي، أما أنا فسأراقبكَ، تحدّق في ثوبي، تسألني بفضول : ألن تخلعي هذا الثوب ؟ سيتسخ إذا دخلت المطبخ وأنتِ ترتدينه.

– وماذا ألبس بدلاً منه ؟

– ألم تحضري أيّة ملابس معكِ ؟!

– لا .

– كلّ ما حملتِ كان ورداً وشموعاً ؟

– نعم .

– ألم تتهيئي لخلع ثوبكِ ؟

– كنتُ أظن أنّ البشر في الجنّة لا يخلعون أثواب سعادتهم .

– بل يفعلون إذا كانوا في أحضان من يحبّون .

منامتك تبدو مضحكة عليّ، لكن سعادة كبيرة تغمرني وأنا ألبسها ،رائحتكَ تسكنها، جسدي سعيدٌ ؛لأنهّ يلامس قماشاً قد لمس جسدكَ من قبل، تغلق الخزانة بعد أن تطوي الثوب في داخلها، تقول : حقاً هو ثوب جميل، لا بدّ أنّ ثمنه باهظ .

– لم أشتره بل استأجرته بربع قيمته .

– ممن استأجرته ؟

– من محل متخصص ببيع وتأجير أثواب الزفاف .

– من أين حصلتِ على المال لاستئجاره ؟

– سرّ .

– أنا جاد في سؤالي .

– استأجرته من النقود التي أعطاني إياها أجود مقابل عملي في حانوته .

– إذن فقد بدّدتِ كلّ ما جمعتِ في الأشهر الماضية على ثوبٍ واحد ؟!

– ثوب لن يتكرر ارتدائي له مرة أخرى، لا بدّ أن فرحة ارتدائه تساوي الدنيا بالنسبة لي .

– مجنونة ...

– بحبكَ ...

تناول الطعام معكَ متعة مدهشة، مراقبتكَ وأنتَ تأكل تشعرني بحنو غريب نحوكَ، أتخيّلكَ كالطفل البريء يأكل خبزته غير معنّىً أو مشغول البال، أمّا مراقبتكَ وأنتَ تطهوفحادثة سعيدة في حياتي، أتابع حركاتكَ في المطبخ، أحفظ كلّ حركة تقوم بها، أتابع مراحل طهيكَ للطعام، أحاول أن أساعدكَ، تعترض على ذلك وتقول : أنتِ ملكة متوّجة في هذا البيت، اجلسي وراقبني، وجودكِ أكبر مساعدة لي. بحركة من يديكَ القويتين، ترفعني وتجلسني قريباً منكَ على إحدى طاولات

المطبخ الرخامية، عندما أصمّم على أن أساعدكَ في غسل الصحون، تسخر من عملي بنبرة ضاحكة، تداهمني من الخلف ، وتطوقني بيديكَ، تقبّل يديّ ، وتقول : غسلكِ للصحون يشبه غسيل جدتي لها ...

– وكيف كان غسل جدتكَ للصحون ؟

– مثل غسلكِ لها : سريع وغير نظيف .

تسترخي أرضاً على إحدى الحشايا الفرعونية، أجلس قريباً منكَ، تمسك بيديّ ، وتدعوني إلى أن أكون في حضنكَ، تداعب شعري بعض الوقت، تطوّقني من جديد، وتغني أغنية من أغاني فريد الأطرش الذي تحّبه بشدة، صوتكَ يشبه صوته، ولكن نبرة صوتكَ أشدّ حزناً، لا بدّ أنكَ لم تغنِ هذه الأغنية من مدّة طويلة، لذلك تنسى بعض مقاطعها، لكّنكَ كلّما نسيتها أساعدكَ في تذكّرها، تبتسم من نسيانكَ لبعض مقاطعها، لكنّكَ تستمر في الغناء، لا بدّ أن قسماتي تنقل لكَ مدى تأثري وسعادتي بسماع غنائكَ .

تنهي أغنيتكَ، أحيّيكَ على حسن أدائكَ بسيل من القبل، تدفعني نحو صدركَ تقول لي: عندما أكون معكِ أشعر بأنني في الجنّة .

– أمّا أنا فمتأكدٌ تماماً من أنني في الجنّة .

– أعبدكِ، لقد انتظرتكِ طويلاً، كدتُ أيأس من لقائكِ، لم تأخّرتُ عني ؟

– لمَ سبقتني وجئت قبلي إلى الدنيا ؟

– لمَ تحبيني بهذا الجنون ؟ ماذا فعلتُ لكِ لتحبيني إلى هذا الحد ؟

– لقد خُلقتُ لكي أحبّكَ !!!

أتناول دفتراً صغيراً أسجّل عليه بعض ملاحظاتي، تسألني عيناك عما في الدفتر، أُجيبهما: هذا دفتر أكتب وأجمع فيه بعض الأفكار، التي أرغب في أن أقولها لكَ، سأنشدكَ قصيدة رائعة للشاعر إبراهيم ناجي :

يا شطر نفسي وغرامي الوحيد ما شئت يا ليلاي، لا ما أريد

من أيّ كون جئــت ؟ لم أعلم — **يا نفحـــــة من نفحات الخلود**

هيا ! أجــل هيــا ! إلى أينا ؟ — **لحيث نحكي حلــم روحينـــا**

لحيــث نروي ســرّ قلــبيـــنا — **فإن فرغنا من حديث نعيــد**

أيّ مكـــأن بهــوانـــا يضــيق — **فامضِ بنا، إلى زحام الطريق**

في ظل حبـــينا رحـــيب طليق — **وكل ّركن طيب في الوجــود**

من أنتَ؟ لا أدري، ولا من أنا — **فيا إله الحـــبّ ماذا اسمنـــا؟**

إنّا حـــبيـــبـــان، وذا حبـــنـــا — **إنّا وليـــدان ، وهــــذا وليد**

– نعم يا شطر نفسي، ما شئتَ لا ما أريد .

– حدّثني عن حياتكَ .

حديثكَ يبعث السعادة في قلبي، مراقبتي لقسماتِ وجهكَ، تشعرني بالغبطـــة، أحفظ كلّ كلمة تقولها، بل وكلّ كلمة لا تقولها، حتى سؤالكَ عن فــضيله أحفظـــه، تسألني عما حدث مع كاظم؟

– لم يكن موفقاً، لقد استدعاه الجيش العراقي لينخرط فـــي جيوشـــه فـــي الحـــرب الإيرانية–العراقية، يبدو أنّه سيضطر لتأجيل دراسته عاماً آخر.

– وستنتظره فضيله عاماً آخر؟

– لعلّها ستفعل .

– أما زال يراسلها ؟

– بانتظام ودون قطيعة .

اصمتْ ، تدهشني نظراتكَ ، أحاول تجاهلها، تقول لي : من أيـــن ورثـــت عينيـــكِ وبشرتكِ؟

– أبي يقول إنّني أشبه جدتي .

– ماذا عن أمكِ ؟ ألا تشبهكِ ؟

أخرج من حقيبتي النسائية صورة لأمي أحتفظ بها، تتفرّســـها جيـــداً، تردّهـــا الـــيّ

وتقول: جميلة، لكنّها لا تشبهكِ أبداً، أعني أنتِ لا تشبهينها .
– لا يمكن أن أشبه أيّاً من نساء الدنيا، أنا مختلفة تماماً عن كلّ نساء الدنيا، مختلفة بحبي لكَ وعشقي لكَ، من تعرفكَ تصبح امرأة أخرى ،ولا تشبهها أيّة امرأة ولو كانتْ أمّها.
– هيا إلى النوم ...

تمسك بيدي، تقطع بي الردهة الصغيرة، تدلف إلى غرفتكَ، حيث سرير نومكَ، تستلقي في الفراش ،وتتوقّع أن أنضمّ إليكَ، أتجمّد في مكاني، أتساءل في نفسي عن معنى دعوتكَ، لا بدّ أن نظراتكَ تقرأ بذكاء ما يدور في خلدي، أتذكّركَ كعادتكَ تتحدث عن الشعراء العذريين، تسخر من أشعارهم، وتشكّكُ في عذريتهم، تستنكر عليهم ذلك العشق الذي ينقل مشاعره وأشواقه عبر الأثير، تصف هذا النّوع من الحبّ بأنّه مجرد جلوس على أحجار متقابلة وإهدار غبي للحبّ والشّباب.
أتساءل أيّ الكلمات ستصوغها الآن، تغادر فراشكَ، تشدني من يدي، وتعود بي إلى سريركَ، تضمني بحنان غريب، تقول لي : ألا تشعرين بالأمان معي ؟
– لا أشعر بالأمان إلا معكَ .
تقبّل يديّ بقدسية خاصة، تضمهما نحو صدركَ تقول : الرجال أيضاً يعشقون بعفّة، بل يعفّون إذا أحبّوا بصدق، لطالما أخبرتكِ بأنَ مشاعري نحوكِ لا تصنّف تحت اسم الحبّ بقدر ما تصنّف تحت اسم التقديس والإجلال، أنا أقدّسكِ، أخشى عفتكِ، أصمتُ أمام جبروت عشقكِ، لا أملكُ إلاّ أن أنحني بإجلال أمام حبّكِ، وأطير بكِ إلى السماوات العُلا حيث الطهارة والعّفة .أتفهمين معنى ما أقول؟
– وماذا عن سخريتكَ من العذريين ؟
– كلّميني عن حبيّ ،أنا لا عن حبّ غيري ...

كلماتكَ تذيب أسئلتي، لتنتحر شكوكي ، وتفنى للأبد، أقبّل يديكَ، أقبّل

قدميكَ، تدهش من طقوس قُبلي، أمسح على جبينكَ ،وأقول : لطالما حلمتُ بأن أقبّل الأرض التي تدوسها قدماك .

كما الغصون يلتف جسدكَ على جسدي، أشعر بدفء جسدكَ يجتاح جسدي، أتكوّر في حضنكَ، وأترك لكَ مهمة مداعبة خصلات شعري، أقول لكَ :

– عدني بأنّكَ ستهبني طفلة منكَ في يوم من الأيام .

– طفلة واحدة فقط ؟

– نعم طفلة تملك جمال جسد أبيها الملك، نظراته الساحرة، وروحه الطيبة، وذاته الموهوبة، طفلة تملك باختصار سحرك .

– وتملك قلب أمّها الفيّاض بالحب، وعينيها الساحرتين، لا بدّ أنها ستكون ذات سحر قاتل .

– سنسميها أحلام ...

– لِمَ أحلام ...؟

– أحلام أمها وأبيها، أحلامهما المستحيلة تتحقّق ،وتكون حقيقة بها .

– إذن سنسميها أحلام .

تدثرني بدثاركَ، لا بدّ أنكَ تشعر بتعب شديد بعد هذا السهر الطويل، أتكوّر بشدة في حضنكَ، تقول باسماً : لقد ذكّرتني بقطتي .

– أيّ قطّة تعني ؟

– أنا أحبّ القطط، عندما كنت في إيطاليا اقتنيت قطة سيامية، كانت قطة مدهشة كانتْ تحبني، ولا تكاد تفارقني، تثور غاضبة إذا انشغلت عنها بدراستي، بل إنّها تحاول أن تلفت انتباهي إليها بأيّة طريقة، كانتْ قطّة ذكية، عندما خطبتُ زوجتي، وأصبحت أوليها كلّ اهتمامي، بدأتُ أشعر بتغير كبير في سلوك قطتي . أصبحتْ دائمة الحزن ،لا تأكل ولا تشرب، بعد ذلك كرهتْ زوجتي القطط ،ولم تتقبّل وجود القطّة في البيت، اضطررت إلى أن أهديها لأحد الأصدقاء كي يربّيها في مزرعته،

بعد أيام علمتُ أنّ سيارة دهستها ، وهي تحاول العودة إلى بيتي، لطالما كرهتُ زوجتي ؛ لأنّها قست على تلك القطة المسكينة .

– أتؤمن بأنّ الحبّ طاقة غير محدودة القوة تستطيع أن تنجز المستحيل ؟

– بالطبع .

– إذن ثق تماماً في أنّ روح تلك القطّة العاشقة لكَ تسكن جسدي ،وتقول لكَ إنّ حبّها لكَ جعلها تسكن جسد آدمية كي تلقاكَ، وكي تنعم بقربكَ وحبّكَ .

– يا سيدتي الاستثنائية، قولي لقطّتكِ المشاكسة التي تسكن جسدكِ: إنّني أعشقها، وأعشق الجسد الذي تسكنه، قولي لها إنّ القطط العاشقة لا تقل إدهاشاً عن النّساء العاشقات تماماً مثل عشق المرأة التي أحضنها الآن .

– القطّة تقول لكَ : ميو ، ميو .

– نامي يا قطّتي، دعيني أنعم بضمكِ، دعيني أستيقظ لأجدكَ في حضني .

– عندما دخلتُ بيتكَ كنا في العام الماضي، نحن الآن في الساعات الأولى من العام الجديد، فعلياً قد حضنتني لمدة عام، عام كامل وأنا في حضنكَ ...

– وما زلتُ بحاجة إلى حضنكَ ، إلى التأكّد من أنني أحضنكَ، لا أكاد أصدّق أنّكَ بين يديّ، أنّكِ تهمسين بكلماتكِ في أذنيّ، أنّكِ تعشقيني من دون كلّ البشر .

– منذ أن ودّعت الطفولة لم يندس أحدٌ في سريري ليضمني، ليحكي لي قصة، ليصبّ في أذنيّ آلاف الخرافات ... احكِ لي حكاية .

– أيّ الحكايات تريدين أن أقصّ عليكِ يا صغيرتي ؟

– اختر أنتَ الحكاية، واترك لي متعة الترّقب والاستماع .

– سأحكِ لكِ قصة (عقلة الإصبع) ... كان يا مكان في قديم الزمان، ولد صغير بحجم عقلة الإصبع، كان له إخوة ثلاثة، كانوا يستهينون به بسبب صغر حجمه، وفي يوم من الأيام ...

– ماذا حدث في يومٍ من الأيام ؟

أمتعبٌ أنت يا حبـــيـــبـــي ؟ ما أجملك من نائم ! أراقـــب تلـــك التعـــابير الراضية على وجهكَ الدافئ، أتتبسم وأنتَ نائم ؟ أيّ روح تسكنكَ ؟
أتتحسس ذراعيك اللتين تحيطان بي، أقبّلك، ثم أقبّلك، كـــأنني مـــسافرة لكـــن إلـــى حضنك، أقترب من أذنك أهمس بصوت خفيض، خفيض جداً :-
أنا أحبّكَ، أنا أحبّكَ كما لم يحبّكَ يوماً بشر ...
أتوّقع في كلّ لحظة أن ينبت جسدكَ الآن الأوراق والأغصان لتمتدّ وتغرقني وإيّاكَ في كساء أخضر تعلوه آلاف الزهرات والزهرات، وتسكنه بلابل عاشـــقة، كـــساء أخضر نرقد فيه آلاف السنوات بدعةٍ وسلام بعيداً عن فضول البشر .

قسماتكَ الراضية تنبّئ بنوم عميق، أما أنا فلا أستطيع النوم، كلمـــا غفـــوتُ أراكَ في أحلامي، أتصدّق أنني في حضنكَ ولكنني ما زال أحلم بكَ ؟ أستيقظ بـــين الفينة والأخرى، أتأكدّ من أنّكَ في حضني، أفرحُ بشدة بكنـــزي الذي أنعم به مـــن دون كلّ البشر، أقبّلكَ وأعود إلى لقائك في أحلامي.

رائحة البيض المقلي تملأ المكان، لا بدّ أنني قد غفوت متأخرة، لستَ إلـــى جانبي، قريباً من السرير على المنضدة الصغيرة صينية تحتوي على البيض المقلي والجبن وعصير البرتقال تعلوه وردة حمراء، رائحة البـــيض شـــهيّة، مقلـــي هـــو بالطريقة التي أحبّها ،لا بدّ أنّ لنا ذوق واحد في الطعام بل وفي كثير من الأمـــور، أنا لم أقابل طوال حياتي إنساناً يستطيع أن يـــدركني، أن يـــرقص معـــي رقـــصة الجنون، أن يتحسس ذاتي وأشواقي، مثلك أنتَ، يقول أرسطو في تفسير الحـــب: إنّ البشرَ يخلقون على شكل ثنائيات ثم يرسلهم الإله إلى الحياة الدنيا على شكل كرات، فإذا كُتبَ لهذه الثنائيات أن تلتقي في مكان واحد وزمان واحد، فقد كُتب لها عشق لا يتكرر وسعادة لا تنضب، لاشكّ في أنّكَ جزئي الذي خُلقتُ معه، بحثتُ عنـــكَ فـــي

أزمان وأماكن طويلة ،وها أنا ألقاكَ لنعيش سعادة لا تنضب .

أهجر فراشي، أكياسي وبعض لوازمي تغرق المكان بالفوضـــى، الـــشموع ذائبة حتى الانتهاء ،أجدكَ واقفاً في الحمام تحلق ذقنكَ، رائحة عطري تفوح منـــكَ، الكثير من أدوات زينتي وأمشاط شعري تنتشر في الحمام، أراقبـــكَ وأنـــتَ تحلـــق ذقنكَ، تبتسم لي بحذر خوفاً من أن تجرح نفسكَ تقول :-

- فطوركِ جاهز .
- سأنتظركَ ،لا شكّ أنك تدللني أكثر من أمي .
- لو عرفت والدتكِ أنك في حضني لأحرقتني .
- بل لشكرتكَ ؛لأنك تسعد ابنتها كما لا يمكن لبشر أن يفعل ...
- هل ألقيتِ نظرة من النافذة ؟
- لا، لماذا ؟
- الثلج يغمر المدينة .
- حقاً ؟!

تبتسم لي وتقول :- يبدو أنّكِ ستكونين ضيفتي السماوية لعدة أيام، سنسجن ســـوياً، أرجو أن لا تتبرّمي من إقامتكِ الجبرية في بيتي .

- بل إنّ الطبيعة الطيبة بذلت ما في وسعها لتهبني مزيداً من السعادة معكَ ...

(٢١)

قوالب الكعك جميعها تبدو شهية، كعكة الفراولة كبيرة، كعكة الشوكولاته تبدو مناسبة ،لكنّكَ لا تحبّ الشوكولاته، كعكة البندق أكثر مما يستطيع أن يأكل اثنان، أحبّ كعكة الفراولة ،لكنّها تبدو غير طازجة، لن آخذ كعكة الكريما ،فأنا أعرف أنكَ تتبع حمية دائمة ،ولا تميل إلى الأطعمة الدّسمة، سأختار كعكة المكسّرات، أنتَ تحب المكسّرات، أراقب صبي حانوت الحلويات ينقل الكعكة بحرص من الثلاّجة الزجاجية، ويضعها باهتمام في صندوق ورقي يحمل اسم وشعار الحانوت، يسألني إن كنتُ أرغب في كتابة بعض الكلمات على القالب، أقترب منه ،أهزّ رأسي بالإيجاب، يمسك الصبي لفافة أسطوانية من الورق مملوءة بالكريمة، يسألني إن كانتْ المناسبة عيد ميلاد، أهزّ رأسي بالإيجاب، يعود ويسألني: هل هو طفل أم طفلة ؟

ابتسم وأقول : طفل ...

– ماذا تريدين أن أكتب له ؟

– اكتب له : " إلى حبيبي هيليوس ... عقبال ألف عام " .

– اسم الطفل غريب، أم أنّ هيليوس اسم الدلال ؟

– نعم اسم الدلال هو هيليوس .

– حقاً !!

أحبّ أعياد الميلاد تماماً كما أحبّ الاحتفالات، في طفولتي كان حفل عيد ميلادي هو الحدث الأكثر إدهاشاً لي عبر العام كلّه، شراء الكعكة وتعليق الزّينات ونفخ البالونات وشراء ثوب جديد، ودعوة الأصدقاء والأقارب، كانتْ الطقوس التي أبات طوال أيام قبل عيد ميلادي أحلم بها ،وأراقب بفرحٍ استعدادات أمي لها .

أحبّ أن أدعو الكثير من الأصدقاء والأقارب، أسعد بمشاركة الناس وضحكات الأطفال، أمّا الليلة فلا أرغب بأيّ ضيوف، أريدكَ فقط، لا أريد غيركَ، ستكون احتفالي وحضوري وسنين عمري .

لم أعرف أنّ الإعداد لحفلة يحتاج كلّ هذا التحضير، لعلّ إصراري على أن يكون هذا الحفل حدثاً لا ينسى في حياتك يجعلني أبذل الكثير لكي أرضى عن حفلة تعدّ لمليك قلبي، لا بدّ أنّكَ ستفتقد زيارتي اليومية لك في المتحف، ستضطر إلى أن تشرب قهوة الصباح وحيداً،فقط هذا اليوم ستتشربها من دوني، أعتذر لغيابي المفاجئ، لكن الحفلات هكذا يجب أن تكون مفاجِئة، عندما دخلتُ إلى بيتكَ شعرتُ ببعض الذنب ؛ لأنّني أدخل بيتك من دون إذن، لأول مرة أدخله من دون علمك، ومن دون أن تكون في انتظاري .

بعد أن أنهي نفخ هذا البالون أنهي جميع التحضيرات، ما أجمل هذه الزهور تغرق المكان !
ستقول كعادتكَ : إنّ الزهور كثيرة، يكفي زهرة واحدة للتعبير عن مشاعر الحب، لا داعيَ للمبالغة. ليتكَ تعلم أنني لا أبالغ ،وأنّ عشقي يحتاج لآلاف الزهرات للتعبير عنه، ليتني أستطيع أن أهدي الزهر لكلّ البشر بمناسبة عيد ميلادكِ، ليتني أملكُ أن أزيّن الدنيا بأطواق الياسمين لينعم البشر بشيء من سعادة قلبي وفرحة روحي .
الشموع جميلة بالذات تلك الغارقة في ركائز الشمعدان الفضية، ما أكثر البالونات ! ليتني أستطيع أن أدفع بعضها إلى الشارع، سيفرح أطفال الجيران بالتقاطها، ستستشعر طفولتهم فرحة قلبي وسعادتها بميلادكَ ،وإن لم يدركوها تماماً، تلك الزّينات رائعة، لطالما أحببتها بألوانها اللامعة وأشكالها المفرحة، لا أصدّق أنني

استطعت أن أنهي تزيين المكان في ساعتين فقط، لا بدّ أن حبّـكَ يمـدّني بطاقـة مدهشة تستطيع تحقيق الكثير .

لا بد أنّكَ في الطريق إلى البيت، ولا بدّ أنّكَ غاضب بسبب اختفـائي هـذا اليوم، عندما تدلف إلى البيت، وتراني ألبس منامتكَ وأنتظركَ بشوق ستعرف سـبب سلوكي، وتغفر لي ذنبي، أشعر بأنّ ساعات هذا النهار كانتْ بطـول دهـور، منـذ شهور لم نفترق لأكثر من ثلاث أو أربع ساعات، بعد دقائق سأكون فـي حـضنكَ، سأطوّقكَ ، وأقول لكَ : كلّ عام وأنتَ بألف خير لمـن تحبّـكَ، كـلّ عـام وأنـتَ حبيـبي.

أتفقّد سريعاً جميع ما حضّرتُ، الكعكة والسكاكر والعصير تنتظركَ بشوق، الزينة تهيء نفسها لمفاجأتكَ، الشموع تعدّ لحظات ذوبانها لكي تلقاكَ، ألقـي نظـرة أخيرة على نفسي في المرآة، الأقراط تلمع على الرغم من الضوء الخافـت الـذي يغمر المكان. زينتي جميلة، عطر الياسمين يفوّح مني، أتحّسس عنقي، أفتقـد ذلـك الطوق الذهبي، لأوّل مرة منذ أربعة سنين لا أجده يطوّق عنقي، لقد أحببتـه جـداً ليس فقط لأنّه جميل أو لأنّ جدتي أهدتني إيّاه بمناسبة إنهائي للمرحلة الثانوية ،بـل لأنّكَ كنتَ تحبّه ، وتقول له : كم أنتَ محظوظ ،لأنّكَ تطوّق عنق من أهوى . ألقـي نظرة على الشموع والزهور والكعكة، أتخيّل سعادتكَ بهذا الحفل، سعادتكَ تـساوي أكثر من ذلك الطوق الذهبي، سامحيني يا جدتي، أعرف أنّكِ ستغفرين لي بيعـه إذا علمتِ أنني احتجت ثمنه للتحضير لهذه الحفلة، لا بد أنكِ تحبين سـعادتي ،ولهـذا أهديتني هذا الطوق، وأنا أحبّ إسعاد الرجل الذي أعشق لذلك بعت ذلـك الطـوق، سامحيني يا جدتي، أنا لا أحتاج إلى هذا الطوق لكي أتـذكرك باسـتمرار، ولكـي أعرف كم تحبيني ...

لا تتوقع وجودي، لكنّه يسعدكَ، أتعلّق برقبتكَ، أغرقك بقبلاتـــي، تتـــصّنع غضباً طفولياً بسبب غيابي عنكَ، أمسكُ بيدكَ، وأدلف معكَ إلى غرفة الاستقبال، في لحظة تفهم ما يجري، الفرحة في عينيكَ ، تقول : أنا سعيد .

تضمني، بيديك القويتين ترفعني عن الأرض ، تقول : ما هذا يا مجنونة ؟

– عيد ميلاد سعيد يا حبـــيـــبـــي .

– هو سعيد ؛ لأنّك تحضرينه .

– قل لي إنّه أجمل عيد ميلاد رُتّب لك .

تبتسم وتقول بنبرة خافتة : بل هو عيد الميلاد الوحيد الذي أعد لي، أنـــتِ الإنـــسان الوحيد الذي احتفل بعيد ميلادي ...

– إذن ستذكر هذا الحفل دائماً ؟

– إلى الأبد، وسأذكر دائماً تلك المرأة المدهشة التي جاءت مـــن المجهـــول لتـــسعد قلبي، ولتهبه فرصة أخيرة للسعادة، قولي لي يا شعبي العاشق أيّ الأســـرار أملـــك حتى تحبيني إلى هذا الحد ؟ ماذا قدّمتُ لكِ لتهبيني كل هذا العشق ؟

ابتسم لك، أطوّق وجهكَ بكفيّ، أقول لكَ جملتي المعتادة، التي تزرع علـــى شـــفتيه ابتسامة رضىً : لقد وُلدتُ لكي أحبّكَ .

كعادتكَ تستحم، تتعطّر، أما أنا فأنتظر باحتراق رجولتكَ تقترب مني، تجلس إلى جانبي على الأرض ، تسند ظهركَ إلى المطارف الفرعونية التي تتجمع بالقرب من الطاولة الفرعونية القصيرة، تحدّق بالكعكة، تقرأ بغبطة ما كتبتُ عليها، تراقـــب الشموع تذوب برفق، تعدّها ،فتجدها بقدر سنين عمركَ، تبتـــسم ، وتقـــول : هـــل أصبحتُ كبيراً إلى هذا الحد ؟

– أحببتُ أن أتأكّد من أنّكَ لا تزال شاباً ، وأنّكَ تملكُ رئتين قويتين .

– كيف استطعتِ أن تهيئي كلّ هذه الأمور ؟

– اليوم ركضت في البيت ما يساوي عشرة كيلو مترات كي أنجز الأمـــر قبـــل أن تأتي .
– من أين لكِ بكلّ هذه النقود لتحضري مثل هذا الحفل ؟
– لقد أعطاني إياها أجود مقابل عملي في حانوته .
– ألم تنته هذه النقود ؟
– اليوم انتهت ...

تغافلني، تنقضّ بأنفاسك على تلك الشموع المزروعة في جسد الكعكة، هواء زفيرك قويّ يطفيء كلّ الشمعات بل ،ويحرك غطاء الكريما ،ويكشف وجه الكعكة، يا لكَ من طفل صغير! أحبّكَ حتى لو لم تملك رئة قوية أو جسدٍ فتيّ .

أقدم لك هدية عيد ميلادك، تفتحها، تدّس الخاتم الموجود فيها في إصـــبعك، تدني يدكَ وتبعدها، تقول : خاتم جميل، يختلف عن ذوقي، لكنّني أحبّه، لأنّـــه مـــن اختيارك .
– تستطيع أن تستبدله إن لم يعجبكَ .
– لن أبدلّ شيئاً اخترتيه لي .
– لا تخلعه من إصبعكَ، سأعرف أنكَ تتذكرني وتحبني ما دمت تلبسه .
– أتذكركِ من دون خاتم يذكرني بكِ .
تطالع البطاقة المرفقة بالهدية، تقرأ كلماتها، تقرأ بصوت خفيض، ويرددّ قلبي كـــلّ كلمة تقرأها :–
حبيبي هيليوس :
للبشر أعياد ألفوها ...
ولقلبي وقلبكَ عيدٌ ... هو يوم ميلادكَ .
عشتَ عظيم هذا العيد .

... وينـــزل الغيث

مع كلّ الحبّ : أرتميس .

– ماذا تعنين بجملة (وينـــزل الغيث) ؟ لم أفهم قصدكِ ؟

ابتسم لكلماتكَ، أعود بالذكرى إلى شهور مضتْ، أتذكّر تلك الكلمات المكتوبة علـــى قصاصة صغيرة تدفعها إليّ مع صبي حانوت الورد ، تـــستقبل ورودي ، وترســـل إلىّ بصمت: ((حبيبتي أرتميس ... "وهو الذي ينـــزّل الغيث من بعـــد مـــا قنطـــوا وينشر رحمته" الشورى ٢٨ مع كل حبي هيليوس)) أتفاءل بكلماتـــكَ التـــي تحمـــل بشارة من الخالق بقرب الفرج والرحمة، أتسلّح بها ضد التـــشاؤم واليـــأس الـــذي أكرهه، وأنتظر أن ينـــزل الغيث .

تقطع شيئاً من الكعكة، تضعه في صحن واحد، تدّس لقمة فـــي فمـــي ثـــم أخرى في فمكَ وثالثة في فمي، تعلق الكريما بين أصابعكَ، أنتَ تكره الكريما ،أمّـــا أنا فأحبّها، ألعقها كما الطفل عن أصابعكَ، تدفعني نحو صدركَ، تربتُ بعطف على كتفيّ ، يغرق رأسي في حضنكَ، لا أراكَ، لكنّي أدرك ذلك الطيف مـــن الـــصمت يجتاحكَ، بعض الشموع تذوب تماماً، ضوء المكان يخفـــتُ قلـــيلاً، تدنـــدن بعـــض الكلمات، ثم يعلو صوت غنائكَ العذب (**مش كفاية يا حبيبي**) .

دائماً أحببتُ فريد الأطرش وهو يغنّي هذه الأغنية، أمّـــا عنـــدما أســـمعها بصوتكَ ،فتصبح الكلمات أكثر جمالاً ،والألحان أكثر رقّة، تعرف أنني أحـــبّ هـــذه الأغنية ،لأنّها قدّمتْ في فيلم رائع مقتبس عن رواية اسمها (**رســـالة مـــن امـــرأة مجهولة**) لكاتب مدهش اسمه (استيفان زفايغ)، لا زلت أحتفظ بنسخة خاصة من هذه الرواية، عندما حدّثتك عن موضوع تلك الرواية التي تدور حول عاشقة متيّمـــة تحبّ بإخلاص وصمت حتى تموت، استغربت من هذا الحب ،وقلت : هل يعقـــل أن هناك بشر يستطيعون أن يحبّوا بمثل هذه القوة ؟

قلتُ لكَ : أنا أعشقكَ كما لم يعشق بشر .
ابتسمتَ وقلتَ لي :- أنا أعرف هذه الرواية منذ زمن طويل .
- هل قرأتها ؟
- لا، بل شاهدتُ فيلماً لفريد الأطرش مقتبساً عن هذه الرواية .
- متى ؟
- قبل أن تولدي .
- أمّا أنا فقد شاهدتُ هذا الفيلم قبل ثلاثة أعوام .
- ...

صوتكَ كلّ ما أعبد في هذه اللحظة، أشعر بأنّكَ تحتضنني منذ ألف عام، وتغني لي دون توقّف، أشتاق لرؤية عينيكَ، أرفع رأسي من نعيم حضنكَ، أتأمّل قسماتكَ، أتحسّس بعشق ذلك الغور المدهش في ذقنكَ، كم أعشق ذلك الغور الساحر، تغلق عينيكَ، تترك لي متعة تفرّسكَ، قسماتكَ تبدو أكثر شباباً، جلدكَ أكثر نعومة عما قبل، شعر رأسكَ أكثر غزارة، عظام صدرك تندفع قليلاً إلى الأمام، في لحظة تبدو أنحف، يختفي شاربكَ من وجهكَ، أهدابكَ تبدو أكثر كثافة، تعلو حمرة غضّة وجنتيكَ .
تبدو أصغر سناً، كأن السنين تركض بجنون إلى الوراء، أشعر بخوف، أغمض عيني، وأزرع رأسي في حضنكَ من جديد .
عندما ينتهي غناؤكَ، أفتح عيني، أطالعكَ، ها قد عدتُ إلى ما كنتَ عليه قبل أن تحضنني، أقول لكَ بوجلٍ ظاهر : أتعدّ أن تصدّقني إذا أخبرتك بأمر غريب .
- أعدكِ .
- قبل لحظات وأنتَ تغني، عاد الزمن إلى الوراء، ورأيتكِ بعمر العشرين، صدّقني.
- ...
- قل شيئاً، ألا تصدقني ؟

– بل أصدّقك تماماً .

– كيف تصدق كلاماً لا يصدّق ؟

– مع امرأة مثلكِ يمكن أن يحدث أيّ شيء ... أيّ شيء .

بضع شموع أخرى تذوب، المكان يغرق في ظلام أشدّ، القمر بدر، يبدو بوضوح من نافذة الغرفة، أبتسم لك، أتذكّر تلك الخرافات عن اكتمال البدر، أقول لكَ : ليتكَ تهبني أحلام تحت ضوء القمر .

– الأطفال الذين تحمل بهم أمهاتهم تحت ضوء القمر يولدون بلعنة .

– أنا لا أخشى اللعنات .

– أنا أخشاها .

– إذاً تزوجني ، وهبني أحلام بعيداً عن ضوء القمر .

– أنا لا أتزوج من أحبّ .

– لِمَ ؟

– لأنّ الزواج مقبرة الحب .

– إذن لا تحبني، وتزوجني .

– بل أحبّكِ ،ولا أتزوجكِ .

– إن تزوجتني سأهبكَ سعادة مستمرة .

– كلّ النّساء تقول هذا قبل الزواج، أمّا بعده فلا شيء غير التعاسة .

– لن أتزوجكِ كما زواج البشر بل كزواج الأساطير .

– وكيف يكون زواج الأساطير ؟

– بكلمة منكِ أصبح زوجتكَ، وبكلمة مني تصبح زوجي، الله يشهد على هذا الزواج.

– وماذا عن باقي البشر ؟

– فليذهبوا إلى الجحيم، أنتَ من تعنيني من هذه الدنيا .

– أظنّ أنّ زواجاً بتعاسة أكثر أماناً من زواجك المجنون .
تضحكني كلماتك، أغرق في ضحكاتي ،وتشاركني في ذلك الغرق، كم أنا مجنونة ! كم أعشقكَ !

شمعة أخرى تذوب، أشجار السرو تتمايل نحو النافذة، حفيفها حزين، أقــول لكَ : أتعرف أنّ الأسطورة الإغريقية تقول إنّ الهَ الشمس هيليوس نادى أن يُــزرع السرو عند قبر كلّ من كان مسجوناً في الحياة .
– حسناً إنني فعلت ذلك .
– لمَ .
– لأنني وإيّاكِ مسجونان هنا، أمّا الدنيا في الخارج فتنعم بالحرية والعلنية .
– إن كان وجودي معكَ هو سجن ، فليته يدوم إلى الأبد .
– وماذا سأقول للناس حول تلك المرأة التي تسكن حياتي وتقاسمني حياتي ؟
– قل لهم إنّها جاريتكَ، جاريتكَ من ألف عام، وقد نهضت رفاتها من القبــر لكــي تزورك ؛لأنَها اشتاقتْ لكَ .
– آه يا جاريتي، تعجبني فكرة ملكيتي لجسدكِ ولقلبكِ ولعمركِ .
– نعم يا مولاي، شبّك لبيّك أنا بين يديك، اطلب فتطاع .
– أتمنى أن أبحر وإيّاكِ في زورق من ذهب فوق بحيرة من زئبق .
– سمعاً وطاعة يا مولاي .

أطلب منكَ أن تلزم مكانكَ، أنقل معظم الشموع إلى الحمام، الــشموع تبــدّد القليل من ظلام الحمام، أملأ الحوض بالماء الساخن والصابون، أعود إلــى غرفــة الاستقبال، أدير مفتاح المسجّل، تنطلق ألحان شريطي المفضّل، أرفع مــن صــوت المسجّل، أشدّك من يدكَ، تدهشكَ الشموع قريباً من حوض الاستحمام، أسبقكَ إلــى الحوض، منامتكَ التي ألبسها تبدو داكنة اللون وهي مبتلّة، أمدّ يدي إليكَ، أدعــوكَ

إلى جانبي، كالمارد تدخل إلى الحوض، تضمّني، الماء الساخن رائع، تفتح صـــنبور الماء العلوي، ليستمر دفق الماء الساخن، البخار يملأ المكان، سعادة غريبـــة تغمـــر جسدينا، بنبرة حالمة أقول لكَ .

– مولاي !!!

– نعم يا مليكتي الساحرة .

– بلغني أيّها الملك الرشيد ذو الرأي السعيد، أنّ امرأة تهواكَ بجنون، هي مسحورة بكَ، وإن هجرتها فسوف تتحول إلى حجر ،وتتركَ وحيداً من دون حبّها .

– وأدرك شهرزاد الصباح . فسكتتْ عن الكلام المباح .

– لا ... بل قالت :

كتبتُ أحبّكَ فوق جدار القمر

(أحبّك جداً)

كما لا أحبّكَ يوماً بشرْ

ألم تقرأها ؟ بخط يدي

فوق سور القمر

وفوق الكواكب تمسح عنها .

غبار السفر

كتبتُ على دفتر الشمس

أحلى خبر ...

(أحبّكَ جداً)

فليتكَ كنتَ قرأتَ الخبر .

(٢٢)

في الطابق العشرين حيث المطعم الشتويّ، سنتناول العشاء هذا اليوم، أنا لا أحبّ أن أتناول العشاء بعيداً عنكَ ،لا طعم للطعام من دونكَ ، وأنتَ تصمّم على أن أرافق صديقاتي إلى هذا العشاء، تطالبني بأن أوازن بين عشقي لكَ وبين حياتي الاجتماعية، تلحّ علي أهمية الإبقاء على علاقاتي مع الآخرين وعدم محورة حياتي عليكَ، تريدني أن أحيا حياة طبيعية بما فيها من علاقات وصداقات ولهو، رفضتُ الخروج إلى هذا العشاء ،وفضّلتُ أن أقضي الليل معكَ في المنتزه، اعتذرتَ لي عن الحضور ، وأخبرتني بأنّكَ مرتبط باجتماع ليليّ مع الأعضاء الإداريين للمتحف، استفسرتُ من سكرتيرة المتحف وعرفتُ أنّ لا اجتماع عندكَ، لا بدّ أنّكَ ستقضي الليلة في المرسم، أمّا أنا فأقضي الوقت مع صديقاتي كما أردتَ لي . أتظاهر بأنّني قد خدعتُ بخطتكَ الطيبة، مع أنّني أعلم تماماً أنّكَ اختلقتَ كلّ هذه الأكاذيب لكي تدفعني إلى الخروج مع صديقاتي والاستمتاع معهنّ، ترفض أن تحبسني في دنيا حبّكَ، تقبل أن أتنفّس حبكَ ،ولكن في دنيا رحيبة بعيدة عن القيود، كم أنتَ عظيم!!

لا أتذكّر كيف بدأنا أنا وصديقاتي بالتردّد على هذا المطعم، بل لا أتذكّر كيف وجدناه في هذا الحيّ المزدحم في هذا البرج المرتفع، كثيراً ما ترددتُ أنا وصديقاتي على هذا المكان على الرغم من اختلاف طباعنا، لم نجتمع على حبّ مكان واحد في كلّ المدينة كما اجتمعنا على حبّ هذا المكان .

أدلف وصديقاتي إلى المطعم الدافئ، تلك المدفأة النفطية تتربّع قريباً من الطاولة التي اعتدتُ وصديقاتي على الجلوس إليها، لهب المدفأة قويّ ،لكنّه لا يكفي لتدفأة هذا المطعم الكبير، بل تهب التدفئة المركزية الدفء للمكان، أمّا هذه المدفأة فليست أكثر من ديكور فلكلوريّ يتناغم مع الطراز الشعبي للمطعم، نجلس في مقاعدنا

الجلديّة التي تحيط بالطاولة التي تطلّ من خلال الزجاج البرتقالي على معظم أحياء المدينة.

نخلع معاطفنا، نضعها قريباً منّا، نتبادل النكات، تعلو ضحكاتنا في المكان، أمّا ذلك الصبي الذي يجلس متيّماً إلى جانب صبية يافعة فنلاحقه بنظراتنا، نخمّن أيّ الكلمات يسمعها إيّاها، لا بدّ أنّهما طالبان في المدرسة الثانوية . المكان مزدحم بالزبائن، حسناً أننا جئنا في هذا الوقت لو تأخرنا قليلاً لما وجدنا أيّ طاولة شاغرة، الكلّ مشغولٌ بتناول وجبة العشاء، روائح الطعام تفوح في المكان، بطوننا الجائعة تشتهي كلّ الأطباق .

نطلب قائمة الطعام، تسخر مروة من طلب القائمة، تقول بنبرتها الساخرة : ألم تحفظوا بعد قائمة طعامهم ؟ أستطيع أن أذكر لكم محتوياتها عن ظهر قلب .

تقول دلال بلغتها المستهترة والمستخفّة بكلّ شيء : دعينا نظهر كما الزبائن المحترمين .

مروة : ألا نكون محترمين إلا إذا حدّقنا طويلاً بقائمة الطعام ؟

تتدّخل هدى، تخاطب النادل بنبرتها الرزينة، وتملي عليه ما نرغب به للعشاء، تطلب تسعة أطباق من اللحم المشويّ، مع المرق والسلطة والأرز المبهّر .

دقائق تمضي ثم يصبح الطعام أمامنا، الكلّ يأكل بشهّية، أتمنّى لو أنّكَ تحضر، وتجلس بهدوء معي إلى تلكَ الطاولة الصغيرة التي تطلّ على الشارع الخلفي المؤدّي إلى الحي القديم، كثيراً ما اصطحبتني إلى هذا المكان، الذي نحبّه في الشتاء، كما نحبّه في الصيف، في كلّ مرة نرى من هذا المكان منظراً مختلفاً للمدينة، نأكل قليلاً و لكن نتحدث كثيراً ، هذا اللحم لذيذ، ليتكَ إلى جانبي تأكل منه، فأراقب طريقتكَ الفريدة في الأكل، طريقتكَ التي ترغّب من أمامك بالأكل بمثل شهيتكَ وبمثل إقبالكَ على الطعام .

أشكركَ من قلبي لأنّكَ دفعتني إلى هذا العشاء، أشعر بسعادة غامرة وأنا مع صديقاتي، منذ مدة طويلة لم أصحبهنّ إلى أيّ مطعم، لا بدّ أنهن يشعرن بمدى انشراح صدري وسعادتي، عندما أكون على وئام معكَ يجتاحني الرضى وأعيش حالة سلام مع نفسي ومع غيري، يتّسع قلبي لكلّ البشر ؛ لأن قلباَ يعشقكَ لا بدّ أن يحمل كلّ حب وعشق الدنيا، حباً يكفي ليغمر كلّ البشر . نتحدّث في مواضيع كثيرة ،ولكن نعرضها بطريقتنا الساخرة والضاحكة، شقاوة فاتنة تثير ضحكاتنا المتحفّظةعلى سلوكها المستهتر، تعقد رجلاً فوق رجل، وترقّص العليا بطريقة لافتة للنظر، أعجب من ولعها الشديد بالملابس الضيقة التي تظهر صدرها الكبير، لا تملك شهية حقيقية للطعام ،تكتفي بالقليل منه، تتابعنا ونحن نأكل، تطالبنا بالتوقف عن شرب الحساء، نضحك من طلبها، نرتشف ما تحويه ملاعقنا من حساء، تجيل نظراتها في المكان، تتسمّر نظراتها في أقصى المطعم، من طريقة ابتسامتها وطريقة إسدال هُدبيها، نخمّن جميعاً أنها وجدتْ (تسلية اليوم) كما تسمي الشباب الذين تتعرف بهم.

تكلّمنا ، ولكنّها لا تنسى أن تهديه بعض نظراتها، نظراتُ فضولنا تمتدّ إليه، لا بدّ أنّه سيدنو من طاولتنا ،ويكلّمها بمجرد أن يُرفع العشاء من أمامنا، تضحك بطريقتها العابثة وتقول : ألم أقل لكم أنّني لا أُقاوم ؟

تضحك صديقاتي، تبدو هدى غير سعيدة بسلوكياتها الطائشة، ولا راضية عن رضى الصديقات عن سلوكها، تقول لها بنبرة حادّة : لقد فضحتنا، الكلّ يراقبنا، أرجوكِ كفّي عن استهتاركِ، دعينا نتناول الطعام دون شغب .

لا تمتعض فاتنة مما تسمع بل تضحكُ، وتستمر في عبثها، أحدّق فيها، أقول لها بنبرة لا تُخفي ابتسامتي : متى ستعقلين ، وتعتقين أبناء العالم من سلوكياتك الشيطانية؟

– عندما أتزوج .

– ومن المغفّل الذي سيتزوجكِ ؟

– المغفلون كثر، انظري إلى ذلك الشاب ألا يبدو مغفلاً جذّاباً .

كلماتها تبعث الضحك في المكان، ليتني أستطيع أن أبعث لكَ بعض ابتساماتنا، في الصباح كنتَ منزعجاً بشدّة، ليس من عادتكَ أن تتجهّم في وجهي، ألححتُ عليكَ لأعرف سبب تقطّب حاجبيكَ، لا بدّ أنّكَ رجلٌ خُلقت من الرقة لتتأثر إلى هذا الحدّ بسبب دهسكَ لقطّة من غير قصد، تؤكّد أنّكَ لم تلحظها تعبر أمام سيارتك، تتمنى لو أنّ رجلاً كُسرت لكَ، ولم تدس تلكَ القطّة المسكينة، تؤكّد لي أنّك ستتجاوز انزعاجك، وتبتسم ،ولكنّني أعلم أنكَ ستتأثّر طويلاً بسبب دهس القطّة،لستَ ممن يملكون ضميراً ساكناً بل ضميركَ دائم الثورة والشكوى والاحتجاج .

وجيب قلبي يعلو، دمائي تسري سريعاً في جسدي، أخمّن أنّكَ قريبٌ منّي، أبحث عنكَ في المكان، أقول لصديقاتي بنبرة من يتلقّى وحياً من السماء : هو موجود، أشعر به هنا .

– أين ؟ لا أراه .

– لا أعرف، ولكنني متأكّدة من أنّه قريبٌ منّي، تقول فاتنة بنبرتها الساخرة : والله يا بنت آخرتك بتتجنّي ...

– أين هو لا نراه ؟

اقترب سريعاً من النافذة التي تجاور طاولتنا مباشرة، ألقي نظرة سريعة إلى الأسفل حيث الشارع، أرى سيارتكَ تقف إلى رصيف الشارع، أستطيع أن ألمح رأسكَ، أصرخ بصديقاتي كطفلٍ وجد كنزاً : انظرن ،ها هو ،ألم أقل لكنّ إنّني أستطيع أن أعرف بوجوده قريباً منّي .

– ماذا يفعل هنا ؟

– لا أعرف، لا يبدو أنّه ينتظر شيئاً معيناً .

– لعلّه اشتاق ، لكِ فأراد أن يكون قريباً منكِ

– لم لا تذهبي إليه ، وتدعيه إلى تناول العشاء معاً ؟

– لن يفعل هو يكره دخول المطاعم في أوقات ازدحامها .

نراقبكِ جميعاً من النافذة ، تدير محرّك السيارة، ونبتعد بعيداً،أشيّعكَ حتى تختفي، أعود إلى جلستي الأولى، تقول فاتنة بفضول واضح : كيف تستطيعين أن تعرفي بوجوده قريباً منكِ ؟!

– لا أعرف، قلبي يضطرب، وأشعر بيديّ ترتجفان ، وشيءٌ خفي يحدّثني بقربه .

– يا لها من حاسّة ! لا بدّ أنّكِ محظوظة بهذه القدرة المميزة على معرفة قرب الناس منكِ .

– هذه الحاسّة تتعلق به فقط، أمّا مع غيره فلا أملكُها، بل لا أستطيع أن أرصد وجود أيّ أحد في محيطي إلا إذا وقعت عيناي عليه .

– يا لكِ من امرأة ! ما رأيه في هذه الحاسّة؟

– يقول إنّه يكره هذه الحاسّة ؛ لأنّه يشعر بأنّه مراقب ، وإنني أطارده بحواسي غير العادية، أتصدّقون أنّه يصفني أحياناً بالكابوس ؟

يضحك الجميع من هذا الوصف، يقترب النادل الأشقر من طاولتنا للمرة الرابعة ، يسألنا إن كان الطعام ينال رضانا، نردّ عليه بالإيجاب، لا بدّ أنه يتحيّن الفرصة ليسألنا عن أنس، في كلّ مرة نأتي إلى هذا المطعم يسألنا عنها، وفي كلّ مرة يقول : إنّها ابنة حلال، وإنّها كانتْ صديقة مقرّبة إلى أخته ،ولكن صداقتهما فترت عندما تزوجت أنس ،وسافرت إلى الكويت مع زوجها الذي يعمل مهندساً هناك.

أجيبه بإجابتي المعتادة : هي بخير والحمد لله .

يعود ويسألني إن كانت سعيدة ؟

أقول له : نعم هي سعيدة .

يشكرني ويستأذن برفع الصحون، يجمعها سريعاً ويذهب، الحمرة تعلو وجنتيه،

حبيبات العرق تتنـــزّى من جبينه العريض، يغادر صالة الطعام ، لعلّه يختفي فـــي المطبخ، تسأل صديقاتي عن سبب اهتمامه بالسؤال عن أنس، أهزّ كتفي وأقول : لا أعرف ، لعلّه يبرّ بصديقة أخته .

– بل لعلّه يحبّها .

– معقول ؟!!

تقول مروة بنبرتها التمثيلية : لا مستحيل تحت الشمس في هذه الحياة .

تقاطعها هدى : فالحياة مسرح كبير ،نعلم ذلك

المكان يعبق برائحة الأرجيلة، تبدو فاتنة وهي تدفع دخان الأرجيلة من أنفها وفمها في الهواء على شكل حلقات متداخلة كما (معلّم قهوة) في فيلم مصريّ تقليديّ. لا يروقني منظرها بتلك الأرجيلة، أمّا صوت ذلك المغني فيطربني بقوة، يجلس أمام مكبّر صوت خفيض يناسب جلسته، يضمّ عوده بألفة واضحة، لا فرقة موسيقية معه، بل هو من يتولّى أمر الموسيقى والغناء، يؤدّي كثيراً من الأغاني القديمة، يطالبه الجمهور بأن يعيد غناء أغنية (من غير ليه)، يؤدّيها مرةً أخرى، يعيد ضبط أوتار عوده، يقول إنهّ سيغني قصيدة للشاعر محمود درويش هو من قام بتلحينها، وسيغنّيها الليلة لأوّل مرة، تتقدم مقدمة موسيقية غناءه ،يصدح صوته قائلاً:

تكبّر ... تكبّر
مهما يكون من جفاك
ستبقى بعيني ولحمي ملاك
وتبقى كما شاء حبّنا أن أراكَ
نسميكَ عنبر : وأرضك سكرّ
إنّي أحبّك أكثر .

عندما كتبتُ هذه القصيدة لكَ على بطاقة مع ورود كلّ أسبوع، قلــتَ لـــي : وإنّـــي أحبّكِ أكثر .

ليت حبّكَ لي يجعلكَ ترفض أيّ مكالمات من شرف، أصبحتْ تكثر مـــن مكالماتهـــا لكَ، أؤكد لكَ أنّني لا أنزعج من اتصالاتها، أعلّل الدموع التـــي تفـــرّ مـــن عينـــيّ بالحساسيّة المفاجئة بسبب تقلّبات الطقس، لعلّك لا تصدّق ادعاءاتي .

لا بدّ أنّ هذا الموضوع يترك مسحة حزن واضحة على وجهي، تسألني هدى: أهناكَ ما يزعجك ؟

– أبداً، لماذا تعتقدين أنني منـــزعجة ؟

تقول فاتنة ودخان الأرجيلة يندفع من أنفها :– دعونا نفتح موضوعاً مسلّياً .

أقول لها بفضول : مثل ماذا ؟

– مثل آخر أخبار الفضائح .

تبتسم نورما التي تهوى تلقّط الأخبار ونشرها:–خبر الموسم هو عودة شرف إلى المدينة.

يا له من خبر! لو أنّ السماء تساقطتْ على رأسي قطعاً لكانت أرحم بي من كلماتكِ يا نورما ، لما عدتِ يا شرف ؟ قلبي يحدّثني بالكثير حولكِ، لا بدّ أنّ عودتكِ تحمل الكثير لي . أسأل نورما بفضول أحاول عابثة أن أخفيه : متى عادت ؟

– من أسبوع .

– هل رأيتها ؟

– لا .

– إذن كيف عرفتِ بعودتها ؟

– أخبار شرف تُتداول أكثر من تداول الدولار .

– لمَ عادت ؟

– عادت إلى عملها في المجمّع التجاري .
– وماذا عن زوجها ؟
– لقد انفصلت عنه .
– ماذا تعنين بانفصلت عنه ؟

– أعني أنّهما قد تطلقا .
– ماذا !!؟

يستمر الحديث وتعلو الضحكات وتستمر التعليقات ،أمّا أنا فأغرق في همّي الجديد، أشعر بهالة من السحاب الأبيض تلفّ المكان، رأسي يدور، كثيرٌ من الأوهام تلهو برأسي، كم أتمنّى أن ألج في عالم مجهول، عالم بعيد لا وجود لشرف فيه، ليت ساعات الظهيرة تعود لأدخل مع مروة ذلك الهرم الحديدي مرة أخرى، وأفرّ فيه إلى عالم من الراحة والاسترخاء .
قالت مروة : إنّ هذا الهرم قد شيّده طالب نابغ في علم النفس، يجري فيه بعض الدراسات حول التخاطب عن بعد ،وحول التنويم المغناطيسي، عندما سألتها : ما سبب تشيّده على هذا الشكل الهرمي؟ قالت : إنّه يشيّده بشكل يحاكي شكل الأهرامات، التي يعتقد أنّ لتشيدها على هذا الشكل حكمة لا يعرفها إلاّ المصريون، ولا بد أن هذا الشكل الهندسي قد وفّر لهم الكثير من الخطوط والدوائر المغناطيسية التي تؤثر تأثيراً مهماً على عقل الإنسان ونفسه وجسده .

أثارتني فكرة قدرة ذلك الطالب على التنويم المغناطيسي، مروة قالت : إنّها جرّبت مثل هذا التنويم ،قد كان لها بمثابة التجربة المدهشة . رغبتُ في أن أخبر هذه التجربة، حاول الطالب لأكثر من ثلاث مرات أن يدخلني إلى أحضان ذلك النوم اللاإرادي، ولكنّه فشل تماماً، فقد بقيت بكامل وعيي وإرادتي، قال لي :

لأول مرة أفشل في تنويم واحد .

– ...

– لا بدّ أنكّ تمتلكين إرادة حديدية تجعلكِ تسيطرين على كامل وعيكِ، أو أنّ عقلك الباطن يرفض هذا النوم لتكتمه الشديد على سرّ يعزّ عليه أن يكشفه .

– لا أملك أيّ أسرار .

طيفكَ يجلس قريباً منّي، يبتسم لي بخبث ، كأنّه يقول لي : يا كاذبة أليس عشقكِ لي هو الذي يسكن ذاتكِ ؟ أقول لطيفكَ : لكنّ كثيراً ممن حولي يعلمون بأمر حبّي .

– ولكنّهم لا يعرفون أنّكِ تعشقينني حدّ الجنون .

يا لطيفكَ العذب ! يقف بيني وبين نفسي ، يستقر في كلّ مداركي، يحول بيني وبين الاستسلام لدنيا هذا الطالب، يصرّ على سريّة هذا العشق، يعقل لساني عن فكّ رموز هذا السحر الذي يملكني دون حول منّي أو قوة .

شرف أحاول أن أهرب منها لكن لا فائدة، هي في كلّ مكان، ثوبها التوتي اللون جميل جداً، أمّا القبعة السوداء التي تعلو رأسها فتجعل نمشها البني أكثر ظهوراً، نورما أوّل من يتنبّه إلى دخولها إلى صالة المطعم، تقبل بخطىً واثقة نحو طاولتنا، تصافح الجميع بحماس واضح، تشدّ على يدي، هل تريد أن تقول لي : إنهّا قد عادت ؟ أم تريد أن تأكّد لي أنّها حقيقة ، وليست وهماً أتخيّله ؟ تعرّف الجميع على تلك السمراء الضخمة التي ترافقها كما الحارس الشّخصي، لا بدّ أنهّا قد قضتْ الوقت تتسوق وصديقتها . تجلس إلى طاولتنا من دون دعوة، أتابع كلّ كلمة تقولها بتحفز لا أستطيع أن أكبحه، أبحث عن أيّ جملة قد أفهم منها أنهّا مغادرة ،وأنّ فترة بقائها في المدينة فترة قصيرة. تتحدث مع الجميع، تصطنع الكثير من المرح والضحك، لكن نظراتها لا تفارق وجهي ،كأنهّا تحاول أن تعرف أيّ المشاعر تسكنني تجاهها .

نشرب عصير البرتقال، أمّا هي وصديقتها فتطلبان العشاء، تأكل بشهية

واضحة، أحسدها على هذه الشهية، أراقب طريقتها في الأكل ، كم أتمنى أن تموت، يعجبها صوت المغنّي الذي يشدو بصوته الجميل، تدندن معه ثم لا تلبث أن تردّد معه بضعة مقاطع مما يغنّي، حركاتي تبدو عصبية ونزقة، أفرك يدي اليمنى بعصبية، أصيح من الألم، لقد لامس جلد يدي المدفأة النفطية ، فاحترق ظاهر كفي، يسارع النادل إلى إحضار بعض الثلج، هذا الحرق يؤلم أكثر مما تخّيلتُ، يقول النادل: لا تقلقي هذا حرق سطحي سرعان ما سيختفي.

-ولكنه يؤلم.. يؤلم بشدة .

التأثر واضح على محيّا هدى، لابد أنهّا تشعر بالذنب ؛ لأنهّا والصديقات يجاملن شرف ،وهنّ يعلمن كلّ العلم أننّي لا أطيق رؤيتها ، أشدّ بالثلج على يدي . لا زالتْ تأكل ، ملامح صديقتها تقول إنهّا أدركت انزعاجي من وجودها، تستأذن السمراء، وتنتصب في مكانها ، بينما تجمع شرف أكياسها وتحمل حقيبتها النسائية تهيؤاً للانصراف، تقول فاتنة بنبرة متعالية: أصحيح ذلك الخبر الذي سمعناه عنكِ؟

- أيّ خبر تعنين ؟

- الخبر المؤسف عن طلاقك.

- ليس خبراً مؤسفاً، لقد أفلستْ شركة طليقي، وأصبح عصبياً لا يطاق ،فانفصلتُ عنه، لقد خشيت أن يدفعني إلى الجنون . تقول فاتنة بنبرة مازحة ، ولكن ذات مغزى عميق:- أأصبح عصبياً لايطاق أم مفلساً لا يطاق؟

-كلاهما معاً، أنا صبية فاتنة ،وأستحق أن أمتّع شبابي.

أراقب ذلك الخاتم الماسي في إصبعها، حجره الكبير يدل على أنّ طليقها متّعها طويلاً ،ولم يبخل عليها أبداً، يا له من غبي تعس ! دفعه حظه الحائر إلى حضن شرف . تخطو شرف خطوة إلى الأمام تقول بنبرة أخالها تقصدني فيها :-سنلتقي عما قريب ..إلى اللقاء.

يراقبها الجميع تخرج من الصالة وتختفي، يعود الحديث إلى سابق عهده،

أرجيلة فاتنة تغرق الطاولة في سحابة دخانية بيضاء، أمّا أنا فأراقب ذلك الحــرق المؤلم في ظاهر كفي، أتساءل إن كان هذا الحرق هو الحرق الأخير الذي ستعذّبين جسدي به يا شرف ؟ أم أنّ هناك حرائق أخرى ستكوين روحي بها؟

(٢٣)

منذ شهر كامل لم نمارس سوياً طقوس السير في المتنـــزّه، تقــول إنّــكِ اشتقتَ إلى لقائي ، و ورودي التي أبعثها تحثّكَ على رؤيتي، أنتظــركَ فــي ذلــك المقعد الشتوي الذي اعتدنا الجلوس عليه، ها أنتَ تُقبل، هذه الليلــة قامتــكَ تبــدو أقصر، ألفتكَ تسير بشموخ تشرئب إلى الأمام، تنتصبُ بكلّ عزم، أمّا الليلة فتــسير متهالكاً أكاد أرى رأسكَ يغور بين كتفيكَ، لِمَ لا تلبس الملابــس الرياضــية التــي اعتدتَ على أن تلبسها لغاية السير سوياً ؟ إذن لم تأتِ للسير سوياً كعادتنا ولم تشتق إلى من تعشقكَ، بل تبحث عن إنسان تثق بحبّه وبإخلاصه لتسرّ إليه بمكنون قلبكَ.

تدنو منّي، تلقي التحيّة، ثمّ تجلس إلى جانبي، لم تقبّلني تلــك القبلــة التــي اعتدتها كلّما قابلتني في المتنــزّه، تقول : لقد اشتقتُ إليك. أبتسم لــكَ ابتــسامة لا تخفي خيبة أملي ، وأقول :- صدّقني ،إنّني اشتقتُ إليك اشتياقاً لا يوصف.
أتحرّك من مقعدي لأدنو منكَ، أصبح ملتصقة بجسدكَ تمامــاً، أســتجمع شــجاعتي وأمسكُ بيدكَ، آخذ نفساً عميقاً كمن سيلقي بنفسه في البحر ، أقول :- أتثق في حبّي لكَ ؟
تقول بتوجّس من سؤالي : كلّ الثقة.
- أتثق بإخلاصي لكَ ؟
- بل أنا متأكد من أنّني لو جرت عليكِ ،وطلبتُ عينيكِ لاقتلعتيهما من محجريهمــا وأعطيتني إياهما طائعة راضية.
- من تستطيع أن تعشقكَ بهذا الجموح، ألا تعتقد أنّها تــستطيع أن تكــون صــديقة مخلصة مستحيلة الوجود، تمسح دموعكَ، تحفظ أسرارَكَ، وتحرس أحلامكَ. لن تجد صديقاً يسمعكَ بروحه وقلبه وعقله كما سأسمعكَ، تكلّــم، حــدّثني عــن أحزانــك،

ستجدني دائماً إلى جانبكَ، إن قدّر لأحد أن يقف إلى جانبكَ في هذه الحيـــاة فلـــمَ لا تساعدني على أن أكون هذا الإنسان ؟

تحدّق بي بنظرات مشفقة، أكره الشفقة، لم أُخلق لكي أستجدي شفقة أيّ إنسان حتى ولو كان أنتَ، تقول بتأثّر واضح :- أنتِ لا تستحقين مني أيّ ألم، بل تـــستحقين أن أحلّق بكِ إلى السموات العُلا.

- الألم الوحيد الذي لا يمكن أن أحتمله هو أن أراكَ تتألم إلى هذا الحد.

الدهشة تملأ عينيكَ ، أتعجبُ أن أشعر بآلامكَ ، وأن أدركَ حيرتكَ ؟ أقول لك بدمعة أحاول أن أغالبها:- عندما تحزن ، فإنّ الحزن يغمر قلبي، أنا لا أحزن بقلبـــي بـــل بقلبكَ، أيّ أمر يسعدكَ يسعدني ،ثق تماماً بحبّي، أحبّكَ كما لم تحبّ امرأة رجلاً.

أراقبُ صمتكَ يهرب إلى البعيد ،أنتظر كلماتكَ، وأخشى سماعها، أشدّ علـــى يـــديكَ أقول بعد تردّد :- أهي شرف ؟

تطالعني سريعاً ثم تقول بصوتٍ خفيض :- لا يمكن أن تعـــشقني أي امـــرأة بمثـــل عشقكِ، أحسد نفسي على هذا الحب العظيم، لا يمكن أن تملكَ امرأة مهمـــا بلغـــت مكانتكِ في قلبي.

- تريدها في حياتكَ ،وتخشى خسارتي، أليس كذلك ؟

- لا أستطيع أن أتحمّل فكرة خروجكِ من حياتي، لا أتصوّر دنياي من دونك، أنتِ أثمن ما أملك.

لا أستطيع أن أغالب دموعي بعد الآن، تنزلق دموعي سريعاً في تجويـــف فمي، أمسحها بسرعة كأنّها لم تكن، تركض بي الذاكرة إلى سنوات مضت، أعـــدكَ بافتتاح وإنهاء موسم الياسمين في كلّ عام، تقول : إن فعلتِ ذلك ، فستكونين أثمـــن إنسانة قابلتها في حياتي.

أهزّ رأسي ساخرة من قدر أثمن إنسانة في حياتكَ ...

أقول بصعوبة :- لن تخسرني، لا قوة في الأرض تستطيع أن تفرّق بيننا، أنا رفيقة

قلبكَ حتى آخر العمر.

– اغفري لي ذلك الألم الذي أسببه لك.

– الألم الحقيقي أن تتألم بصمت فقط ؛ لأنكَ تخشى من أن تؤلمني، ما دمتُ أراكَ وأسمع صوتكَ ، فأنا أسعد نساء الأرض، يكفيني أن تعرف بحبّي وتثمّن مشاعري.

– أنا لم أقدّس إنساناً كما قدّستكَ، لم أقابل في حياتي إنساناً مثلك ، أنت إنسان لا يُقابل في الحياة سوى مرة واحدة .

– دائماً سأتمنى لكَ السعادة، سأكون دائماً القلب الذي يعشقكَ ،ويغفر لكَ كلّ ضعفَ.

– أنتِ لن تهجريني ، أليس كذلك.

أبتسم بصعوبة أبلع ريقي ،وأقول :– حتى ولو طلبتَ مني أن أهجركَ فلن أقوى على فعل ذلك، دائماً ستجدني عندما تحتاجني.

تطلب منّي كما الطفل أن أضمّكَ، أحاول أن أحتوي جسدكَ الممتد بين ذراعيّ، أقبّل رأسكَ ووجنتيكَ ويديكَ ،أقول بصوت مذبوح :– يا لها من امرأة محظوظة ! تحبّها أليس كذلك ؟

– ليس أكثر مما أحبّكِ، ستبقين دائماً أثيرتي وطفلة عمري.

– أيّ الأمور تعشق فيها ؟

– شرف امرأة ضعيفة، عاشت حياة صعبة، لم تعرف أباً، حلمتْ به دائماً، أمّها وأخوها كانا بمثابة الأب لها.

– أتشفق عليها ؟

– لا، ولكنّها تذكرني بطفلٍ عاش يحلم بأبٍ يأتي في ليلة العيد، يحمل الهدايا والألعاب والملابس الجديدة ويغمره وأخويه بالحب، طفل يتمنّى أن يوسّد رأسه إلى صدر أبيه ،وينام طويلاً ؛لأنّه يشعر بالأمن.

– هل حدّثت شرف عن ذلك الطفل ؟

– حدّثتني عن طفولتها ،فحدّثتها من دون قصد عن ذلك الطفل.

– ألم يحن الوقت لتحدّثني عن ذلك الطفل ؟ أنا أعرف عنكَ كـلّ شـيء، ولكننـي متأكد من أنّني لا أعرف عنكَ أيّ شيء.

تتنهّد كأنّكَ على وشكِ اقتلاع صخرة :– أنا لم أقل لكِ من قبل إنّني أنتمـي لعائلة رجالها ينسجبون نساءً قدرهنّ أن يعشقن أمواتاً، والد جدّي تزوّج لليلة واحدة، ثم اقتادته (الجندرمة) إلى الحرب ولم يعد أبداً، وبقيت زوجته تنتظره وطفله ثمـرة الليلة الواحدة، زوّجت ابنها مبكّراً ،كانت سعيدة به، تزوّج لمدة عام ، وأنجب جدّي، كان شهماً يغيث كلّ من يطلب مساعدته، خرج في صباح باكر ليساعد في دفن جار له، تحمّل البرد لساعات كي يحفر قبر جاره، عندما عاد إلى البيت في المساء عـاد جثّة هامدة، فقد أوقف البرد قلبه الفتي، طوال حياتي سمعتُ جدّتي تبكيـه ،وتتـذكّر العام السعيد الذي عاشته معه، القدر كان أقلّ لؤماً مع أبي ،فقد وهبـه حيـاة لمـدة ثلاث سنوات مع أمي، في كلّ عام وهبته أمي ثمرة من ثمار حبّهما، أنا كنتُ أحـد هذه الثّمار، خرج يوماً إلى العمل ، ولم يعد أبداً ،طوال عمـري انتظرتـه ليعـود محمّلاً بأشواقه، ويحضنني وإخوتي ،ويقضي عمره معنا، لكنّه لم يعد.

تدهشني كلماتكَ، القدر رتّب لي لقاء رجل يُقابل كي يُفارق .

– إذن فأنتَ ثمرة حب قدره الفراق ؟ يا لكَ من ثمرة ؟

– يبدو أنّني سليل عائلة رجالها يموتون بعشقهم ،ولا يمهلون أكثر من عمر شـمعة ..

أبتسم ساخرة : أنا سليلة نساء ملعونات لا يعرفن الـسعادة، وأنـتَ سـليل رجـالٍ عاشقين يولدون بعشقهم ،ويكفّنون به.

– لطالما رغبتُ في أن أبكي أبي ،ولم أقدر، عندما تبكي شرف أباها أشـعر بـأنّ دموعها تغسل قلبي، هي إنسانة رقيقة وضعيفة تحتاج إلى مساعدتي، تقول إنّها لـم تقابل إنساناً عطف عليها مثلي.

– ...

– لا بدّ أن عطفكَ واهتمامكَ يعني الكثير لها.

– حياتها تختلف عن حياتكِ، أنتِ امرأة محظوظة، أمّا هي فأقلّ حظّاً منكِ، أنتِ امرأة جبّارة وقوية لا تحتاجين إلى مساعدة أي أحد، أمّا هي فضعيفة تحتاج لكلّ عون .

كيف يمكن لامرأة تملك مثل قلب شرف ،وتسكن في قلب رجل مثلكَ أن تكون ضعيفة وغير محظوظة؟ بينما امرأة يحترق قلبها بصمت وتراقب عجزها بكبرياء تُعدّ محظوظة وقوية، ليتكَ تعلم أنّ العشق يهزم أقوى القلوب ،ويجعلها عاجزة أمام قدرها، ليتكَ تدرك مدى ضعفي، وعظم بلائي، ليتكَ تعلم أنّني غدوتُ امرأة وجودها مرهونٌ بقربكَ، واتزان عقلها وروحها وقلبها مرتبط بوصالك.

– يبدو أنّها ستكون محظوظة منذ الآن.

– تماماً كما أنا محظوظة بكَ؟

– ستكون محظوظاً بعظيم صداقتي.

– لطالما احتجت إلى حبيبة صديقة أو صديقة حبيبة ،فوهبتني كليهما.

أتحسّس شيئاً غريباً في يدكَ اليسرى، بحركة طفوليّة أفتح يدكَ، خصلة من الشعر البنيّ تسكنها، ابتسامة الموت تعلو وجهي ،أقول مقتولة :– أهذه خصلة من شعرها ؟

– أحتفظ بهذه الخصلة منذ زواجها.

– وتظنّ أنّ امرأة تعرف رجلاً بمثل رقّتكَ ليست محظوظة ؟

– أشعر بأنّ كلامي قد أحزنكِ.

أهربُ من سؤالكَ، أطالع خصلة شعرها بحسرة خفيّة : خصلة شعر جميلة.

– ليس بمثل جمال عينيكِ.

– أنا متعبة يجب أن آخذ قسطاً من الراحة.

– لأول مرة أسمعكِ تشكين من التعب !

– ربّما لأنّني أشعر به لأول مرّة في حياتي.

– ممّ تشكين ؟

– من قدري.

أدير قرص الهاتف، أنتظر سماع صوتها، لبعض ثوانٍ لا أملكُ الكلمات، لا بدّ أنّني آخر من تتوقّع سماع صوته، تستقبل مكالمتي استقبالاً حسناً، تسألني عن صحّتي، لا أجيبها، بل أسمع بعضاً من ثرثرتها، أقولُ لها بنبرة صادقة :– شرف ... هو يحبّكِ، هذه فرصتكِ لحياة سعيدة، اغتنمي هذه الفرصة، اسعديه، اسعديه كما يجب، إيّاكِ أن تؤلميه، إن فعلتِ فسوف أقتلكِ، إيّاكِ أن تستهيني بكلماتي، لا تمتحني جنوني، لن أغفر لكِ خذلانه إنْ فعلتِ، ستسعدين بأطيب رجال الدنيا.

لا أنتظرُ إجابتها، أغلقُ السماعة، أهربُ من سماع صوتها، أدير قرص الهاتف مرة أخرى، كقطرات العسل يتدفّق صوتكَ، أخبركَ بعزمي على السفر تلبية لدعوة هلا خطيبة أجود، فقد توثّقت علاقتي معها.

– أنا محتاجة لراحة ما ،لعلّي أجدها عند البحر، تسألني عن عنوان أعطيكَ إيّاه على عجل، أعدكَ بعودة قريبة، أتمنّى لكَ الحظ والسعادة، فتتمنّى لي عطلة مميّزة، صوتكَ حزين ،لكنّني أحاول أن أتجاهل هذا الحزن، أكاد أُنهي المكالمة، صوتكَ يقول لي :– ليتكِ في حضني ...

– ليتني في حضنكَ ...

– أبعدَ كلّ ما سببتُ لكِ من ألم تتمنّين حضني ؟

– حتى ولو كنتُ عظاماً نخرة أو تراباً حقيراً فسأبقى أعشقكَ ، وأشتهي تراب قدميكَ.

– أتسافرين غاضبة ؟

– بل أسافر ؛لأنّني أحبّكَ، لأنّني أحترم رغبتكَ، أريدُ أن أوفّر لكَ فرصة لفهم مشاعركَ.

– وماذا عنكَ ؟

اقول بنبرة العاقلة لكن بمذاقِ دموع مالحة :-
- لقد وُلدتُ لكي أحبّكَ.

منذ أسبوعين أجلس على هذه الصخرة، تنغرز نتوءاتها في جسدي، أســألها أن ترفق بجلدي ؛لأنّه يغلّف روحاً من الأحزان والأشواق، كم أشتاق لكَ!! كلّ يــوم أبعثُ لكَ نداءً، أتسمعُ ندائي أم أنّ لجّة البحر تبتلعه كما تبتلع أسراري التي أناجيــه بها في كلّ يوم لقاء، وما أكثر لقاءاتي به، أوّل مرة زرتُــه برفقــة هــلا وأختهــا الصغرى، عندما عرفتُ الطريق أصبحتُ أزوره وحيدة، حدّثته طويلاً عن صــداقة خفيّة تربطني به، كلّما أقبلتُ نحوه، تسرع لجّته إلى لقائي، هديره يحــدّثني بــآلاف الأسرار والحكايا ،أمّا حكايتي فتستهويه بشكل خاص، يسارع مــاؤه إلــى غــسل أخمص قدميّ، كثيراً ما يلهو عابثاً ،فيغسلُ أجزاء من جسدي ببعض قطرات مياهه التي تقفز بخفّة نحوي.

تعجب هلا من ملازمتي لهذا البحر، تظنّ أنّني أعشق هذا الحــشد المهــول من الماء، أمّا أنا فأعشق البحر ،لأنّه يشبهكَ، إنّه طيّب مثلكَ، يُحسن سماعي مثلكَ، يسرّ لي بكلامٍ لا يكاد يفهمه غيري، غضبه يشبه غضبكَ، صمته يشبه صمتكَ، ماؤه يلامس جسدي برقّة تشبه رقّتكَ، كم أعشق البحر !! طيفكَ يقتربُ منّــي بفــضول ويسألني بفضول عن مبلغ حبّي له، أبتسم له ، وأقول : أحبّه بمقدار شوقي لرؤيــة شمسي...

متى ألقاكَ يا سليل العشق ؟ طال الفراق، لعلّكَ سعيد الآن، إن كنتَ كــذلكَ، فأنا راضية بقسمتي، أحدّثكَ عن طفولتي وعائلتي، أحدّثكَ عــن أحلامــي، طيفــكَ يسألني بفضول عن حياتي، أجيبه سعيدة بأسئلته، فأنتَ يا مَن أحبّ لم تسألني يومــاً عن حياتي، ما تعرفه عنّي يبدأ من اللحظة التي قابلتني فيها فــي الأكاديميّــة منــذ

سنوات، أرغب بنهم في أن تسألني عن حياتي، أحدّثكَ لعشرات الساعات عن تلك المرأة التي عشقتكَ بلا حدود، حتى البحر له حدود، أمّا عشقي فلا حدود له.

هذه الأمواج التي ترتطم بشدّة باللّسان الصخري تذكّرني بغضبكَ وبانفعالاتكَ وبعطفكَ، تذكّرني بكَ وأنتَ تضحك ، وتقول لي :- ما رأيكِ في أن تستيقظي غداً ، وتقفي أمام المرآة ، وتعاهدي نفسكِ على أن تعيشي كامرأة عاديّة حتى ولو ليوم واحد؟ عِدِي نفسكِ بأن تغضبي بلا مبالغة، بأن تحبّي بلا مبالغة، بأن تحزني بلا مبالغة، بأن تكوني امرأة عاديّة لا تسكن كلّ الأجساد وتقطع الأماكن والمسافات لتكون في حضني، عدِيني بأن تكوني ولو مرّة واحدة ضمن الطبيعي ،وأن لا تكوني دائماً في قمّة الاستثارة والتحفّز.
أجيبكَ باسمة :- من قال لكَ إنّ حبّي مبالغة وليس جنوناً يأتي على مراحل ؟

لا ألحظ وجود هلا وشقيقتها إلا بعد أن تجلسا إلى جانبي، تقول أختها :- ما قصّة البحر معكِ ؟ تزورينا أم تزورين البحر ؟
أبتسم لسؤالها ، الهواء يعبث بأطراف ثوبي الأبيض، أمّا شعري المتطاير فيحجب جزءاً من وجهي، لعلّه يمنع عيني من أن تقولا الكثير. ولكنّه لا يمنع ذاكرتي من أن تسترجع البارحة، أن تسترجع ثوب العروس يغمر الحفل بالأبيض، طيفكَ يقترب منّي يدعوني إلى استرجاع لحظات راقصتكَ بها بثوب أبيض، أتخيّل نفسي ألبس الأبيض ولكن في العلانيّة، كلّ عشّاق الدنيا مدعوون إلى ذلك الزفاف، زفافي إليكَ، لأول مرّة منذ ألف عام أنعم معكَ بالسعادة، سعينا الدؤوب خلف الوصال يتوّج باللقاء، يتوّج باللون الأبيض، تضمني ، وتغنّي لي، فتذوب قلوب العذارى الحالمات برجلٍ مثلكَ، رجل يحاكي أحلام المرأة وأمنياتها، رجلٌ ما زال يجيدُ امتطاء الخيل.
تقول هلا بصوتها الرقيق :- هل أعجبكِ زفاف البارحة ؟
- كان حفلاً بهيجاً.

– أهذه أوّل مرة تحضرين بها زفافاً قريباً من البحر ؟

– نعم أوّل مرة.

– ما أكثر شيء أعجبكِ في هذا الزفاف ؟

– أعجبني اللون الأبيض.

تضحك هلا من الإجابة، أمدّ يديّ نحو شقيقة هلا، فتودعني طفلتها الصغيرة، أضمّها إلى حضني بفرحة من وجد كنزاً، أتفقّد أطرافها الصغيرة، تنام بملء عينيها، ملاك صغير يطلّ من جبهتها، أتحسّس شعرها المسدل، أداعب بأطراف أناملي بشرتها الورديّة، يا إلهي ... تبتسم وهي نائمة، تفتحُ عينيها للحظة، ثمّ تعود إلى عذب نومها، أدنيها بكلتي يديّ من قلبي، أقبّل جبهتها ويديها الصغيرتين، أغمض عينيّ للحظات، أدعو الله أن يهبني أحلاماً لتكون بمثل وداعة هذه الطفلة، وبمثل جمال عينيكَ يا من أحبّ ..

يتعكّر صفو الطفلة ،وتشرعُ ببكاء عذب، أقبّلها، أهمس في أذنها :– أنا أدعو الله أن يهبني أحلاماً، ولكنّني سعيدة لوجودكِ في حضني، فلا تغضبي من دعائي ، وعودي إلى نومكِ قريرة.

تتناول الأم طفلتها، تقول بنبرتها الطيبة : إذا بقيتِ تجلسين وحيدة في هذا المكان فقد تصابين بجنون البحر.

– وما هو جنون البحر ؟

– يقولون إنّ من يطيل الجلوس إلى البحر يعشقه إلى درجة تدعوه إلى أن يقذف بنفسه فيه ليصبح طعاماً للأسماك أو ليلفظه البحر جيفة عفنة، هكذا هو البحر يقتل كلّ عشاقه.

وكذلك أنتَ يا من أحبّ تقتل من تعشقكَ.

– يجب أن تهجري هذا البحر.

– أتحاولين أن تخيفيني لأهجر الجلوس في هذا المكان ؟

– صدّقيني إنّ جنون البحر مرض حقيقي لطالما قتل أناساً من أهل الساحل، لو كنتُ أريد أن أخيفكِ لحدّثتكِ عن حارس المنارة ...

– أيّ منارة تعنين ؟ تلك ؟

– نعم، تلك المنارة القديمة، في أعلى التلّ.

– ما قصّة حارسها ؟ أهو مجنون أيضاً ؟

– لا، بل هو قاتل.

– ماذا ؟!

– يقولون إنّ هذا الحارس عشق قبل سنوات طويلة فتاة أطالت الجلوس إلى البحر، عشقها إلى حد الجنون، ورغب في حبّها، لكنّها صدّته بقسوة، فقام بقتلها ،وألقى بها في البحر ،ومنذ ذلك اليوم لم تظهر الفتاة ...

– وماذا حدث للحارس ؟

– منذ ذلك اليوم يقطع الشاطئ ذهاباً وإياباً يبحث عن حبيبته الجميلة.

– ألم تقولي إنّه قتلها ؟

– لم يصدّق أنّه فعل ذلك بل بقي ينتظر حضورها مثل كلّ يوم ويترقّب جلوسها إلى الشاطئ.

– لا أستطيع أن أصدّق هذه القصّة.

– ولكنّها حقيقية، وإن لم تصدّقيني فهذا شأنكِ.

– حارس المنارة يقتل من يحبّ ! هذه قصّة غريبة ...

تميل هلا بكتفها نحوي وتقول :دعونا من خرافات البحر وأهل البحر، ما رأيكِ في أن ترافقينا أنا وبعض الصديقات لحضور فيلم في السينما.

– اليوم ؟

– نعم بعد ساعة من الآن.

– لا رغبة لي في حضور أيّ فيلم.

– إذن سنلقاكِ على الغداء.
– إن شاء الله.

تغادر هلا وشقيقتها، أبقى وحيدة، أسأل طيفكَ :– لِمَ لمْ تصحبني أبداً إلى السينما.
يقول طيفكَ : عمّا قريب سأفعل.
– اصحبني لمشاهدة عرض فيلم (سبارتاكوس).
– ولكنّه فيلم قديم، قديم جداً.
– أريد أن أشاهد ذلك الفيلم ؛لأنّكَ حدّثتني طويلاً عنه، لقد شاهدته لأول مرّة في ايطاليا أيام دراستكَ، في تلك الفترة كان الفيلم في موسم عرضه الأوّل، لطالما تكلّمت بحماس عن الممثّل (كيرك دوجلاس) الذي أدّى دور العبد الروماني سبارتاكوس الذي ثار على الدّولة الرومانية التي تستعبد البشر ،وتعاملهم معاملة الحيوانات. قلتَ لي :– إنّكَ بكيتَ بشدّة عند مشاهدة اللّقطة الأخيرة في الفيلم، تلك اللّقطة التي تصوّر البطل سبارتاكوس مصلوباً على جذع أصمّ ، يرى طفله أمامه، ولكن لا يستطيع أن يلمسه ولو لمرّة واحدة في حياته، ويبقى وحيداً ليواجه الموت مصلوباً بينما تبتعد زوجته بابنه الرضيع ...

دقّات قلبي تشتدّ، لا بدّ أنّني خائفة من ذلك الشخص الذي يقترب منّي، أتراه حارس المنارة جاء يبحث عن عاشقة جديدة يطعمها للبحر ؟ لا بدّ أنّه يقصدني، مع كلّ خطوة يدنو منّي، يعلو وجيب قلبي، أهرب بنظري نحو الأفق، لا أريد أن أشاهد وجه ذلك القاتل يسرق روحي.
– أنا أكره رطوبة البحر.
أطالع الصوت، لا بدّ أن ندائي قد وصلكَ حتى أراكَ أمامي مبتسماً، وشعركَ الشّمسي يداعب هواء البحر أطرافه، تدنو منّي، تجلس إلى جانبي، ترسلُ نظراتكَ

لتطارد نظراتي الهاربة نحو الأفق.

تقول لي :- لا أستطيع خسارتكِ ، أستطيع تحمّل خسارة الدنيا، لكن ليست خسارة إنسانة تعشقني حدّ الجنون، حياتي من دونكِ لا تطاق.

- وماذا عن شرف ؟

- أنتِ من أعشق، وغيركِ من النساء مجرّد نزوة سرعان ما يزول تأثيرها.

- ألا تحبّ شرف ؟

- أستطيع تحمّل خسارتها ،فأنا لا أعرف ما نوع المشاعر التي أحملها لها، مشاعري نحوها ليست بوضوح وعمق مشاعري نحوكِ، أنتِ أثيرتي.

- كنتُ أعرفُ أنّكَ عائد ...

- كنتُ أعرفُ أنّكِ عائدة ...

- ضمني إلى صدركَ.

- لا تتركيني ثانية، كوني إلى جانبي، أحتاج إلى امرأة بمثل قوّتكِ وحبّكِ كي تحميني كي تدثّرني كما الأطفال.

- ضمّني إلى صدركَ.

- الليلة، بل الآن، سافري معي لمدة أربعة أيّام إلى إيطاليا ، هذه فرصتي لكي تنقذيني من شرف، لا تتركي حبّكِ في مهبّ الريح، سافري معي ...

- ولكن ...

- سافري معي ،ولتحترق الدنيا من بعد ذلك، سأحضر هناك مؤتمراً فنّياً، وستكونين ملهمتي في هذه الرحلة.

- ضمني إلى صدركَ . موجةٌ طموحةٌ تأتي سريعاً ،وتحتضن جسدينا بمائها البارد، تقول لي :- توقفي عن الهرب ، لا تجعلي شرف ملاذي الوحيد.

- ليس من الحكمة التورّط في مثل هذه المعركة، حرب القلوب حرب خاسرة على كلّ الأحوال.

- متى كنتِ بهذه الحكمة ؟ لطالما كنتِ مجنونة، أنا الآن بحاجة إلى كلّ تهوّركِ

وإقدامكِ، بحاجة إلى حبّ لا يهزم أمام امرأة تجيد تذوّق شفقتي.

– أنا لا أريد أن أغتصب حياتكَ كما تفعل، لا أريد أن أتسلّل إلى حياتكَ كما اللصوص والفضوليّين، لا أقبل بشفقتكَ بل أريد أن أدخلها وهي تتديني بالياسمين، وهي تتحرّق شوقاً إلى لقائي.

– من قال إنّكِ امرأة تُهدى الشفقة ؟ أيّ شفقة تقدّم لسحركِ وعشقكِ ؟ أنتِ نصفي الحبيب، ولستِ نصفاً غريباً قد أُهدي إليه شيئاً من عطايا وفُتات اهتمامي.

– ولكن ...

– أجهدني هروبكِ، لمَ لا تكوني كسائر نساء الأرض ؟ تقولين لمن تريد اغتصاب سعادتكِ : هذا الرجل لي، أعشقه ،ولن أستغني عنه ،ولتذهبي إلى الجحيم.

– ربّما لأنّك لستَ كسائر الرجال .

(٢٤)

أسافر معكَ ؛لأنّك تحتاج إلى حمايتي، تحتاج إلـــى قــوتي، تحتـــاج إلـــى حبّي،يدكَ التي تحضن يدي بقوة تريد أن تقول لكَ : أنتَ من يحميني ،أنـــتَ الـــذي أرغب في حبّه، وأحلم بلقياه.لم أعلم أنّ الذين يسرقون من قبل من يحبّون يشعرون بمثل هذه السعادة، سعادة تسكن قلوبهم ،تفتتهم ،وتنشرهم رذاذاً في وجـــه الـــشمس، آلاف الأقدام تفصلنا عن الأرض، الكلّ في الطائرة نيام، قسمات وجهكَ النائم تفيض بالأمن والسعادة، أطبع قبلة على جبينكَ، إحدى المضيفات تلمحني، تبتسم لي ،وتهزّ رأسها كأنهّا تقول: قبضت عليكِ . بعض السحابات تدنو من نافذة الطائرة قريباً مما أجلس. ما أجمل لونها القطني الساحر ! ليتهم يسمحون لنا بمغادرة الطائرة إلى تلكَ السماء الرحبة، هم لا يعلمون أنّ العاشقين يجيدون التحليق فـــي الهـــواء، يغلقـــون أعينهم ، ويمسكون بأيدي من يحبّون، فيحلّقون في السماء، يتركون للـــريح مهمـــة مداعبة أجسادهم ،والتحليق بها هنا وهناك، الحبّ معجزة قادرة على إحياء المـــوتى كما هي قادرةٌ على منحنا هبة الطيران من غير جناحين .

في المطار تطوّق كتفيّ بيدكَ اليمنى، تدفع بي نحو حضنكَ، نـــسير علـــى مهل، لا بدّ أنّ هيئتنا تلفت انتباه بعض الفضوليين، يفوتني أن أتفرّس فـــي المكـــان الذي أزورُه لأول مرة، وجودي معكَ يلغي كلّ الأماكن والأزمان، يجعلـــكَ الحيّـــز الوحيد الذي أدركه، تحدّثني طويلاً، تقصّ عليّ بعض ذكرياتكَ، أحفظ ما تقول عن ظهر قلب، تحدّثني عن أُناس كثر تعرفهم في هذه البلاد، أحسدهم جميعاً، أحسد كلّ من عرفك قبلي، أحسد كلّ من تمتّع بصداقتكَ وبقربـــكَ وبحلـــو معـــشركَ، أحـــسد الهواء؛ لأنّه يستطيع أن يداعبكَ باستمرار، يستطيع أن يسكنَ في رئتيكَ متى تـــشاء، وكلّما دفعتَ ببعضه إلى خارج رئتيكَ عادَ مرةً أخرى إليه .

ضابط الجمارك الإيطالي يفتّش حقائبنا القليلة، يطالع على عجل مـــا فيهـــا، ليتني أتقن لغته لأخبرته أن حقائبنا تحمل الكثير من الممنوع، تحمل عشقاً يُـــصادر في كلّ الدنيا، تحمل عشقاً يستطيع أن يكفي كلّ البشر، أنا ومـــن أحـــب نحتـــرف تهريب العشق إلى كلّ البشر، تستطيع أن تضعنا في السجن بتهمة تهريب العشق.
يحادثكَ الضابط قليلاً، تبتسم لكلماته ، تحادثه بلغته ثم تحييه على ما يبـــدو، وتعـــود إلى تأبّط ذراعي والسير نحو باب المطار، أسألكَ بفضول: ماذا قال لك؟

– لم تسألين ؟

– لأنّ كلماته جعلتكَ تبتسم.

– لقد ظنّ إنّني مخرج إيطالي مشهور، عندما أخبرته أنّه متوهّم ،وأنّه قد خلط بيني وبين ذلكَ المخرج بسبب شبهٍ يربطنا قال لي إنّني أشبه الفنانيين الإيطاليين ، أبـــدو بالنسبة له كرسام موهوب أو ممثل ساحر أو كمخرج عبقري، تصوري عرف أنّني فنان من دون أن أخبره بذلك.

– نعم أنت فنان، فنان في إسعاد المرأة التي تهواكَ.. أتراني أسعدكَ كما تسعدني؟

– بل تدهشينني، عشقكِ يدهشني، يجعلني أحار فيه، وأحدّث نفسي بتلـــك الـــسعادة التي أقبلتْ معكِ .

– ...

– قال لي : إنّك جميلة...

– حقاً؟

– فقلت له:– وتعشقينني أيضاً...

ليتني أملكُ أن أرسل لأمّي لأقول لها :– إنّني أعيش أسعد لحظات حيـــاتي معكَ ، لأقول لها:– إنّني معكَ هنا في إيطاليا لمدة أربعة ،أيام ولست فـــي المدينـــة حيث يجب أن أكون.

ليتها تعرف أنني أسأل نفسي عشرات المرات في اليوم إن كان ما أحياه الآن حقيقة أم مجرد حلم جميل؟ إن كان ما أحياه مجرد حلم أرجو الله أن لا أستيقظ من نـــومي أبداً لأعيش هذا الحلم إلى الأبد.

إذا مِتُ يا من أحبّ فاكتب على شاهد قبري أنّ عمري كان الأربعة أيـــام، لاشيء غير أربعة أيام، عمري اختزل كلّ سعادته في هذه الأيـــام ألأربعـــة التـــي قضيها معكَ هنا؛ أعمار الناس لا تقاس بالسنين بل تقاس بالسعادة، إذا مِتُ فـــأخبر أمي إنّكَ أسعدتني، أسعدتني كما لم تَسْعَدُ امرأة ، أمّي تحبّ من يسعدونني حتى وإن لم ترضَ عن أسلوبهم في سعادتي.

لم أعرف أنّ اليوم الواحد بساعاته الأربع والعشرين، يمكن أن يحتمل كـــلّ هذه البهجة والسعادة، أراقبكَ وأنت تنام كالطفل إلى جانبي، لا بدّ أنّك متعب، ليتنـــي أستطيع أن أنعم بالنوم مثلما تنعم به ،ولكنّني كلّما كنتُ معـــكَ جافـــاني النـــوم، لا أستطيع أن أنام ، وأفوّت لحظة من عمري إلى جانبكَ دون أن أمتّع عينيّ بمطالعـــة وجهكَ . بعد بضع ساعات سيكون الصباح، سأتأبّط ذراعكَ مثل كلّ يـــوم ولآخـــر يوم، وسنطرق الشوارع والأسواق سوياً، غداً هو اليوم الأخير لنا هنا ، ليت إجازتنا تطول حتى آخر العمر.

لا أعرف أيّ أحد هنا، بل لا أفهم ما يقول من حولي، هذا الوضع يفرحني، يشعرني أنّني وإيّاكَ في دنيا وحدنا، لا أحداً فيها غيرنا، ولا أفهم فيها إلاّ كلماتـــكّ . في الأيام الماضية اكتشفنا سوياً كلّ أركان المدينة ، لم نترك شارعاً فـــي رومـــا إلا وكتبنا اسمنا بحروف من عشق على مبانيه.
قلت لي:إنّ كثيراً مما تزوره معي تراه لأوّل مرة في حياتكَ ،ولم تـــزره مـــن قبـــل عندما كنت تدرس هنا . طلبتُ منكَ أن نزورالأماكن التي عشت فيها في الماضـــي،

وأن تعرّفني على كلّ ركنٍ ألفتَ الحياة فيه أثناء دراستكَ قبل سنوات في هذه المدينة، رفضتَ ذلكَ ، وأخبرتني أنّكَ تريد اكتشاف الجديد برفقتي ، أمّا الماضي فقد أسقطته من ذاكرتكَ ؛لأنّني لم أكن به، وأيّ ذكرى لا ترتبط بي لا قيمة لها.
قلت لي: أريد أن اكتشف الأماكن برفقتكِ، أريد أن أتذكّرها بكلماتكِ، أريد أن أرسمها بحركاتكِ ، وأن أسمها بدهشتكِ، أريد أن أتأبّط ذراعكِ لتطالعني الأماكن برفقة أرتميس التي تعشقني بجنون.

كلّما زرنا مكاناً جديداً أخرجتَ دفتراً صغيراً من جيب قميصكَ، وكتبتَ بخطّكَ الصغير المتّزن اسم المكان وساعة زيارتنا له، ثم تجعلني أكتب كلمة أصفه بها ، كلمة واحدة مثل: رائع، كبير، مخيف، أخضر ... ثم تعيد الدفتر بعطف إلى جيبكَ . حدّثتني كثيراً عن تلكَ الأحداث والأساطير المرتبطة بكثيراً من الأماكن والآثار التي زرناها ، أحياناً كنتَ تستذكر بعض الفتيات الإيطاليات اللواتي قابلتهنّ في الماضي في هذه المدينة ، وعندما كنتُ أسألكَ بفضول عنهنّ ، كنتَ تبتسم وتقول لي :- لا واحدةً منهنّ عشقتني مثلكِ . ثم تعود إلى حديثكَ العذب عن الأماكن والأحداث.

أستيقظ فلا أجدكَ، لا بدّ أنّ النوم قد قهرني، أطالع الساعة، لقد نمت لساعتين، أبحث عنكَ فلا أجدكَ، لا أثر لكَ في الغرفة، أفكّر في أن أرفع الهاتف لأسأل موظف الاستقبال عنكَ، ذلكَ العجوز البشوش الذي استقبلنا في اليوم الأول لزيارتنا، لقد ابتسم لنا وأعطانا مفتاح غرفتنا.
سألتكَ يومها : لِمَ يبتسم لنا بهذا الشكل ؟
قلت لي : لأنّه متأكد من أننا عاشقان .
- لعلّه ظنّ أننا عروسان في شهر العسل .

– في هذه البلاد لا يحتاجون إلى ورقة صفراء يوقّع عليها رجل دين ، ويشهد عليها غريبان كي يباركون العشق ...

– أسننـــزل في غرفة واحدة ؟

– أنا أحبّكِ إلى درجة التقديس ،أنسيتِ ؟ على كلٍّ هذه الغرفة كبيرة إلى درجة أننـــا لن نقابل البعض فيها .

– أتسخر منّي ؟

– بل أحدثك بلغة الأطفال التّي تحبّينها .

لكنّ بأيّ اللغات سأسأله عنكَ ؟ ليتني أتقن الإيطالية لأسأله إن كان قد رآكَ تغـــادر المكان صباحاً.

تدخل المكان وأنت تحمل كيساً بلاستيكياً كبيراً وبعض الزهـــور ، أســـألكَ بانفعال :–

– أين كنت ؟!

لا تجبني بل تطبع قبلة عجلى على وجنتي ، تفرغ زهـــرك فـــي زهريّـــة قريبة من السرير، تسألني إن كنتُ مستعدةً لمرافقتكَ من جديـــد، أؤكـــد لـــكَ أننـــي مستعدّة، بحركة منكَ، تدير جسدي نحو المرآة، تخرج من الكيس ثوباً ورديّاً، بيديكَ تقرّبه منّي، تضع أعلى كتفيه قريباً من كتفيّ، يبدو الثوب مناسباً لطـــولي، أطـــالع المرآة لأرى قبالتي امرأة عاشقة ورجلاً مدهشاً يعاين ثوباً على جـــسدها . الثـــوب في غاية الجمال، أستدير نحوكَ، ألتقط الثوب من يديكَ، أدنيه قريباً من عيني ، يا له من ثوبٍ رائع ! ثوب إغريقي قديم كالذي تلبسه آلهات اليونان اللواتي أطالع صـــور تماثيلهنّ في كتب النحت .

أسأل بفرحٍ غامر : من أين أتيتَ به ؟

– أعرف بعض الحوانيت الأثرية التّي تبيع الثياب التقليدية والجواهر القديمة .

– كيف عرفتَ أنني أحلم بثوب مثله ؟

– لا بدّ أن حبيبتي أرتميس تحنّ لثوبٍ من أثوابها الأسطورية، كنتُ متأكداً من أنـــه سينال إعجابكِ .

– أهو لي ؟

– لقد اشتريته من أجلكِ ؟

– لا بدّ أنّ ثمنه باهظ .

– سيصبح باهظ الثمن عندما ترتدينه .

– أسأرتديه الآن ؟

– بالطبع ستلبسينه ، وترافقيني كما آلهة اغريقية .

– ستلاحقني نظرات الناس .

– هي تلاحقكِ ألبستِ هذا الثوب أو لم تلبسيه .

كطفلة تنتظر صباح العيد ألبسه بسعادة غامرة، يناســبني تمامــاً، كتفــاي عاريان تماماً كما لم أتعوّد، لو كنتُ في بلادي لما استطعت أن أزور الأسواق بثوب يكشف عن الأكتاف إلى هذا الحدّ، أسدل شعري كما تحبّه، أكاد أسرّحه، يدكَ تمتــد إلى المشط، تسرّح شعري بهدوء ساحر، أسمح لوجهي بأن ينام على صدرك، أمّــا يداكَ فتسرّحان شعري، يداكَ تعيدانني في لحظة إلى طفولة عاشقة بين يديكَ، وأنت لا تعرف خطورة عشق الأطفال .

تقول لي بنشوة واضحة : أنت المرأة الوحيدة التّي مشّطت شعرها طوال حياتي .

آخذ المشط من يدكَ بعد أن انهيتَ تصفيف شعري، أطالع وجهي في المــرآة التّــي تعكس وجهكَ الذي يراقبني، أقول لكَ : أتعرف أنّ التاريخ الميثولوجي الإغريقــي يقول : إنّ إله الشمس (هيليوس) كان في أول خليقته إلهاً للحب والعشق، و لسبب لا أعرفه توجّهه (زيوس) إلهاً للشمس والفنون والرجولة .

– حقاً ؟ لم تخبريني بذلكَ من قبل .

– الآن وأنا أغرق في رائع حبّكَ، تذكّرت هذه القصة، الآن أنا متأكدة من صـــدقها، لا بدّ أنّك جمعت عظيم الحب وعظيم الرجولة، أنت خليط مدهش منهما .

من حقيبتي أخرج ذلكَ العطر الذي تستعمله، أنقط الكثيـــر علـــى جـــسدي، تسألني باستغراب عن سبب استعمال عطركَ بدل استعمال عطرٍ نـــسائيّ، أقـــــول لكَ:– أشعر بأنّ عطرك تعويذة مقدسة، كلّما نقطت منه على جسدي، حُرّم على أي رجل أن يراني أو أن يتمناني، بل أكون خالصة لك .

– سيدة مجنونة ...

– بحبكَ .

– متى ستنهين زينتكِ ؟

– بعد لحظات .

– دعيني أساعدكِ ...

بكفّ يدكِ اليسرى تلمس أسفل وجهي ، أمّا يدكِ اليمنى فتلوّن بسحر شفتيّ بطـــلاء الشفاه الوردي اللون، بحذرٍ واضح تخطّ شيئاً من الكحل الأسود في أطراف حدقتّي اللتين تغرقان في مراقبة عينيكَ تقتربان بسحرٍ منهما .

– لا تقل لي إنّك لم تفعل هذا من قبل ؟

– بل فعلته، ولكن ليس في الحياة، ربّما في حياة أخرى .

أتأبّط ذراعكَ، نسير في الطرقات، أشعر بزهو خاص ؛ لأنّني أتـــأبّط ذراع رجلٍ قد سرقته أرض السعادة، تطالع يدي التي ترتجف قريباً منكَ تقول لي : ألـــن تكفّ يداكَ عن الارتجاف ؟

– ليس وأنا معك وأتأبط ذراعكَ .

تلكَ المرأة بثوبها المزركش ، وعصبة رأسها الملوّنة، وقرطيها الكبيرين، وأطواقها الذهبية تقترب منّا، تثرثر معك، أسألكَ من تكون ؟تطلب منّي أن أفتح كفـــيّ ، وأن

أسمح لها بمطالعته، أفعل ذلكَ، أتساءل إنْ كانتْ تستطيع قراءةَ طالعي ؟ الـــذي لـــمْ يستطع الضابط سعادة أن يقرأه ولو لمرة واحدة، تحدّق الغجرية في باطن كفي، أمّا أنت فتميل عليّ بكتفكَ العريض ، وتقول :- الآن ستكشف لي عن كـــلّ ماضـــيكِ، سأسألها عن كلّ لحظة من لحظات حياتكِ .

- لو سألتني لحدّثتك طويلاً عنه دون أن تحتاج لوساطة هذه الغجرية .

تبقي الغجرية كفيّ في باطن كفّها، تثرثر معكَ ببعض كلّمات، تدسّ شيئاً من النقـــود في يدها، تبتسم لكَ، تودّعني بحركة من رأسها ثم تسير في طريقها، أسألكَ بفضول: ماذا قالتْ ؟

- لن أخبرك ...

- بل ستفعل ... هيا ماذا قالت ؟

- قالت : إنها لم تقرأ إلا شيئاً واحداً في كفّك

- ما هو ؟

تحدّق بي، ثم تقول بصوتٍ رخيم : قالت : إنّك ستحبـــيـــنـــي أبداً .

سأحبّك أبداً ،أعلم أنّ هذا قدري . هذا السوق رائع ، طبيعته الشعبية تروق لي، مزدحم بشدّة، الأصوات تعلو فيه، بالكاد أستطيع أن أسمعكَ، أمام ركـــن تلـــكَ العجوز أتوقّف وإيّاك، نطالع بضاعتها النسائية الملوّنة، تحدّثها كثيراً ، لا بـــدّ أنّـــك تسألها عن أثمان بعض الاكسسوارات، تقول لها شيئاً، فتبحث عنه مليّاً في محتويات الصناديق التي تتكدّس حولها، تخرج شيئاً صغيراً، تفتح يديها لتشاهد ما أحـــضرته لكَ، في اليد اليمنى زوج من مشابكِ الشّعرالذّهبية على شكل شموس متوهجة، فـــي اليد اليسرى زوجٌ من مشابك الشّعر الذّهبية على شكل أقمار صغيرة، أهذا ما طلبت منها؟ يا لها من مشابك جميلة، أيّها ستختار لي الشموس التّي ترمز لكَ، أم الأقمـــار التّي تسمّيني باسمها ؟ تمدّ يدكَ لتلتقط شمساً من يسرها وقمراً من يمينها، تدفع لهـــا الثمن، تمدّ يدكَ إلى شعري بلطف، تُثبّت المشبكين إلى جنبي مقدمة رأسي، أطـــالع

المشابك الذهبية في مرآة صغيرة تقرّبها العجوز منّي لهذه الغايـــة، شـــمس وقمـــر تسكنان شعري، تقول لي:– ضعيهما دائماً في شعركِ ، هما رائعان ...

يومٌ طويل ولكن ممتع، هذا الثوب، والأسواق القديمـــة، والآثـــار العتيقـــة، ورفقتكَ أشعرتني جميعها بأنّني أختزل معكَ السنين لأحيا معكَ أسطورة ساحرة أو حكاية سعيدة كالتي تحدّثنا بها الجدّات في ليالي الشتاء الباردة .

هذا المطعم الذي دعوتني لتناول العشاء فيه يبدو كمتحف صغير، مـــساحته صغيرة، يشعر من يدخله بأنّه سيدخل غرفة معيشته، ألوان ستائره بالغـــة الحـــزن، مقاعده وطاولاته الخشبية رائعة الجمال، حيطانه الحجرية تشي بعمره، الموســـيقى رائعة وهادئة، المكان يعجّ بالساهرين ،لكن يبقى الهدوء السمة الأساسية للمكان ، ما أجمل كلمات المطربة التي تصدح بصوتها الرخيم ! لا أفهم معنى ما تقـــول لكـــنّ كلماتها تلمس شغاف قلبي الذي يعي ما لا يعيه عقلي، الإضاءة خافتة، لكـــنّ تلـــك الشمعة التي يشعلها النّادل أمامنا تهب للمكان نوراً إضافياً .

آكل بشهية لم أعهدها في نفسي، الطعام لذيذ ،لأول مـــرة أتـــذوّق الـــسمك مطهواً بهذه الطريقة، لكنّه لذيذ، تلك اللقمات التي تدسها من وقت إلى آخر في فمي تبدو ألذّ الطعام .

أعود ، وأعاتبكَ بنبرةٍ طفولية : كنتُ أتمنى أن أزور ينبوع الأمنيات ،لمَ لم توافقني على زيارته .

– لمَ أردتِ أن تزوريه ؟

– لأتمنّى الكثير .

– تستطيعين أن تتمنّي في أيّ مكان .

– لكنّ الينبوع له قدرة مجيته على تحقيـــق الأمنيـــات، لـــذلك ســـمّوه ينبـــوع الأمنيات .

تشير بيدك إلى الأعلى ،وتقول: هناك تُستجاب الدعوات ،وتُحقّق الأمنيات، الينبـــوع لا يملكُ أيّ قوة ليحقق أيّ أمنية .

– أعلم، ولكنني رغبت في تلكَ التجربة .كلّ العشاق يزورون ذلك الينبوع .

– لذلك لم أرغب في زيارته، أريد لنا ذكريات لا تشبه ذكريات باقي البشر .

تلكَ الموسيقى الشعبية التي تُعزف الآن تبدو رائعة، تُشعر المـــرء برغبـــة جامحة في الرقص، الكثير من روّاد المطعم يقبلون على الساحة المخصصة للرقص كي يرقصوا جميعاً تلكَ الرقصة الإيطالية الجماعية، تدعوني لمـــشاركتكَ، أعتـــذر بشدّة ،فلا فكرة عندي عن تلك الرقصة، أفضّل أن أشاهدكَ تصطفّ مع الراقصين، تمدّ يدكَ إلى كتف تلك الشابة إلى يسارك، ترقص برشاقة مع الراقـــصين، تبتـــسم بقوة، تلتفتُ كثيراً إلى مكان جلوسي، أشجّعكَ بتصفيقي المرافق لألحان الموســـيقى الشعبية التي تبدو أنّك تجيد الرقص بمصاحبتها ،شعركَ الشّمسي يتناثر هنا وهنـــاك، صبيّة أخرى تشاركَ الرقص ،وتمدّ يدها إلى كتفكَ الأيمن، ما أشـــدّ جمـــال تلـــك الصبية ! ترقص وترقص، جسدك الممشوق يندي المكان بالنشاط والفـــرح، أتـــذكّر تلكَ اللوحة المعروضة في رئاسة الأكاديمية التي أدرس فيها، لوحـــة تجـــسّد إلـــه الشمس (هيليوس) يرقص بزهوٍ مع ربّات الفن التسعة اللواتي يمثلن الفنون جميعهـــا على ربوةٍ جرداء، إلى جانب اللوحة كتب بخط واضـــح وأنيـــق بعـــض الأشـــعار اللاتينية القديمة ،لعلّ شاعراً إغريقياً قد كتبها، أستطيع أن أتذكّر مقطعاً واحداً مـــن تلك الأشعار :–

وأنت يا من تهفو إلى نشوة عارمة موصولة لا تخبو

لن أكلّفك –بينما تسعى– شططاً كي تُبلغ مناك

لن أدعوكَ لتنشر شراعكَ ضد الريح

ولن أشقّ عليكَ برحلة طويلة

أقول لك:– لقد مضى الوقت سريعاً، غداً نسافر.

– نعم، غداً نسافر .

صوتكَ يتردّد بقوة في الظلام، ما أجمل السير ليلاً في الحي القديم ! تبدو البيوت متشابهة إلى حدٍ كبير، الشارع مرصوف بالحجارة القديمة، ولا أرصفة في المكان، أسألكَ :– ما اسم هذا الشارع ؟

– لا أعرف، لأوّل مرة أسير في هذا الحي .

لا أحد في الشارع، السكون يلفّ المكان، هل الجميع نيام ؟ لا بدّ أنّهم كذلك ،فلقد انتصف الليل منذ نصف ساعة .

أقول لكَ بنبرة طفولية :– هل سبق لكَ أن مارستَ إزعاج الناس بطرق الأبواب والهرب بعيداً ؟

– لمْ أفعل ذلكَ أبداً .

– أنا لم أفعله أبداً في طفولتي، أمّا الآن فتغريني هذه الأبواب المقفلة بممارسة هذه الشقاوة، كم أتمنى أن أمارس هذه الشقاوة ولو لمرة واحدة في حياتي .

– لقد قرأتُ مرة أنّ كليوبترا وأنطونيو كثيراً ما كانا يلهوان في شوارع الإسكندرية، يطرقان الأبواب ثم يفرّان بعيداً .

– معقول ؟!!

– هناكَ دائماً عشّاق مجانين .

أطالع وجهكِ، أبتسم لكِ، نقترب من أقرب باب، نطرقه بشدّة بطرقات متتالية، ثم نولّي هاربين، وصدى الليل يردّد ضحكاتنا .

(٢٥)

الآن ، وبعد سنين طويلة، تساوي سنين فراقنا لا زلتُ أتذكّر تلــكَ الأيــام الأربعة التّي قضيتها معكَ في إيطاليا، كنتُ أظن أنّ هذه الأيام بمثابة نقطة تحــوّل في علاقتنا، لعلّه كان من الممكن أن تكون كذلك لولا وجود شرف .

لا بدّ أنني جلستُ في هذا المقعد الخشبي على قارعــة الطريــق لــساعات طويلة، بعد دقائق ستغرب الشّمس، البرد يصبح أشدّ، أشعر بأنّه ينخر في عظامي، عندما قابلتكَ قبل ثمانية عشر عاماً، كنت أهوى البرد بل عشقت فصل الشتاء حيــث قابلتكَ لأول مرة في حياتي، لم تكنْ تؤلمني مفاصلي كما تفعل الآن، لا بــدّ أننــي أصبحتُ أوهن ممّا ظننتُ، لعلّكَ استنــزفتَ كلّ شبابي وكلّ طاقتي وتركــتَ البــرد لكبري ووحدتي.

عليّ أن أنتظر حتى الساعة العاشرة مساءً كي ألقاكَ، ليس قبل ذلــك هكــذا قال لي عايد في مكالمتي الأخيرة له، لا أريد أن أحرجكَ ؛ لذا ســأنتظر العاشــرة حيث تكون بلا زوّار أو مرافقين حتى ألقاكَ .
اليوم ألقاكَ، وبعد غد سيلقاكَ عايد، قال لي : إنّه سيأتي من المطار مباشرة لرؤيتكَ، منذ زمنٍ طويل لم ألقَ عايد، بالتحديد منذ ثمانية عشر عاماً، قليلاً ما كان يهــاتفني طوال هذه المدّة، ولكنني بقيتُ دائماً أتذكره بابتسامته الهادئة وروحه الطيّبة، لا شكّ أنّه أكثر سكان الأرض دماثةً وطيبة، كلّ ما يحتاجه المرء بضع دقائق حتى يــرتبط معه بوشائح إنسانية عميقة وطيبة؛ فهو من الناس الذين تشعر بأنّكَ تعرفهم منذ زمن طويل.
نظرة واحدة إلى عينيه تكفي ليعرف المرء أنّه شقيقكَ، ومن يسمع نبرته في

الكلام يعرف إلى أي مدىً أحدكما متأثّر بالآخر ، ومحبٌ له، اسميتَهُ دائماً :- الأخ الصديق والصديق الأخ، وكلما تحدّثتَ عنه نعتّهُ بصفة : العزيز الغالي ، ولأنّكَ تحبّه فقد أحببته من كلّ قلبي ، وقد كان أهلاً لهذا الحبّ.

امرأة شابّة تمرّ من أمامي تلبس معطفاً شتوياً، تحمل بعض الأكياس في يد، أمّا اليد الأخرى ،فتمسك بها طفلةً لا يتجاوز عمرها العامين، الأمّ تحاول أن تحثّ الطفلة على السير سريعاً، أمّا الطفلة ذات الأنف المحمّر، فتحدّق بفضول في كلّ ما حولها، عندما تلاحظني ابتسم لها، لكنّها تبدو متجهمة ولا تبادلني ابتسامة بابتسامتي، أتذكّر حبيبتي أحلام ،كم أنا مشتاقة إليها!! فضيله أهدتني يوماً بطاقة تذكارية تحمل صورة لطفلة شقراء بعينين زرقاوين ، هذه البطاقة اشترتها من محطة الباص ونحن في طريقنا إلى زيارة أسرار في الجبل، وكتبتْ على ظهرها : "هذه أحلام ... أحلامكِ يا صديقتي الحبيبة كلّما تذكّرتي أحلام تذكريني " .
وها أنا على عهدك يا فضيله كلما تذكّرتُ أحلام تذكّرتكِ.

تبتعد الطفلة مع أمّها، صبيّان صغيران يمرّان من أمامي أحدّق في ملامحهما، أبحث عنكِ في وجههما، منذ أن فارقتكِ وأنا أبحث عنكَ في وجوه الأطفال، رجلٌ بمثل سحركَ لا بدّ أن يتركَ جيشاً من الأطفال من نسائه العاشقات ، من العدل أن تنجب عشرات الأبناء ليرثوا عنكَ رجولتكَ وطيبة قلبكَ ،كثيراً ما بحثتُ عنكَ في وجوه الأطفال، كثيراً ما بحثتُ عن رائحتكَ في كلّ طفل أقبّله، لكنّي لم أجدها أبداً ... ولم أجدكَ .

كلّ طفل أراه يذكّرني بك، أتذكّركَ تقول بنبرتكَ الواثقة :- نحن البشر وليد وحبّ أزلّي، كلّ طفلٍ يولد هو وليد حبّ فطري، الجسد ينتج ملايين الحيوانات المنوية ، واحد منها فقط يُسمح له بتلقيح البويضة، أتعرفين لماذا واحد فقط من ملايين الحيوانات يُسمح له بذلك ؟ لأنّ هذا الحيوان أحبّ البويضة ،فأحبّته

واختارته، هكذا هو الطفل وليدٌ لحب واختيار ، ولـيس وليـد غلطـة أو اعتبـاط، أجسادنا أيضاً تمارس العشق والاختيار .
تفسيراتكَ العميقة للحب تدهشني، تصمتُ ثم تكمل :-
- أتعرفين متى يموت الإنسان ؟
- ....
- يموت فقط إذا تأكّد أنه لم يعدْ قادراً على إنتاج الحبّ أو تقّبله، عندها فقط يموت ...
هذه هي لعبة الحياة والموت، هي ذاتها لعبة الحب وعدمه .

انتصب واقفة، أشدّ معطفي إلى صدري، لا بدّ أنّ هذا البرد قد بدأ يـضعف جسدي، ويدعوني بقوة إلى السّعال ، أتناول حقيبتي النسائية، أسير كمـن لا يقـصد سبيلاً محددة، أعدل عن الشارع الرئيسي القديم إلى شارع فرعي صغير، من هـذا الشارع أستطيع أن ألمح مكان سكاني عندما كنت أعيش في هـذه المدينـة، نافـذة غرفتي مضاءة، أيّ النّساء تسكنها الآن ؟ هل تعرف مـن تـسكنها الآن أنّ امـرأة سكنتها من سنوات طويلة تقف في الشارع تحدّق الآن في نافذة غرفتها ؟ بالتأكيـد هي لا تعرف .

لا بدّ أنّها لا تعرف أيضاً أنّ ذلك الشارع الممتدّ أمام نافذتها قد حفظ اسـم رجل وامرأة سارا فيه كلّ ليلة لسنوات طويلة، هذا الشارع ظلّ وفيّاً لهما كما كـان أميناً على ذكراهما.
أحدّق في الشارع، أسأله إن زاره حبيبي من بعد رحيلي ؟ لا يجيـب الـشارع بـل يصمت . أشمّ رائحتكَ تعبق بالمكان، كم أتمنّى أن أنحني أرضاً، وأن تلمس شـفتيّ الأرض ، وأن تقّبلها شبراً شبراً ؛لأنّكَ وطأتها في يوم من الأيام، ألم أقل لكَ مراراً: إنّني أعشق الأرض التي تمشي عليها . لكنّ شيئاً فـي داخلـي يختـزل الـسنين،

ويخشى،أن تلمحه ذاته، إنّي أرى ذاتي تقف إلى النافذة ، وتفتقدكَ .

كم أفتقدك، ولكنني لا أتوقع لقاؤك أبداً، أعرف أنني ما زلت أقابلكَ من وقت إلى آخر بحكم إشرافك على المرسم الذي أحضّر فيه مشروع تخرّجي، ذلكَ التمثال الذي أسميته إليكَ .

كلّما قابلتكَ أحيّك بأدب ثم أختلق الأسباب لأغادر المكان دون أن ألفت انتباه أحد إلى ذلك الجفاء الذي نعيشه، فأنا أكره أن يشمت بنا من كان يراهنون على حبنا .

أمّا شرف فلم أعد أخشاها ،لم يعد رسمها يزعجني، فقد نالت ما كنتُ أحاذر عليه، نالتكَ، لا أعرف كيف استطاعت في شهور ثلاثة أن تملك من اهتمامك ما لم أملكه منكِ في سنوات ست، أشعر بأنّ هذه السنوات أمست تتبخر بكلّ ما فيها من ذكريات وسعادة أمام تلك القسوة والجفاء التّي بتُ ألمسها فيكَ منذ أشهر قليلة، لدرجة أنني قررت أن لا ألقاكَ أبداً، أنا لا أكرهكَ، وقلبي لم يبدل حلمه، ولكنني أحاول أن أبقى لك بعضاً من الذكرى الحسنة، أريد أن أحتفظ ولو بالقليل من جمال ذكرياتي معكَ، أريد أن أستلقي على سريري، وأن أدندن ولو برصيد قليل من الذكريات السعيدة بتلكَ الكلمات المكتوبة منذ زمن،"ذكريات حبّي وحبك ما انسهاش، هي أيامي إلي قلبي فيها عاش، فيها أحلام قلتها وحققتها ، فيها أحلام لسه أنا ما قلتهاش" .

أريد أنسى أنّك تقتطع الكثير من وقت عملكَ لأجل أن تجلس معها لساعات، وتساعدها في تعلم اللّغة الإنجليزية التي لا تتقنها ،وتحتاج إليها في عملها، أريد أن أنسى أنني أبدو كالطفلة الغرّة أمام خبث أنوثتها، ومكائد أقوالها ... ربما البعد عنك ينسيني كلّ هذه الأمور .

الوقت متأخر ، أقفل باب غرفتي ، لا أحبّ أن تعود الصديقات من حفل العشاء الذي تعدّه الأكاديمية ليقلنَ لي كعادتهن :- أنهنّ شاهدنكَ وإياها في أحد الأماكن .

أفتح أحد أدرج مكتبي، أخرج منه أحد تلكَ الأشرطة الشفّافة المتشابهة والمصفوفة بنظام واكتظاظ داخل الدرج ، الذي أغلقه بحرص، صورة قديمة أجدها بين الأشرطة، إنّها صورة قديمة لوالد ووالدة نورما، لقد ظننتُ كما ظنّتْ أنّها قد ضاعت، كيف جاءت إلى هنا ؟ لا أعلم، أغلق الدرج، أحدّق في تلكَ الصورة التي أضعها على الطاولة أمامي لأعيدها إلى نورما صباحاً، أضحك كما ضحكتُ ونورما طويلاً على هذه الصورة القديمة، لِمَ تحتفظ نورما بهذه الصورة بالذات ! ألتأكد لنا ولنفسها أنّ أباها الذي يصغر أمها بسبع سنين ما زال يحبّ أمّها ؟ هذه الصورة تجمع والدها وهو صبي عمره ثلاثة عشر عاماً مع والدتها وعمرها عشرون عاماً في صورة عائلية قديمة ،فكلاهما يمّتُ بصلة قرابة إلى الآخر، لو كنتُ أنا من يملك تلك الصورة لمزّقتها ،لأنّها تظهر امرأة عاشقة وطفلٌ عاشق، يا له من وضع مقزّز !

والدة نورما رائعة الجمال ومكتملة الأنوثة، صورتها الجميلة تذكّرني بحالي، أقف إلى المرآة، كيف لم ألحظ تلك الهالات السوداء حول عينيّ ؟ وتلكَ البثور التي تغزو جبيني وأنفي، لا بدّ أن تساقط شعري قد شغل ذهني عن ملاحظة اصفرار وجهي، قال الطبيب : إنّني لا أعاني من أيّ مرض، وأنّ تساقط شعري ليس إلاّ توتّر نفسي . وقفت أتساءل بخوف متى سيتوقف هذا التساقط ؟ فروة رأسي بدأت تظهر في بعض الأماكن، طول شعري تراجع إلى النصف أو أقل، أخشى من أن أفقد شعري مع فقدانكَ.

أيتمرّد جسدي عليّ ؟ أمْ أنّه حزين ،ولكن بطريقته ،فالأجساد لها لغتها الخاصة في الحزن والألم ، أتتمرّد أنوثتي عليّ ؟ وترفض أن تعبّر عن ذاتها بعيداً عنكَ ؟ أم أنّ أنوثتي مجروحة من قسوتك؟ إذن لِمَ لا تنزف تلكَ الأنوثة، أم أنها تصممّ على أن لا تعبّر عن نفسها بأيّ طريقة تعرفها ؟ منذ أشهر ثلاثة لم أعرف ما تعرفه النساء من تجدّد تأكيد أنوثتهن كل ثمانية وعشرين يوماً، الطبيب يقول مرة أخرى : إنّ جسدي لا يعبّر عن أنوثته وعن نضوجه بسبب حالتي النفسية المتوترة. ويؤكد أنّ جسدي سرعان ما سوف يعود إلى طبيعته .
مسكينٌ يا جسدي !! مرارة الحزن تظهر عليكَ على الرغم مما تبذله من طاقة لإخفاء أزمتكَ .

أضعُ الشريط في المسجّل، أدير مفتاح التشغيل، ينبعث صوتكَ وأنت تتكلم في أحد ندواتكَ حول الفن المعاصر، هذه الأشرطة رائعة تتيح لي أن أسمع صوتكَ كلّما اشتقتُ إليكَ، وما أكثر ما أشتاق إليكَ ! أملك مجموعة كبيرة من الأشرطة التي سجّل صوتكَ عليها في كثير من اللقاءات والندوات الأدبية التي كنت تشارك بها وأحضرها . عندما أضع المسجّل أمامكَ ليرصد كلّ كلامكَ، يظنّ الحاضرون أنّني مهتمة بالفن، أما أنتَ فتعلم تماماً أنني مهتمة بكَ.

أقف إلى النافذة، أستمع إلى صوتكَ وأستمتع به، كم هي الأرض بعيدة عن نافذتي، لمْ أكن أعلم أنّ من يسكن في الطابق الخامس يكون في مثل هذا الارتفاع ، أنا أخشى الارتفاعات، نعم أخشاها، ولكنني الليلة لا أريد أن أكون ممّن يخشون الارتفعات. أفتح النافذة، أستعمل الكرسي لأصعد على الرخامة الرقيقة التي تمتدّ على طول حافة النافذة، أضع قدمي الأولى على الرخامة ثم الثانية، أصبح معلّقة في الهواء، هبّة رياح قوية ، وأهوي إلى الأرض، أهكذا تبدو الأرض من علٍ ؟ كنت

أظن أنّ المنظر سيبدو أكثر ألفة، لكنّه مخيف، مخيفٌ جداً، أنا لا أريد الانتحار كما سيظن من يراقبني، ولا أبحث كذلكَ عن مغامرة، ولكنني أريد أن أنظر إلى الدنيا من فوق، من أعلى، لعلّ آلامي تبدو من فوق أصغر وأحقر، عجباً حتى من علٍ تبدو آلامي بنفس الحجم وبنفس الطعم .

أستطيع من هنا أن أرى أشجار السرو التي تحيط بيتكَ الذي كثيراً ما تساءلتُ في الماضي:- أين عساه يكون ؟ وكيف عساه يكون ؟ وأيّ ذوق نظّمه ونسّقه ؟ كم أخشى من أن أراكَ تمرّ قريباً من هنا، ستسكنني بالتأكيد تلكَ الرعشة التي ما زالت تصيبني كلّما رأيتكَ ،وسأهوي من مكاني إلى الأرض لأخرّ ميّتة من غير شك، أنا لا أحبّ أن أموت وأهجر عشقكَ .

ليت الأرض أقل استدارة وأكثر استواءً، لو كان الوضع كذلكَ لاستطعت أن أرى من مرتفعي هذا بيت نمر نصّار، هو لا يعنيني بالتأكيد ،ولكن ما يعنيني هو أمر تلكَ الإشاعة التي تملأ المدينة حول تلكَ العلاقة المريبة التي تربط نمر نصّار بشرف، أنا لا أصدّق الإشاعات ، لكنني أصدّق المعلومات التي أسمعها من فاتنة، فعلاقتها المتشعبة وأصدقاؤها الكثر يجعلونها المصدر الأوثق للمعلومات في المجموعة، البارحة همستْ في أذني بضحكتها المعتادة :- بعينيّ اللتين ستأكلهما الديدان رأيت شرف تخرج من بيت نمر نصّار .

- لعلّها كانتْ تزوره لحاجة ملحّة .

قالت بنبرة ذات معنىً :- لا بدّ أنّها حاجة ملحّة وإلاّ لما كانت لتزوره في منتصف الليل ،وتخرج من عنده مرتبكة ومتوترة .

- ماذا تعنين ؟

- لا أعني شيئاً .

ليتني أستطيع أن أراها من مرتفعي هذا تخرج من بيت نمر نصّار، لا كي أخبرك بذلك، فأنا لا أستطيع أن أراكَ تتألم من خديعتكَ بامرأة ما، ولا أستطيع أن

أدفعكَ لتغضب من غفلتكَ، لكنني أرغب في أن أشمت بك ولو سراً لتمسّككَ الأرعن بهذه المرأة المريضة ، ليس فقط في سلوكها ، ولكن في فطرتها وفي قلبها .

لطالما ظننتُ أنّ النساء أمثال شرف موجودات فقط في الأفلام الساقطة أو في مخيّلة العجائز اللواتي يدعين لبناتهن بالستر، ويخشين عليهن من أبناء الحرام ومن شيطان الشهوة، لم أكن أظنّ أنّني يمكن أن أعرف امرأة مثلها، أقابلها في كلّ يوم، أتكلّم معها، تخدعني فأصمت، تقتلني فأموت، هي تناسب نمر نصّار مدّعي موهبة نظم الشعر، الذي يطرق كلّ المجالس ويعرض أدّق التفاصيل لعلاقته بأيّ امرأة، ضارباً بسمعته وسمعتها بل وأحاسيس زوجته وصورة أبنائه أمام الناس عرض الحائط، فكلّ ما يهمه في الحياة أن يؤكّد لمن حوله أنّه عاشق ، وأنّ هناكَ من تعشقه، حتى لو كانت معشوقته مثل شرف تعشق بشكل خاص نقوده وكرمه .

من حافة النافذة إلى الكرسي ثم أعود إلى فراشي، أنزلق حتى نصفي تحت غطاء النوم ، أمسكُ بذلكَ الديوان الذي تهواه بشكل خاص، أقلّب صفحاته بشكل سريع، معظم الصفحات مكتوب عليها بخط يدي، كلمات هي لكَ، أعود لأقلّب صفحاته منذ البداية ولكن بهدوء، كلّ القصائد أتتبّع معها نفس السياسة، أضعُ خطاً تحت العنوان ثم أكتب إلى جانبه جملة أعنيكَ بها، أقرأ بعض ما كتبتُ :-

- المقدمة : إلى رجلٍ طهّرني بحبّه .
- بين الضحك والجد :- هل تخبركَ أزهاري بعشقي ؟ هي جحودة ؛لأنّها تعجز عن أن تخبركَ بمدى عشقي .
- فردوسي :- أنت فردوسي الذي لم أدخله أبداً ،ولكنني أنتظر .
- نعمة الألم :- إلى أعذب ألم ... إليكَ .
- حنين :- كيف كُتب عليّ الفراق والحنين ؟ وأنا لم أذق فرحة اللقاء .
- ذكرى :- وأصبحتُ ذكرى باهتة في سِفْر الماضي .

– قيثارة الأمل :– وماذا بعد رحيل الأمل ؟
– حديث النفس :– لن نلتقي أبداً، ولكن يا للعجب سنكون في لقاء دائم !
– في البعد والقرب :– لأننا لم نلتقِ، فلن يكون بيننا وداع .
– أنا وأنت والمها والقمر :– إن كان حبّكَ موت ، فأنا أسعد ميّتة .
– الأسرار :– ليتني أستطيع سرقة سرّ قلبك .
– غرامية :– لست استثنائية في العشق ،ولكنّكَ استثنائي في الوجود .
– إليكَ عنّي :– إرسال خاص إلى جلالة قلبكَ مع الإنتظار .
– دليل الأشواق :– أشكركَ على كرم زيارتكَ لي في عالم أحلامي كلّ ليلة .
– الخاتمة :– في قربي كنتُ بعيدة، فهل يكتب لي في بعدي أن أكون قريبة ؟

أستيقظ مرعوبةً، طيفكَ أرعبني، طوال الليل طاردتني بجسدكَ الممشوق، وطلّتكَ الشّمسية، لكنني خفتُ منكَ، بدون سبب خفتُ منكَ، ركضتُ كثيراً، كدتَ تمسك بي، قدماي شلّتا ، وثبتتا في مكانهما، سرعان ما تحوّل جسدي إلى جذع شجرة وشعري إلى أوراق، أمّا أنتَ فوقفتَ تبكيني بكل عجز .
أطالع الساعة، لقد انتصف النهار منذ ساعة، صفحات الدّيوان الممزّقة يعجّ بها المكان، تلكَ الوردة الحمراء المخيفة التي كنتُ أستعملها لتعيين آخر صفحة قرأتها هي آخر من نجا من هذه المذبحة، أتحسّس نفسي لا أثر بعد لعودة أنوثتي، أفكّر في المرسم، الكثير من العمل المتراكم ينتظرني هناك.

لا أكاد أسمع أيّ صوت، متى خيّم هذا الهدوء على المكان ؟ أجيل نظرة عجلى في أرجاء المرسم، لقد غادر الجميع، وبقيتُ وحيدة منهمكة في عملي، هكذا أنا أنغمس في عملي عندما تطاردني الأحزان، الساعة تقارب العاشرة مساءً، لا بدّ أنني الوحيدة المتأخرة في المبنى كلّه، أنا خائفة؟ لا لستُ خائفة ؛ طيفكَ يشعرني بالأمن، وهذا التمثال الذي يكاد يكتمل يملأ المكان عليّ، كلّ قسمة من قسمة التمثال

تكاد تتكلم، عينا التمثال أكثر جزء أرضى عنه في عملي، أطراف وأعضاء التمثال تظهر بكل جرأة، لم أخجل ولم أخاف وأنا أؤدي عملي، تماماً كما أراد الأستاذ مشعل الخضرا عملاً جريئاً ورائعاً، نصحني يوماً بإفراغ مشاعري في عمل فنّي، قلت له :- أخاف وأخجلُ من أن أفعل ذلك، قال لي : عندما ترحل كلمتي أخاف وأخجل من قاموس فنّك ستصبحين فنانة مدهشة.

أرى صورتي تنعكس على النافذة الزجاجية، ندبتي تظهر بوضوح من خلف أذني، شعري المجموع إلى أعلى يظهر بروز أوردة عنقي، لا بدّ أنّ وزني قد انخفض أكثر مما ظننتُ ليصاب وجهي بهذا الشحوب الشديد .
أجلس بحذر من يخشى التكسّر على المقعد القريب من قاعدة التمثال، أسند ظهري إلى الحائط الإسمنتيّ البارد، أتأمّل تمثالي، ما زال في حاجة إلى بعض العمل، ليت أنوثتي تجتاحني، وتقذف دمائي الفاسدة، وتنشّط جسدي، وتبعث لي قوة إضافية تجعلني أستطيع أن أعمل في تمثالي لساعة إضافية أخرى .
أيكتب لي أن أصبح فنانة مرموقة كما تتنبأ صديقاتي لي باستمرار ؟ النجاح كالعشق تماماً ، كلاهما قدرٌ لا يُدفع، أتأمّل التمثال، الأساتذة في الأكاديمية يسمّونه مشروع تخرّج بأنّ أمّا أنا فأسمّيه (إليكَ).

أشعر بأنّ روحكَ تسكن في عملي، أنا ممّن يعتقدون بأنّ الأعمال تحمل أرواحاً، وبمقدار تلكَ الأرواح يسمو عمل الفنان ويرقى فنّه ويجلّ عمله . أتذكّر أغنيةً أجنبية تحكي قصة فنانة عمياء أحبّت رجلاً تعرّفت عليه، عندما جاء ليزورها صدفة في مرسمها، وجد أنّها قد شكلّت بالصلصال رأساً بشرياً بملامح واضحة، المدهش في الأمر أنّ هذا الرأس كان تجسيداً مطابقاً لرأسه .
لا بدّ أنّ روحها العاشقة قد سكنتْ يديها وعملها ،فأنتجته محاكياً لمن تحبّ . عندما أخبرتكَ بقصة هذه الأغنية، قلتَ لي :- إنّ الفكرة لم تعجبكَ ؛لأنّ الحبّ فيها صبابي

غير واضح الملامح، وأنتَ تخاف من هذا الحبّ . هذا الفرق بينـــي وبينـــكَ، أنـــت تخاف من المجهول، وأنا أنتظر المجهول.

أنتظرُ من المجهول أن يشفق عليّ ،فيرسلكَ إليّ، كم أنا مشتاقة إلى لقائك!! إلى سماعكَ تقول لي: كلّ عام وأنتِ في خيرٍ، وعقبال ألف سنة . السنواتُ تضيع هباءً إن لم تباركها بكلماتكَ وأمنياتكَ .

طيفكَ يضمّ جسدي المتعب، بحركة منه يكسوه بالأبيض، آلاف الشمعات تظهر فجأة لتنير المكان، موسيقى تبعثُ من المجهول، تراقصني، تسعدني تماماً كما أسعدتني في الماضي، توسّدني صدركَ، وأحلّق معكَ في سماء المرسم، نبضات قلبي تشتّد، أشعر بأنّ نشاط جسدي يفتُر، طيفكَ يختفي .

– لا تزالين تفيضين نشاطاً وحيوية على الرغم من تلك الصّفرة التي تعلو محيّاكَ .

ألتفتُ نحوكَ، لا أصدّق أنّكَ أمامي، أيّ قدرٍ أرسلكَ إليّ ؟

تقول بنبرة هادئة :

– كنتُ متأكداً من أنّكِ ستكونين هنا، قلبي حدّثني بذلكَ .

– قلبكَ ؟!!!

– كلّ عامٍ وأنتِ بخيرٍ .

– وأنتَ كذلك .

– يبدو أنّكِ قد خسرتِ الكثير من وزنكِ، ألا تأكلين ؟

– لعلّ وزني قد انخفض قليلاً .

– بل كثيراً ...

– ربما .

- لنتأكد ... تعرفين طريقتي في معرفة الأوزان .

تقترب منّي تحملني كما الطفلة، لدقائق تحدّق بي، لا بدّ أنّ قسماتي المتعبة تحدّثك عن الكثير من الألم والانكسار، تعيدني برفق إلى الأرض، تقول لي بنبرة ضاحكة

تغالب حزناً ما : بل انخفض وزنكِ كثيراً ... أأنتِ مريضة ؟

– لا .

تقول بابتسامتك الحلوة، إذن عاشقة ...

تقترب من التمثال، تهبه شيئاً من تأمّلك، تقول لي : لقد رسمتِ لوحتين أحدهما تجسّد (أرتميس) كما تصوّرها الأساطير، والأخرى تجسّد (هيليوس) كما تصوّره الأساطير، تستطيعين أن تحصلي على لوحة (هيليوس) لعلّها تفيدكِ في عملكِ .

– قد أفعل .

– وقد لا تفعلين .

– لقد قارب العمل على الانتهاء .

– أرى ذلك .

– وقد بات من المتأخّر الاستعانة بمساعدة غيري .

– أما زال اسم التمثال (إليكَ) ؟

– ألم أقل لكَ إنّ الأسماء أسخف ما نحمل وما يحمل غيرنا ؟

– صحيح ...

تصمتْ، حزنٌ خاص يظهر على قسماتكَ على الرغم من تلك الابتسامة التي تزيّن وجهكَ، دموعٌ بعيدة تتلألأ في عينيكَ، عندما أرى تلك الدموع في عينيكَ، أعرف أنّ حزناً كبيراً يكبّل روحكَ، أستطيع أن أغفر لكَ أيّ ذنب، لكنّني لا أستطيع أن أغفر لكَ ذلك الحزن الذي يسكن صمتكَ ويجلد روحي .

أستجمع قوتي ، وأقترب منكَ، تجلس، فأجلس قريباً منكَ، تمسكُ بعطف مؤثر يديّ، أسحب أحدهما من عطف يدكَ ،وأداعب بظاهر أناملها وجهكَ الحزين، أقول لكَ بعد تردّد : ما الذي يحزنكَ؟

تصمتُ، عيناكَ تزوغان بوجل، أخمّن أنّكَ تبحثُ عن الكلمات، أعلّق عينيّ في

وجهكَ، أنتظر إجابتكَ، تقول بصوت متعب كمن حطّمه السفر : شرف حامل ...
– وما شأنكَ أنتَ إن كانتْ حامل ؟
– هي في ورطة .
– لا تقل لي أنّكَ ستتحمل أخطاء غيركَ، دعها تواجه خطاياها .
– ...

أنتظر إجابتكَ، ترمقني بنظرة ميتة، تدفن ذقنكَ في الأرض، لا أعود أرى وجهكَ، كتفاكَ يهتزّان بوضوح، أرفع رأسكَ بيديّ ، دموعاً تغادرهما من غير وقار، أشعر بأنّ السماء قد سقطتْ عليّ، ألم ما يمزّق أمعائي، شرف تنقضّ عليّ، وتحاصر جسدي ، وتنتزع روحي، كم أنا غبية !
أبتسم ببرود مقتول ، وبدون مبالاة أقول : إذن ستصبح أباً ... ستنجب أحلام ... ستنجب شرف طفلة تشبهكَ، هل ستشبهها أيضاً ؟
– أنا ...
أقاطعكَ : إذن ستنجب أحلام، وسأبقى من دون أحلام.
– أنا أحّبكَ لا أستطيع الحياة من دونكَ .
– إذن ... ستنجب أحلام ؟
– لقد هـــجـــرتها، أقسم على أنني فعلتُ ذلكَ ، وهربتُ معكِ إلى إيطاليا على أمل بدء حياة جديدة معكِ ، وعلى أمل أن أتزوجكِ بعد العودة ، لكن خبر حملها كان في انتظاري، طوال أشهر ثلاثة لم أجرؤ على أن أخبركِ بالحقيقة ،لكن يجب أن تعرفي الحقيقة .

– نعم يجب أن أعرف أنّكَ ستنجب أحلام ولكن من امرأة غيري .
– كنتُ أحلم بأن أنجبها منكِ، كنتُ أحلم أن أتزوجكِ .
– أنت لا تتزوج من تهوى . ألم تقلْ ذلك ؟
– ولكنّني قد أتزوج من أعبد .

– إذن ستنجب أحلام ، وسأبقى من دون أحلام .
– حمل شرف غيّر مجرى حياتي، طفلها قهر سعادتي، لكنّني لا أستطيع أن أتخلّى عن طفلي ولا عن أمّه، سأتزوجها .
– أيّ زواج تعني ؟
– زواج أهل الأرض ...

أتساءل لمَ لا أضربه ؟ لمَ لا أقتله ؟ لا بدّ أنّني أضعف من أن أفعل أيّ شيء، أنتصبُ بصعوبة، أشعر بأنّني عجوزٌ تقطع الدنيا سيراً على الأقدام، لا أقوى على رفع ظهري ،لعلّ الأحزان تكسر الظهر، بصعوبة أخطو الخطوة الأولى، أشعر بنيران تكوي أحشائي، أهذا الموت ؟ ليته يكون، تسبقني بخطوتين، تقف أمامي، تقول بعصبية ظاهرة : لقد خذلتكِ أليس كذلك ؟ إيّاكِ أن تغفري لي، أستحق كلّ لعناتكِ .
أتجاوز جسدكَ، أحثّ جسدي المتثاقل على السير، أقول لكَ بصوت يغالب الدموع، ولكنّها تغلبه : ألمْ أقل لكَ أنّكَ أجمل من أن تكون حقيقة ...
بصعوبة أصل إلى المنـــزل، كثيرٌ من الأسئلة توجّه إليّ، لا أجيب عن أيّ منها، لا أستطيع تمييز الوجوه بشكل واضح، أدير مفتاح تشغيل المسجّل، أرفعه إلى النهاية، صوت الموسيقى يزحم المكان، أتخلّص من سترتي القطنية، ومن قبعتي الشّتوية، أبدأ بالرقص، بهدوء أبدأ، ثم تشتّد الحركات، مسّ غريب يسكن جسدي، قوة تداخله ، فتجعله يتلوى، يتقزّم، يتمدّد، يتمايل، ويعصر أعضاءه ثم يعود فينشرها بشدة وغلظة، جسد شرف يحتكر مخيّلتي، بطنها الذي مررت لأطالعه قبل قليل يكبر إلى درجة التغوّل، تبتسم شرف كما الوحش، أتضاءل حتى أختفي، وتهبكَ هي الطفل .
ما أجمل الرقص ! ما أصدق الرقص ! من قال إنّ الأفراح تصنع الرقص ؟ الأحزان هي من تصنعه ؟ لا بدّ أنّ حركاتَ الموت تحاكي تماماً حركات الرقص،

وأنا سأرقص الليلة بلا روح، فقط مع الموت.
صديقاتي يحدّقن بجزع في جسدي الراقص، جسدي ينجز الحركات بغضب واحد، الكلّ صامتون، أمّا أنا فأرقص حدّ الإجهاد .
أتوجه إلى سريري، أتكّور فيه، تدنو نورما من السرير ، تقول بتأثر واضح : ماذا جرى ؟
أطالعها بأهداب مجهدة، أضحكُ بصوت جهور، أقول لها : أتعرفين لوركا ؟
– لا أعرفه ...
– لوركا حزن بشّدة لموت زوجته، لم يبكها، بل أمضى الليل يرقص حزناً عليها، رقص لينسى أحزانه .
– من هو لوركا ؟
– هو رجلٌ حزن في يوم ما ...
– أخبريني ماذا حدث لكِ ؟
– دعيني أنام أنا متعبة ...
– ولكن ...
– دعيني أنام ... دعوني أنام ... الرقص متعب .

(٢٦)

أيامٌ مضتْ، هل تزوّجتَ من شرف ؟ لا بدّ أنّكَ فعلتَ، البارحة بدا طيفكَ كاسفاً وحزيناً، تمثالي بدا كاسفاً كذلك: لم أفرغ أبداً منه، بل قدّمته بلمساتٍ ناقصة، إدارة الأكاديميّة صمّمت على أن أُكمل التمثال، أنا صمّمتُ على هجره، لقد أعطوني إجازتي الأكاديميّة ، ولكن بتقدير أقلّ بكثير مما كنتُ آمل.

منذ تلك الليلة كُسر شيء في نفسي؛ لا، ليس حبّي للفن، بل شيء آخر لا أعرف له اسماً، لا تخشَ كلماتي، لن أدّعي أنّك من كسره، دعني أزعم أنّ القدر هو من فعل، أنا لا أؤمنُ بالقدر إذا كان يملكُ أن يفرّقنا ،ويحطّم سعادتنا، ذلك القدر الذي تخشاه جدّتي وتتّهمه بشقاء البشر، وتقول كلّما عاتبها أحدٌ في أمر ما لم تنجزه كما يجب:- " لا تَزْعل من حبيبكَ ازعل من نصيبكَ " .

البارحة ودّعتُ الأستاذ مشعل الخضرا، كان متأثراً لوداعي، كدتُ أسأله عن سبب تأثّره، ولكنّي أحجمتُ عن ذلك في اللحظة الأخيرة، عاتبني بشدّة ؛لأنّني أضعتُ فرصة العمل التي رتّبها لي في المدينة، قلتُ له :- لقد طال غيابي ،أنا مشتاقة إلى أمي ، لم أرها منذ عام، أشتاق إلى أن تدثّرني، إلى أن أسمع وقع قدميها الصغيرتين تدخلان غرفتي خلسة، تطمئنّ عليّ ،ثم تخرج، أنا وحيدتها ،ويجب أن أكون إلى جانبها.

- متى ستسافرين ؟

- بعد أيامٍ قليلة، سأحصل على أوراق تخرّجي، وأغادر المدينة في أوّل قطار.

- ألن أراكِ قبل السفر.

أهزّ رأسي بالنفي، أقول :- عندي الكثير لأنجزه قبل سفري.

- لمَ أشعر بأنّكِ هاربة ؟

سحابة من الحزن تجتاح قلبي، أقول بابتسامة كسيرة ،و بنبرة تحاول أن تُكابر على آلامها:- أنا لا أهرب، ولكنّني اشتقتُ إلى عائلتي. اشتقتُ إلى حبّهم العلني، إلى دفئهم، لذا تجدني أُنهي كلّ ما لي هنا بسرعة.

- هل ستراسليننني ؟

- سأفعل بالتأكيد.

- سأنتظر ... سأنتظر رسالتكِ.

ترتقى نورما الدرجة الأولى من سلّم الكنيسة القديمة قرب السوق القديم، تقول لي :- إنّه عالم مجنون، عالم مجنون.

- لقد خدعتني جدّتي عندما قالتْ :- إنّ الحبّ يعطي السعادة.

أمّي خدعتني كذلك عندما قالتْ :- إنّ المحبّين يمضون حياتهم سويّاً ،وينجبون الكثير من الأبناء والبنات مثل سائر أبطال القصص .

- وماذا وجدتِ ؟

- وجدتُ أنّ الشقاء هو قدر القلوب العاشقة .

- ليس كلّ القلوب .

- إذن فهو قدر قلبي ،وقدر قلبه .

ترتقي نورما درجة أخرى، تُخرج من جعبتها منديلاً أبيضَ منسوجاً من الحرير الرقيق، تغطي به جزءاً من شعرها، تحرّك يدها اليمنى ترسم صليباً بمحاذاة صدرها ورأسها، تقول لي :- سأنتهي بعد نصف ساعة، لا تتأخّري في السوق، سأنتظركِ لنقفل عائدين إلى البيت.

- لن أذهب إلى السوق سأنتظركِ هنا، أشعر بأنّني متعبة.

- وماذا عن الهدايا التي تريدين شراءها لعائلتكِ.

- سأفعلُ ذلك فيما بعد.

- افعلي ما تشائين.

ترقى نورما الدرجة الأخيرة من السلّم، تلتفتُ كمن تذكّر شيئاً، وتقول لي :- ادخلي

معي ..
– ماذا أفعل ؟!
تبتسم لي بعذوبة من يُحادث طفلاً :– الأماكن لا تحتكر الله، هو في كلّ مكان، تستطيعين أن تكوني مسلمة حتى في داخل الكنيسة ،كلّنا لله.

أدخلُ معها، تردّد بعض الصلوات مع المصلّين، أمّا أنا فأقف إلى جانبها احتراماً لمشاعر الموجودين، احتراماً لمشاعر نورما التي تحترم كلماتي، تنصتُ خاشعة كلّما قرأتُ القرآن عليها، ودعوتُ الله أن يشفيها من صداعها الذي لا يكاد يفارقها حتى يعاودها من جديد.
أدعو الله بصمت، أدعوه أن يهبني شيئاً واحداً، واحداً لا غير ،أن يهبني روحاً طيبة لا يحرقها العشق ولا يسكنها الكره أو الغضب .

سريعاً ما أحزم حقيبتي، وأدسّ نفسي في المقعد إلى جانب أسرار في سيّارتها التي تسير بأعجوبة، فمثيلاتها من السيارات القديمة أصبحتْ في متحف السيّارات.
تسألني أسرار وهي تعدّل من وضع المرآة الأمامية :– تبدين كالخارجة من القبر، وجهكِ شاحب.
– أنا أحبّ ...
– أعلم أنتِ تحبّين الوجوه الشاحبة، لكن لا أحد يحبّها غيركِ.
– زوجة الضابط سلامة بكتْ البارحة عندما ودّعتها.
– لا بدّ أنّها حزينة لفراقكِ.
– أنا ظننتُ ذلك، لكنّها قالتْ لي :– بل حزينة على وردة شبابكِ التي ذبلتْ، قولي لي يا ابنتي ما الذي يحزنكِ، أأستطيع أن أساعدكِ ؟ عدّيني أمّاً لكِ.
– بماذا أجبتها ؟

– لم أجبها ... بل صمتّ.

– ...

طوال الطريق حدّقتُ من دون قصد ببطن أسرار الذي يحمل جسداً للمـــرة الثانية، لقد كبر عن آخر مرة رأيته فيها، هل يكبر بطنكِ كذلك يا شرف ؟ أتشعرين بسعادة حركة الجنين ؟ أيلمس من أحبّ بطنكِ ؟ أيعدّ الأيام لتحمل يداه مـــا يحمـــل رحمكِ ؟ لا بدّ أنّه يفعل ذلك؛ فهو أرقّ رجال الدنيا.

أمام بيت فضيله تتوقّف أسرار بناء على طلبي، أقول لها :– لن أتأخّر.

– أما زالتْ حزينة ؟

– نعم .. لا تزال حزينة، منذ شهر لم تغادر البيت.

– مسكينة، انقلي إليها تحيّاتي.

– سأفعل.

أطرق بابها، تفتح عمّتها الباب، أقبّلها كعادتي، من السهل أن يدركَ المـــرء أنّ هذه القسمات الصارمة والبشرة الصاخبة قد ورثتها عن أمّها التركيّـــة الأصـــل، فضيله تؤكّد أنّها عربية ، وإن كانت جدّتها لأبيها تركية، تؤكّد أنّها مـــسلمة عربيـــة ،وإن كانتْ تجيد شيئاً من التركيّة، عندما تقول فضيله إنّها قـــد ولـــدتْ فـــي لـــواء الإسكندرونة، لا تنسَ أبداً أن تُلحق كلمة الاســـكندرونة بكلمـــة المحتـــلّ، وتؤكّـــد بعصبيتها الطفولية، أنّها عربية من ذلك اللواء ، وليستْ تركية .

لو كانت نورما معي، لدارتْ بينهما تلك المجادلات الطويلة حول العثمانيين وصـــفة حكمهم إبّان شباب امبراطوريّتهم البائدة.

تدعوني عمّتها إلى الجلوس، من الداخل يتدفّق صوت تلاوة القرآن، لا بـــدّ

أنّ فضيله من تسمعه، لعلّها تدعو لروح كاظم، لروحه التي أحبّتها دائماً، من بـــاب المجاملة أسأل العمّة عن والد فضيله، ذلك الرجل الصارم، الذي لا يقبل أيّ تنـــازل عن مبادئه ومثاليّاته التي يقدّسها، تجيبني العمّة التي تقوم على رعاية أخيها وابنتـــه منذ موت زوجته: ليس موجوداً، لقد عاد إلى العمل في إدارة سكنات الكشّافة.

أقول في داخلي :- صبيان الكشّافة المساكين، لا بدّ أنّهـــم يعـــانون مـــن قوانينـــه الصارمة، وآرائه المتشدّدة.

تُقبل فضيله بجسدها النحيل، أقبّلها، صمتها يحدّثني عن حزنهـــا، تـــستأذن العمـــة، وتغادر الغرفة، أمسكُ بيدها، أقول لها :- كيف حالكِ ؟

- على الأقل أنا على قيد الحياة، أمّا كاظم فمات، مات بسبـــبـــي، أنا مـــن أرســـله إلى الموت .

- لا ،أنتِ لم تفعلي، لقد أراد أن يعود إلى بلده، ويعيد بناء نفسه ليكون جديراً بكِ.

- لقد أحبّ الحياة، أراد أن يعيش، لكنّه قُدّم قرباناً في حربٍ لا تعنيـــه، لعلّـــه لـــم يعرف أبداً لِمَ يحارب.

- ...

- لا أستطيع أبداً أن أنساه، أتذكّر كلّ كلمة قالها، لقد مات من أجلي ، مـــات لأنّـــه أراد أن يسعدني، أنا أعرف أنّه مات بسبـــبي .

أقول لنفسي :- سعادة عرف ذلك أيضاً، لطالما قرأ فنجانـــكِ ، وقـــال : إنّ رجـــلاً سيحبكِ حدّ الموت، لعلّه عنى أنّ رجلاً سيحبّكِ ويموت ... أكان يعرف أنّ المـــوت ينتظر من تحبّين ؟

- ليته لم يذهب، ليته لم يستشهد، لمَ حبيـــبي بالذات هو من يموت ؟!

ليته لم يستشهد ... كلمة يستشهد لها وقعٌ خاص على أذني، تلاوة القرآن تبدو أعلى ممّا كانت عليه من قبل، أتساءل أيكون شهيداً من يُقاتل مسلماً مثله ، فيُقتل ولعلّه قد قَتَل مسلماً قبل ذلك ؟ ألم يعلموننا في المدارس أنّ المسلم سند للمسلم ، لايحـــلّ لـــه دمه أو عرضه أو ماله ؟ أم أنّ ما يعلّم في المدارس يختلف عمّا يدور فـــي أروقـــة

السياسيين؟ لعلّكِ يا فضيله تعنين أنّه شهيد حبّكِ، أو شهيد فقره وظروفه القاسية، أو شهيد الاستعباد والتطاحن السياسي ؟

– يجب أن أغادر، أسرار تنتظرني في السيارة.

– هاتفيني عندما تصلين إلى المزرعة.

– سأفعل.

– متى ستسافرين ؟

– بعد أيام قليلة.

– وهو ؟ ماذا عنه ؟

– لم أعد أراه ...

– لقد اتصل بي قبل أيام ،وعزّاني باستشهاد كاظم.

– هو دائماً رقيق وطيّب يجيد مواساة غيره.

– من أعلمه باستشهاد كاظم ؟

– لا أعلم.

– شرف اتصلت كذلك ،وعزّتني باستشهاد كاظم.

– ...

– لطالما كرهها كاظم، عندما عزّتني شعرتُ بأنّها تشمت بموته.

– أراكِ في ما بعد ...

الإقامة في مزرعة أسرار أراحتني بشكل كبير، جعلتني على الأقل أتذكّركَ دون أن تجتاحني رغبة البكاء، سمحتْ لي بأن أستذكر الماضي بصفوٍ غريـــب،في مستنبت أسرار جلستُ لساعات، أحدّث طفلة أسرار عن أسراري، كانت تهزّ رأسها لتؤكّد أنّها تدرك أحزاني، تمدّ يديها ذات الأعوام الثلاث، تمسح دموعي ، وتـــسألني :– خالتو إنتِ زعلانة منّي ؟!

أضمّها إلى صدري ... وأصمت.

قليل من الأمتعة سأحزم في حقائبي، الباقي سأتركه هنا، أراجع أوراقي الرسميّة والثبوتيّة وإجازتي الأكاديميّة، كلّها موجودة، غداً صباحاً سأغادر المكان، لا بدّ أنّ السهر الطويل مع الصديقات اللواتي قدمن لتوديعي، والتسوّق لمدّة طويلة لشراء الهدايا لعائلتي قد أنهكَ جسدي وتركه أكثر شحوباً.

أقفُ إلى النافذة، لا أبحثُ عن ذكرى، ولكن عن شيء من السلام، الهاتف يرنّ، لا أجيب، لكنّ صوت رنينه لا ينقطع، بتثاقل أرفعُ السمّاعة، للحظاتٍ يسود الصمت، لا كلام يتدفّق عبر الأسلاك، تلك الأنفاس هي أنفاسكَ، أستطيع أن أميّز وتيرة أنفاسكَ ولو بعد ألف عام من الفراق، ألاقي صمتكَ بصمت إلى أن يتدفّق صوتكَ قائلاً :-

- اتصلتُ بكِ لأيام ،ولكنّني لم أجدكِ.
- أنا مسافرة غداً.
- أستسافرين دون لقائي ؟
- لا أحتاج إلى رؤيتكَ حتى أنعم بلقياكَ، أنتَ دائماً معي.
- قولي لي :- إنّكِ غفرتِ لي، لقد آلمتكِ جداً.
- لا أملك إلا أن أغفر لكَ، أنتَ بعضي بل أنتَ كلّي، أينتقمُ الإنسان من نفسه ؟
- أنا أتألّم بشدّة ...
- أعرف.
- ألم تعديني بأنّكِ لن تسافري أبداً ؟
- أنا لستُ مسافرة، أنا هاربة.
- هاربة منّي ؟ أتكرهينني ؟
- بل أعشقكَ ، لذلك أهربُ منكَ.
- أنا لا أستحقّكِ ...
- بل تستحقّ كنوز الأرض تُسكب عند قدميكَ.

– ألن تكوني أثيرتي بعد الآن ؟
– بل سأكون دائماً.
– تزوجي يا صغيرتي المستحيلة، تزوجي ، وانجبي الكثير من الأطفال، ستكونين أمّاً رائعة وزوجة مدهشة، أنا أحسد الرجل الذي سينعم بحبّكِ.
– ...
– دعيني أراكِ، دعيني أودّعكِ، ولو لدقائق.
ليتني أستطيعُ أن أراكَ، ليتنا نسير سويّاً في المتنزّه، أحتاج لوداع أشجار السنديان، ليتني لا أرى بطن شرف يكبر ويكبر ،ويطاردني حتى آخر الدنيا .
– لا أستطيع.
– إذن لن أراكِ ...
– بل ستراني، كلّ ليلة ستراني، تابعني عند بوابة أحلامي، اجعلني خلفكَ على صهوة أشواقكَ، كن ملكَ أحلامي، سأنتظركَ في كلّ ليلة، سأنتظركَ في دنيا الأحلام.
– سآتي، كلّ ليلة سآتي لألمسَ وهماً كان حقيقة في يومٍ من الأيام، سأزور امرأة مستحيلة لا تتكرّر، سأحضر معي الزهور، أيّها تحبّين لأحضر لكِ ؟
– أحضرْ الياسمين، أنا أحبّ الياسمين.
– أيّها الراحلة !! ارفقي بقلبي.

دقائق خمس وينطلق القطار، أتكفيكَ هذه الدقائق، لتدلف إلى المحطّة وتراني ؟ من نافذة مقصورتي، أبحثُ عنكَ بين الوجوه، أتمنّى أن ألمحكَ بجسدكَ الممتدّ وسيركَ الواثق، تدلف إلى المحطّة وتبحث عنّي، فألوّح لكَ من نافذتي، لتدنو سريعاً من القطار، وتضمّني بشدة ، وتقول لي :– جئتُ لكي أودّعكِ.
أعرف أنّكّ لن تأتي، ولكن دعني أتمنّى حضوركَ، فللأمنيات طعمٌ خاص، دعني أحلم بجسدكَ يطوّقني، ألا أستحقّ شيئاً من الأحلام ؟

أفتحُ محفظتي، صورتكَ التي قطعتها من مجلّة المكتبة لا تزال قابعة فيهـــا، لسنوات اعتدتُ على أن أفتح هذه المحفظة ليطالعني وجهكَ الباسم، وشفتيك اللّتـــين تحتضنان الكثير من الكلمات.
صورة واحدة هي كلّ ما أملكُ لكَ، يا لضآلة ما أملك ؟ ليتني أخذتُ تلـــك الـــصورة التي تستضيفها أمّكَ بالقرب من سريرها، لو أنّها علمت بمقدار عشقي لكَ لـــوهبتني إيّاها من دون أن أطلبها.

ودّعتُ أمّكَ هذا الصباح، زرتها لآخر مرة في حياتي، كدتُ أستهديها تلـــك الصورة التي تظهر فيها سعيداً جذلاً بشبابكَ الجبّار، كالعادة عيناكَ أبرز مـــا يلفـــتُ النظر إليكَ، ولكنّني تراجعتُ كسيرة عن طلبي عندما حيّتني وهي تقبّلني ربما للمرة العاشرة : أهلاً بالغالية ريحة الغالي ...
ليتها عنتكَ بالغالي، لكنّها بالتأكيد عنتْ عايد، الذي زرتها برفقته لأول مـــرة، كـــان على وشك السفر والعودة إلى بريطانيا حيث يعمل، عندما أبديتُ له رغبتي برؤيتها، دعاني إلى زيارتها معه، أحزنـــها خبر قرب سفره ،لكنها لـــم تـــنسَ أن تـــستقبلني بحفاوة، لعلّها ظنّتْ أن علاقة ما ترتبطني بعايد، علاقة كتلك التي تـــربطُ الرجـــال بالنساء، لم تعلمْ أن عايد أخٌ لي ؛لأنّه أخوكَ، أمّا عشقي فهو لكَ مـــن دون رجـــال الدنيا.

لطالما زرتها بعد ذلك لأنعم باستقبالها اللّطيف وكلامها الطيّب، تملك عينين هما عيناكَ، أعجبُ كيف استطاعت امرأة بمثل هذه البنية الضعيفة والقامة القـــصيرة أن تُنجبَ رجلاً بمثل قامتكَ وسحركَ !؟ أقارنها بلاتونا تلكَ الحسناء التـــي خطفهـــا (زيزس) كبير الآلهة و ليُنجبَ منها (هيلوس) إله الشمس، لا بدّ أنّها أقـــل جمـــالاً وشباباً ،ولكنّني أحبّها، أحبّها بشكل خاص ؛لأنّها أهدتني فرحة عمري، أهدتكَ إليّ.

لم أستطعْ أن أمنع دموعي من أن تهمي سخيّة عند وداعها، عندما أخبرتها بسفري من غير رجعة، بكتْ بحرارة، وضمّتني بعطف مؤثّر،تمنّيتُ أن تُطيل فتـــرة حضنها لي، ما أجمل أن يحضنني حضنٌ لطالما حَضنكَ !
دسّت أحد خواتم يدها في إصبع يدي، صمّمتْ على أن أحتفظ به ، وقالت بابتسامتها التي لا تستطيع أن تخفي آثار حياة قاسية قد عاشتها :- احتفظي به، أنـــتِ حبيبـــة قلبي، أنتِ الغالية من ريحة الغالي، كدتُ أقول لها :- إنّني أقدّسكِ ؛ لأنّـــكِ أمّ مـــن أعشق، لأنّكِ تحبّين الرجل الذي أهوى.
كدتُ أقول :- عايد ليس من أهوى، هو رائع عذب كمـــا قطـــرة المـــاء، يـــذكّرني (بكيوبيد) ذلك الإله الصغيرالذي يبعثُ الحبّ لكلّ البشر، ولكنّني أحبّـــه كمـــا الأخ. لكنّني أصمتُ ،وأحتفظُ بكلماتي وأسمائي، فما نفع الكلمات والأســـماء فـــي لحظـــة الرحيل، كلّ شيء يصبح هباء لا قيمة له في لحظة الفراق.

صافرة القطار تُعلن عن أزوف تحرّكه، أسندُ ظهري إلى الكرسي بتعب من حطّمه الانتظار، أُغلق بيأس ستارة النافذة، أُعلّق عينيّ بسقف القطار، هناك أيضاً لا أجدكَ، لا بأس فقد اعتدتُ على عالم من الخذلان تزرعني فيه، يبـــدأ القطـــار فـــي سيره، يبدأ بطيئاً، ثمّ يسرع، يدوس من غير رحمة ذلك القلب الذي هجرني ،وبقـــي ينتظركَ في المحطّة .

(٢٧)

ها هو البيت الأبيض القديم ذاته، بشرفته الدائريّة ونوافذه الخشبية وبوّابته الحديديّة القديمة، البيت في مكانه تماماً لم يتحرّك قَيْد أُنملة، ألا تداخله ولو لحظات رغبة الارتعاش، رغبة الحركة ،رغبة الهرب من مكانه، يا له من مكان صامت كصمت القبر ! لعلّه لم يعرف معنى رعشة العشق، معنى الشّعور بقوّة قادرة على قلب موازين الأرض، يا بيتي أنتَ بليد! ولكنّني أحسدكَ على بَلادتكَ وعلى صمتكَ الإسمنتيّ ؛لأنّكَ لن تشعر أبداً بما أشعر به، لن تشعر بغصّة دائمة تكاد تخنقكَ، لن يتقبّض قلبكَ حتى الانسحاق، لن تعيش ميتاً بين الأحياء، أتعرف معنى أن تكون شبحاً مرعوباً من نفسه؟ أنا أعرف معنى ذلك.

يدفع السائق بحقائبي إلى ما بعد باب الحديقة، أدسّ في يده بعض النقود، لا بدّ أنّها أكثر مما أراد، ابتسامته تقول إنّه قد عقد صفقة رابحة معي، إن كانتْ صفقة رابحة له أتُراها تكون صفقة خاسرة بالنسبة لي ؟ لا يهمّ، أنا أكثر نساء الأرض قدرةً على تحمّل الخسارة ... لقد خسرتكَ وما زلتُ قادرة على الابتسام، أنا قادرة على ضمّ شفتيّ على شكل قوسٍ مقوّسٍ نحو الأعلى ومشدودٍ نحو الأطراف، الناس تسمّي هذه الحركة بالابتسام، ليكن سأسمّيها مثلهم بالابتسام، ماذا عن فرحة القلب؟ لا يهمّ، يبدو أنّها غير ضروريّة في هذه الحركة التي تشبه بعض حركات القرود، المهم أن تبتسم ولو بقلبٍ دامٍ ...

لم أعرف من قبل أن بيتي مُخيف إلى هذا الحد، بابه الحديديّ بارد، أخشى أن أطرقه، أخشى أن أجتازه، أشعر بأنّه سيبتلعني ، سيمتصّ دماء عروقي، سيهضم أحزاني وذكرياتي، لن يعترف بوجودكَ يا من أحببّ ، هو لا يعترفْ إلا بمن

يجتازونه ... أغلقتُ باب الحديقة، ذلك الباب الصغير والقصير إلى حدّ ركبتيّ، أنا متعبة، من حسن حظّي وجود تلك الأحواض الصغيرة التي ترعى أمّي زهورها باستمرار، أتهالكُ على حافّة إحداها، يسحق جسدي إحدى زهرات الحوض، إذن أيّتها الزهرة ها قد عرفتِ أيضاً معنى الانسحاق، لن تنعاكِ أمّي كعادتها كلّما استشهدتْ زهرة، بل ستدهش من قدومي قبل موعدي بساعتين، ستضمّني وتنساكِ، أحدٌ لن ينعى شبابكِ المسحوق، أعرف كثيراً ممّن لم ينعَ أحدٌ شبابهم المحترق .

ما أصعب أن أرفع رأسي المتهالك ما بين يديّ، يستعصي على ظهري أن يعتدل كما يجب، لا أذكر متى كان منتصباً بشباب وقوّة، لعلّه كان كذلك عندما كنتُ ألهو في هذه الحديقة قبل سنوات طويلة، كيف كنتُ أستطيع أن أتسلّق هذه الأشجار الباسقة ؟ كيف لم أسقطْ ولو لمرّة واحدة ؟ لعلّي كنتُ على موعدٍ للقائك ، ولا مكان آنذاك للموت، شجرة اليايسمين أصبحتْ كبيرة ،متى تغوّلتْ إلى هذا الحد ؟ لطالما أحببتُ الياسمين، أستطيع أن أرى تحته فتاة صغيرة بثوب أحمر تجمع زهوره البيضاء، وتنظمها بأناة في خيطٍ لتصنع منها عقوداً تتقلّدها، ثم تتخاصم مع بنات أعمامها اللواتي يشاركنها في عملية النّظم حول أيّ العقود أجمل، أيّها أكبر ؟ يتعالى صوت الخصام، تحضر أمّي تحلّ الخصام بكلماتها الطيّبة : كلّ العقود جميلة ... قد تكون كلّ العقود جميلة ، ولكن خاصتي هو الأسعد ؛لأنّه كان يستعدّ إلى لقائك، إلى رسمكَ بماء الياسمين، إلى نسجكَ بسعادة تشبه سعادة النسج ببتلات زهور اليايسمين.

جلبة لا تخفى تسكن البيت، فجأة يُفتح الباب الحديديّ الكبير، يطلّ سريعاً رأس فضولي صغير، يطالعني ثم يركض كما العفريت إلى الداخل ،صوته يملأ المكان : ألم أقل لكم ؟ لقد عادتْ، لقد شاهدتها تنزل من السيّارة ،إنّها في الخارج تجلس في الحديقة.

إذن أنا قد جئتُ ؟ ألتفتُ حولي، أتلمّس جسدي سريعاً، هل سمعته يقــول : إنّني قد عدتُ؟ من قال : إنّني عدتُ ؟ إنّني لا أكادُ أجد ذاتي، أنا متأكّدة مــن أنّنــي بقيتُ هناك، قريباً منكَ، أنا لم أعدْ ، ولن أعود، كيف أقدر علــى أن أتركــكَ ؟ لــم أنتظركَ ألف عام كي أتركَ ، وأعود هكذا بكلّ بساطة، لعلّ ذلك الــصبيّ أراد أن يقول إنّ جسدي قد عاد؟ لعلّه أراد أن يقول ذلك، نعم جسدي المتهالــك عــاد قبــل دقائق، أمّا ذلك الشيء الخرافي الذي يسمّوه روحاً ،فهو يحلّق بعيداً، قريباً منكَ، ولا يزورني إلا ليؤكّد ملكيّته لجسدي.

كثيرةٌ من الرؤوس تطلّ، الكثير من الأجساد تقترب نحوي، متــى أصــبح لعائلتي كلّ هذا العدد المهول من الأطفال، كثيرٌ من الوجوه أصبحتْ أنضج ،وباتت ترتدي أجساداً أطول وأجمل، متى حضرتْ عمّاتي وخالاتي ؟ أجاء الكــلّ لتــشييع جسدي الميّت؟ أنتصبُ بصعوبة، حضن أمّي أوّل ما يــستقبلني، حــضنها غــارق برائحة البرتقال، أشمّه، أقبّلها، أتمنّى أن تمتدّ يدها لتوقظني من نوم طويــل، لأجــد نفسي صبيّة صغيرة تستيقظ من حلم غريب، تحمل كتبها، وتسرع نحو مدرســتها ، لا تعرف شيئاً عن عشقكَ، لا تعرفكَ إلا كحلم غريب تحدّث صديقاتها المــسكونات بقصص المراهقات عن قسمات وجه فارسه الساحر، ولمساته الساحرة.

الكثير من الأجساد تسرقني من حضن أمّي ،وتهــديني قبلاتهــا، الأيــدي الصغيرة أصافح بعضها، وأقبّل بحبّ بعضها الآخر، عمّتي فيــروز تقــول لأحــد أطفالها بنبرة الحكيم:- أنظر كم هي مجتهدة، أطاعت أمّها ، ودرست ، دروسها ولم تهمل واجباتها، هيّا ادرس جيداً لتصبح مثلها ...
يا عمّتي ! إيّاكِ أن تتمنّي أن يصبح مثلي، أنا ميّتة، أنــا محترقــة، أنــا ملعونــة، أتريدينه أن يصبح ملعوناً مثلي ؟ تمنّي له أيّ شيء إلا أن يكون مثلي، دعيه يواجه

قدره دون أيّ أمنيات.

يطلّ جسد جدّتي، دموعها تسبقها، تبكي كعادتها، تحضنني، كما اشتقتُ لدموعها، ابكي ... ابكي، لأول مرّة أطلب دموعكِ، لأولّ مرة أؤمن بحكمتها، تبكين فرحة بلقائي، أمّا أنا فأستغل فرصة بكائك لأبكي... كم أحتاج للدموع ...

كم أحتاج لفراغٍ كبير، فراغ مستحيل، أصرخ فيه، لأفرغ فيه حزناً لا يدركه إلاّ من يتقن البكاء، جدتي!! لقد أضعتُ روحي، أليس جديراً بمن أضاع روحه أن يبكي ؟

يا الله !! ما أرحم الدموع بقلوب أصحابها !

آهٍ يا جدّتي الرؤوم ! لعلّكِ لا تدركين سرّ دموعي، كم أتمنّى أن تهمس لكِ دموعي، وتقول بلساني:- جدّتي !! لقد ورثتُ اللّعنة، ورثتُ لعنة نساء عائلتي، أنا ملعونة، عدتُ أحملُ لعنة الدنيا وأحزان كلّ البشر، عدتُ أحمل عشقاً .. والعشق جنّة الأرض الملعونة.

تضمّني جدّتي، تمسح دموعي، أحرصُ على أن أهرب بعينيّ بعيداً كي لا تراكَ فيهما، كي لا تقرأ فيهما عهوداً بانتظاركَ، كي لا تراني فيهما بشعرٍ أبيض وانتظار طويل ...

تتأبّط أمّي ذراعي الأيمن، تدعوني ، وتدعو الجميع إلى الدخول، أستسلمُ لإرادتها كما الأسير، ألقي نظرة أخيرة على شجرة الياسمين، تثرثر بالكثير حولكَ، ليتها ترحل من هنا، وتكفّ عن إحياء أمنياتي ، وبعث ذكرياتي، أقول :- أمّي ليتنا نجتثّ هذه الياسمينة.

- ولكنّكِ تحبينها .

- لم أعد .

- ...

- أرجوكِ ، افعلي ذلك من أجلي .

- ...

تقول جدّتي بنبرتها الحنونة، المستعدّة دائماً لفعل أيّ شيء لإسعادي :- يا ستّي يا حبيبتي، نقطعها ولا تنقهري .

أشعرُ بأنّني في احتفال، أنا أحبّ الاحتفالات ،ولكن كلّ ما أرغب به الآن سلامٌ وراحةٌ طويلة من غير أصوات أو نظرات أو روائح، من دون أيّ يد تمتدّ إليّ، وتخاطبني بلغة الجسد، أريد أن أنام وأنام، أن أدخل إلى غرفتي، أن أحبسُ نفسي مع أحزاني، لتنتظر حقائبي، قد أفرغها فيما بعد، فقط هذه الحقيبة ما تهمّني، أفتحها ،أُنقذ ذلك الثوب من إسارها، أحمله بحنان، أهبه المكان الذي يستحقّه في خزانتي، أتركُ باب الخزانة مفتوحاً لأطالعه من مكاني في السرير، صوت أمّي يناديني من خلف الباب، يطالبني بحضور العَشاء، أعدها بالحضور، مرحى للعشاء، ومرحى للضيوف المتحمّسين لتناول الطعام مع امرأة ميتة.

طوال السنين آمنت جدّتي بأنّ سحراً قد أصابني أو أنّ جنّاً شريراً قد سكن جسدي، طوّفتْ بي على من تعرف وعلى من تعرف صديقاتها من المشعوذين والشيوخ وأصحاب الطّرق وقارئي المستقبل، وعلى الصالحين والأولياء حسب اعتقادها، في البداية أعجبتني طرافة الفكرة ، لطالما دُهشت من أولئك الذين تتبرّك جدّتي بهم ، وتخشى علاقاتهم المزعومة مع القوى العظمى، يبحثون طويلاً في داخلي، فتنبؤهم مداركهم المزعومة عن سحر يسكنني وجنّ يتلبّسني ،ولكنّها لا تخبرهم عن عشق يسكن روحي و يذيبها.

في ما بعد أصبحتُ أشتاق لخزعبلات أولئك الدجّالين، أشتاق لكلماتهم التائهة، أشربُ ما يقدّمون لي، وأتّبع نصائحهم لعلّ جسدي يتحرّر من سحره، تُشرف جدّتي على علاجي المزعوم، تدعو لي أمّي بالشفاء، تقرأ لي بعض القرآن،

أنام على كلماتها وتعاويذها. في الصباح أنفّذ مرة أخرى ما تطلب جـدّتي منـي ، أطرق معها أبواب كلّ من يدّعي قدرته على فكّ السحر، ربّما أنّ أحدهم قد يستطيع ذلك، لكنّه بالتأكيد لا يستطيع أن يحرّرني من إسار سحركَ، أثقُ بأنّ لا كلمات فـي الدنيا يمكن أن تذيبكَ في داخلي،ولا بركة يمكن أن تحرق لعنتك، هذه الثقة تريحني، من قال :- إنّني أريد أن أعدم عشقكَ ؟ هو كلّ سعادتي، أريد أن أحمله إلى الأبد.

قال أحد المشعوذين :- إنّ سحراً قد دُفن لي تحت أحد شجرات حديقة بيتنا، صمّمتْ جدّتي على أنّ هذا السحر قد دُفن تحت شجرة الياسمين التي بـتّ أكرهها من غير سبب، اقتلع أبي شجرة الياسمين ،وألقى بها نحو البعيد، ليتخلّص من شرّها المزعوم، راقبته بصمتٍ وهو يقتلعها، لم تُزرع أيّ شجرة في مكانها، بقي حـوض الياسمينة فارغاً بلا أشجار إلى أن باع أبي البيت الذي أقنعته جـدّتي أنّ عينـاً قـد أصابته ،وأصابتني أنا بالذّات، ورحل جميعنا إلى بيتٍ جديد في مدينة أخرى .

ماتتْ جدّتي وهي تظنّ أنّها قد أنقذتني من العين التي أصـابتني، وشـاختْ أمّي وهي تلعن شجرة الياسمين ، وتحدّثُ من تعرفْ عن ذلـك الـسحر الـشّرير المدفون تحتها، ليتها عرفتْ أنّ السحر مدفون في عينيكَ لا تحت شجرة الياسمين .

(٢٨)

أتساءل هل سينــزعج الطبيب إذا جلست بمثل هذه الملابس المبلّلــة علــى مقاعد مكتبه الفسيح؟ كيف لمْ أنتبه إلى أنّ الأمطار تغسلني ؟ لعلّ الذكريات غسلتني قبلاً منها، فلم أشعر بوقع الأمطار عليّ، شيء من البرد يداخل جسدي، أكثــر مــا يزعجني أنّكَ ستراني بشعرٍ غير مصففّ، تلكَ القبعة اللعينة لم تحمني من الأمطار، أخلعها بنــزق، أمسكها بيدي، ما أدفأ المكان ! تدعوني الممرضــة إلــى الجلــوس لانتظار الطبيب، ما ألطف هذه الممرضة ! ملامحها جميلة كملامح ابنتي أحلام، أمّا موظف الاستقبال الذي قابلته في قاعة استقبال المستشفى ، فهو بغيض إلــى أبعــد الحدود، ليته يشفق على انتظاري، ويسمح لي بزيارتكَ ولو للحظات، ألا يشفق على امرأة قطعت نصف الدنيا كي تزور مريضاً لبضع دقائق، كلّ ما أطلب هــو بــضع دقائق لأراكَ، ثم أقفل راجعة إلى النسيان، ذلكَ البغيض يقــول :- إنّــه لا يــسمح بزيارة المرضى في ساعات الليلة المتأخرة .

كيف لا يسمح بزيارة المرضى في الساعات المتأخرة ؟

عاد وقال لي : إنّه يُسمح بزيارتهم في الصباح فقط .

أيّ صباح عنى ؟ أنا لا أملكُ أيّ صباح، كلّ ما أملك حفنة آلام وانتظار في الظلام، هكذا هو قدر أمثالي من البشر، أنا لا أستطيع أن ألقاكَ إلا بعيــداً عــن أيّ عــين ترقبني، كلّ ما أحتاجه هو لحظات فقط لحظات ،ثم ليطوقني المجهول ثانية .

أنتظر بترقّب لقاء الطبيب المناوب ، هو فقط من يملكُ أن يسمح لي برؤيتكَ للحظات، ماذا سأقول له ؟ أأقول له إنّني عاشقة ترجو أن تسمح لهــا برؤيــة مــن تحبّ؟ أم أقول له إنّني أخشى رؤية شرف بل أكره ذلك ، أخشى أن أرى تعاســتي سعادةً في عينيها، أأقول له إنّي أنتظر الليل ليطوّقني في ظلامه الــذي كثيــراً مــا

يكون رفيقاً بالبشر ؟ أأقول له إنّني أجهل ما سبب وجودي هنـــا ؟ وأجهـــل ســـبب رغبتي في رؤية ذلكَ الفنّان الذي يعاني من سكرات المرض منذ أيام ؟ أأقول لـــه : إنّ عايد رجاني أن أزور ذلكَ المريض ؟ ولكنّه لا يعرف عايد، بل ولا يعـــرف أيّ النساء أنا .

لا يعرف امرأة هجرت فنّها الذي تحب، وانزوت لسنين طويلة فـــي عمـــلٍ هادئ وساذج، لا يمثّلها ، ولا تريد أن يمثّلها، السلام مع نفسها ومع ذكرياتها هـــو كلّ ما أرادتْ، إحدى صديقاتها أصبحت فنانة مسرح مشهورة، الأخـــرى تزوّجـــت أرمنياً بعد أن أحبّته كما تمنّتْ دائماً، الأخيرة تزوجت طبيباً طيباً، ونـــسيتْ معـــه من قضى شهيداً لحبّها، وأنجبت طفلين رائعين، كلاهما أسمر البشرة ،ولكـــن لـــيس كسمار بشرة من أحبّت بل كسمار بشرة من تزوّجتْ، ذلكَ الزّوج الذي باتت تحبّـــه، ولا تذكر من الأسماء إلاّ اسمه ،وتجهل أيّ اسم آخر بالذات إذا كان ذلكَ الاسم هـــو اسم (كاظم) .
لم أعد أرى تلك الصديقات ؛لأنّني لم أعد أرغب بوجه يردّني إلى أحزاني، فـــضيله هي من صمتت باحترام أمام قرار قطيعتي، ضمّتني وقالت :- ليكن الله في عونكِ .

الله لم يكنْ في عوني، لم يذهب بذاكرة تملؤني ألمـــاً، وتُغـــرق ذاتـــي فـــي النسيان، ذاكرة تدفعني إلى أن أنتظر كالمعاقبة في هذا المكان، أبحث عـــن كلمـــاتٍ تقنع الطبيب ليسمح لي برؤيتكَ، ليته يعلم كم أنا محتاجة لرؤيتكَ ولو لمـــرة واحـــدة لكي أضمّكَ أم لكي أقبّلكَ، أم لكي أصفعكَ ؟ لا أعلم، فقط عندما أراكَ سأعرف أيّ المشاعر تسكنني .

أشرب الشاي الذي قدّمته لي الممرضة، أحدّق في وجه الطبيب الذي دخـــل وجلس إلى المكتب، قسماته صامتة لا تشي بأيّ شيء، كيف يستطيع أن يملك مثـــل

هذه الملامح المحايدة ؟يسألني عن صلة قرابتي بالمريض ؟ أصمت . يسألني عن سبب رغبتي في زيارته ليلاً ؟ لا أجيب، أراه يحدّق في معطفي المبتلّ، وفي عينيّ المسكونتين بأمنيتي ، يقول لي بهدوء :- القوانين تمنع بزيادة المرضى في الليل من قبل غرباء لا تسمح إلاّ بزيارة الأقارب وفي حالات استثنائية .

نعم أنا من الغرباء !!! انتصب بصعوبة، أضع تلكَ القبّعة على رأسي، أمسكُ بحقيبتي، لا أجرؤ على أن أرمق الطبيب بأيّ نظرة، مرارة ما تسكن روحي، أقول له بانكسار ، وأنا أغادر المكان:- لم أتوقعُ أن ترحمني ؟ الأيام لم تفعل ذلك، قلبي لم يفعل ذلك، فلِمَ تراكَ تفعل ذلك ؟
أستدير ، وأكاد أغادر الغرفة، صوت الطبيب يوقفني، تعابيره لا تزال محايدة، لكن كلام ما يسكن فمه، أتراه أيقن بفطرته آلامي ؟ أم قدّر بحدسه من أكون ؟ يقول لي بصوت خفيض ،ولكنّه وقور ، يحمل حناناً خفيّاً :- تستطيعين رؤيته ،ولكن فقط لدقائق، أهزّ رأسي ممتنّة شاكرة .

الممرّ الطويل الذي أقطعه بسكونٍ إلى جانب الطبيب تفوح منه رائحة السكون، يمزّقه صوت صراخات نسائية، يلتفت الطبيب نحوي ، ويقول كما المعتذر:- حالة ولادة متعسرة، لقد دخلتْ المستشفى قبل دقائق فقط، ستدخل عمّا قليل إلى غرفة الولادة .
يعود الطبيب إلى صمته ،أمّا أنا فأتحسس بطني، صرخات المرأة تجعلني أشعر بحسرة خاصة، حسرة تجعلني أتفقّد بطني ، أتلمّس جدبه .تعود الصراخات من جديد .

الغرفة مظلمة، بعض النور يتسرّب من النافذة، لا أكاد أرى إلا ماردا يتمدد أمامي، أمّا وجهكَ فلا أراه، يد الطبيب تمتدّ إلى مفتاح المصباح الكهربائي ليضيء

المكان ... كما البرق تظهر قسماتكَ، أقترب منكَ بخوف من يقطع آلاف السنين في لحظة، بخشوع من يقترب من قبر أحد الأولياء، تغرق في الأبيض، وجهكَ شاحب، أنا أحبّ الشحوب ،لكنّي لا أحبكَ شاحباً،أمدّ يدي لأداعب شعركَ الشّمسي، ماذا حدث له لينحسر إلى هذا الحدّ، أداعبه بشوقٍ كبير، ألمس وجهكَ، مازال ساحراً على الرغم من تلكَ التجاعيد التّي تسكنه ،أمسكُ بيدكَ، أركع قريباً من سريركَ، أجعل يدكَ مخدعاً لقبلاتي، أخفيها في عميق كفيّ، أغسلها بالكثير من شآبيب دموعي ... لا أملكُ أن أكبح نحيبي، ليتكِ يا جدّتي كنتِ على قيد الحياة، فأنتِ فقط من تدركين حكمة البكاء ،لذا كنتِ تحترفينه .

إحدى كفيّ قدميكَ تظهر مكشوفة من تحت دثاركَ، أقترب من قدمكَ، كم أرغب في تقبيلها، لكنّ ذلكَ الطبيب الذي يقف قريباً من الحارس، يقف سداً منيعاً أمام أمنياتي، أتساءل في نفسي أهناكَ ما يمنع أن يقبّل المرء قدم مريض ؟ لا أنتظر إجابة، بل أقترب من قدمكَ ،وأقبّلها بكلِ شوقٍ كما ينبغي لها، ثمّ أسترها بذلكَ الدثار، تأثّر خاص يسكن وجه الطبيب، أعجب كيف يملكُ ذلكَ الطبيب مثل هذه الدموع التي تتلألأ في عينيه ،فسيستطيع أن يقهرها بصمتٍ طويل، وملامح محايدة ظننتُ قبل قليل أنّه لا يملكُ غيرها .

يغادر الطبيب الغرفة على غير ما توقّعتُ، أتراه يهبني زيارة أطول ممّا توقعّت؟ أتأمّلكَ طويلاً بما يناسب سنوات الانتظار، أتساءل أيّ الآلام تسكنكَ؟ ليتني أستطيع أن أحمل بعضاً منها عنكَ .
أتحسّس قسماتِ وجهكَ كأنّ جسدي يحتاج إلى إعادة التعرّف على جسدكَ، لعلّ يديّ باردتان أكثر ممّا يجب، برودتهما تدعوكَ برفق إلى رؤيتي، تفتح عينيك، لا تُدهش لرؤياي، كأنّكَ كنتَ تعلم بأنّني قادمة، نوعٌ من الراحة يسكنهما لدى رؤيتي، أنتظرُ أن تشدّ بيدكَ على يدي، لكنّكَ لا تفعلْ، تقول لي : ضمّيني ...

أقدّر أنّكَ تعجز حتى عن ضمّي، أشدّ على يدكَ ، ثم أقبّلها، أنحني نحوكَ ثم أضمكَ بشدّة، ثم أحرّر جسدكَ من حضني، تبتسم لي ابتسامة تشبه ابتسامة ساكني المقابر، بصعوبة تستطيع أن تحرّك يدكَ وتداعب شعري للحظة، ثم سرعان ما ترتخي يدكَ المثقلة بمرضكَ، تطالع مشبكيّ شعري الذهبيّين، لا بدّ أنّك تعرفهما ،فأنتَ من أهداهما لي وتقول : تبدين جميلةً كما كنتِ دائماً ...

– ...

تغمضُ عينيكَ، هل عدتَ إلى النوم ؟ دقائق ثم تعود ،وتطالعني بعينيكَ المتعبتين تقول : هل تسامحيني ؟

– أسامحكَ فقط إن وعدتني بأن لا تهجرني مرة أخرى في الحياة الآخرة.

– أعدكِ ...

– ...

– إذن تسامحيني ؟

– نعم.

تريحكَ كلماتي، وتعود إلى نومكَ، أركع مرة أخرى قريباً من سريركَ، ثم أعود إلى ضمّ يدكَ التي ما يزال خاتم أعرفه يسكن أحد أصابعها، خاتمٌ قلتُ لكَ يوماً : سأعرف أنّك ما تزال تحبّني ما زلت تلبسه. إذن لا تزال محبّاً لي.

ساعاتٌ ثلاث تمضي ،ولا يعود الطبيب، يا له من رجل! فهمَ في لحظات ما لم يفهمه كثيرٌ من البشر في سنين، لا بدّ أنّه سيعود الآن ليطلب مغادرتي، سأفعل قبل أن يطلب ذلك، ألبسُ معطفي المبتلّ الذي جعلته بعيداً عنّي، ما زال مبتلاً، كلّ ملابسي مبتلّة، أقتربُ من جبينكَ الشّمسي ، أطبعُ قبلة طويلة عليه، أقول لكَ بنفسي : آه يا حبيبي لن تعيش كرجال عائلاتكَ بعمر ياسمينة بل ستعيشُ بعمر سنديانة.

صوت الخطوات يقتربْ، أتخيّل الطبيب يدخل ، ويطلب مني المغــادرة، أيّ كلمات الشكر سأقول له ؟ لا أدري ...

يُفتح الباب تدخل صبيّة سمراء، قامتها تشبه قامتكَ، لكنّ ملامحها أجمل مــن ملامح شرف، هي ابنتكَ، أعرف ذلك، قلبي يقول ذلك، كيف لا أعرف إنساناً هــو جزء منكَ، نصف وجوده ورثه منك ؟ تتفاجأ الصبيّة لوجودي، تقتربُ بأدب منّــي، وتصافحني، أصافحها بكلّ أشواق الدنيا، تقول لي: مساء الخير.

لا أجيبها بل أطوّقها بنظراتي، تقول لي بإحراج :- هل جئت لزيارة بابا ؟

- أنت أحلام، أليس كذلك ؟

- نعم .

- ...

- أتعرفينني ؟

- ...

- من تكونين ؟

أبتسم لها ابتسامة يلوح الموت فيها وأقول :- لا أكون ...

هذه هي أحلامٌ إذن، أحلام التي حلمت بها طوال عمري، لو كنت في صحة جيدة لضحكتَ ، وسألتني :- من أجمل أحلامي أمْ أحلامك ؟ كنتُ سأصمت بالتأكيد ولا أجيب، لا أعرف أيّ الكلمات أقولها لكَ، أأقول لكَ أنّني لم أتزوّج أبداً ؟ أأقــول لكَ أنّني بلا أحلام ؟ أأقول لكَ إنّ كلّ ما أملكُ هو ذكرياتي وتمنيّــاتي وحفنــة مــن الانتظار، قد تعاتبني على أكاذيبي، قد أصمت ، وقد أقول لكَ:- ألا أستحق شيئاً من الأحلام ... أنتَ تنجبُ أحلام ،وأنا لا أملكُ إلاّ الأحلام، قسمةٌ غير عادلــة، ألــيس كذلك ؟ ولكنّها ترضيني .

أخطف نظرة عجلى من جسدكَ النائم، قلبي يودّعكَ ،لكن بصمت وداعٍ لا لقاء بعده، آه كم عذّبتني !!

هذه أوّل أشعة الشمس، تتسلل ببطءٍ نحو جسدي الذي يجلس على هذا المقعد الخشبيّ منذ ساعات، تلكَ الأشعة تعجز عن أن تبعث الدفء في جسدي الّذي سكنه البرد ، وسكنته الوحشة طوال الليل، هذه الأشعة تغمرني بالطمأنينة تشبه تلك الطمأنينة التي غمرتني قبل قليل عند سماع نداء المؤذّن يدعو إلى صلاة الفجر، في هذا الصباح ولأوّل مرة في حياتي منذ سنين لم أدعُ الله أن يجمعني بكَ، لم أعد أرغب في ذلك .

لا زال الوقت مبكّراً على موعد أوّل قطار، المحطة تبدو كبيرة من دون مسافرين، أكبر ممّا يجب، أفكّر في مطالعة الساعة، أعود ، وأقول لنفسي ما حاجتي إلى معرفة الوقت ؟ لعلّي لن أحتاج إلى انتظار قطار الصباح حتى أعود إلى بيتي، الكثير من البرد والوهن يسكن جسدي، ألأنّني أصبحت عجوزاً أنا أشعر بمثل هذا الضعف ؟ لم أعرف أن الناس يشيخون في الأربعين من عمرهم، لعلّي شخت قبل ذلكً بكثير، لكنّني ما أزال حيّة، أنت قلت لي :- إنّ الأشقياء يعيشون طويلاً ... وأنا عشت طويلاً ،أكثر مما ينبغي لحزني وآلامي، شيء من دفء الشمس يغمر وجهي، أنا أحبّ النّور ،ولكنّني أحبّ الشمس أكثر، هي تذكّرني بضحكاتكَ، تذكّرني بجسدكَ يضمّني ، ويقول لي :- مجنونة . فأقول له .أحبّكَ كما عبّاد الشمس الذي يعشق الشمس ،ويتابع بقرصه العاشق وجهها الذهبي...

المزيد من الأشعة تغمر جسدي، نورٌ يحتضن بدفءٍ قلبي، لكنّ جسدي لا يزال يشعر ببردٍ شديد، استلقي بتعبٍ على المقعد، أغلق عينيّ، أشعّتكَ تداعب أهدابي، أين يكون طيفكَ ؟ أفتح عينيّ مرةً أخرى ،أجده قريباً من رأسي، أشعر بطمأنينة، أسدل براحة داهمة جفنيّ عينيّ من جديد، شعاعٌ من الدفء يغادر قلبي، الأشقياء يعيشون طويلاً ، هكذا قلت لي دائماً . لقد عشت طويلاً ...

طيفكَ يحضن طيفي بسعادة، يحدّق طيفي بذلكَ الجسد المسجّى على ذلــكَ المقعــد، أحد عمّال المحطة يقترب من ذلكَ الجسد، ويصرخ مذعوراً ، لا أنتظر لأراقب مــا يحدث، بل أمسكُ بكفّ طيفكَ ، وأحلّق معكَ نحو البعيد ... نحو الشمس .

عمّان / 2005م

النهــايـــــة

عنوان المؤلفة

سناء كامل أحمد شعلان

الأردن – عمان – الرمز البريدي ١١٩٤٢

ص.ب ١٣١٨٦

selenapollo@hotmail.com